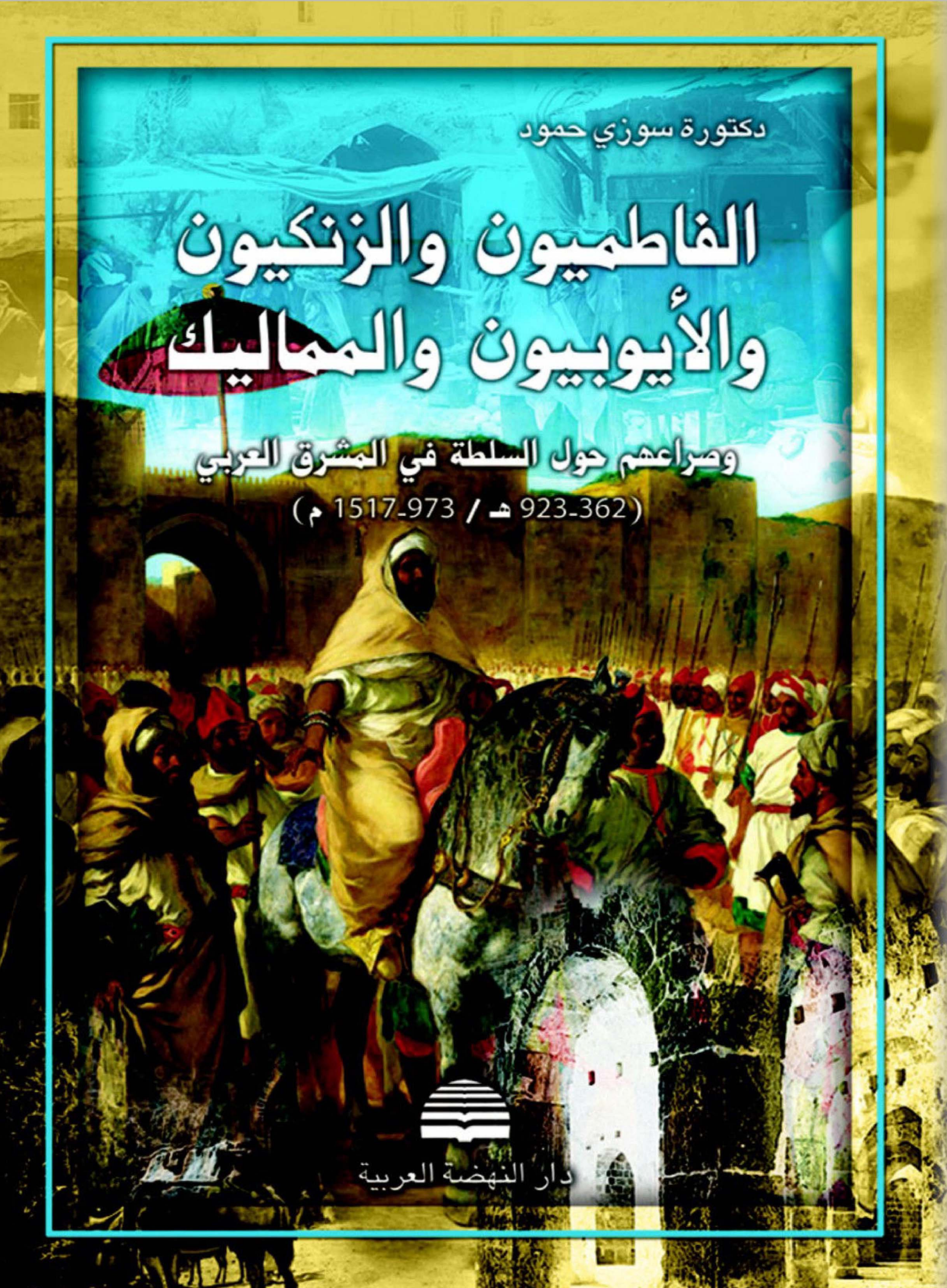

دكتورة سوزي حمود
الفاطميون والزنكيون
والأيوبيون والمماليك
وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي
(362ـ923 هـ / 973ـ1517 م)
دار النهضة العربية

الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك

وصراعهم حول السلطة

في المشرق العربي

(362 ـ 923هـ/ 973 ـ 1517م)

الدكتورة سوزي حمود

تقديم ومراجعة

المؤرخ أ.د. عصام شبارو

تقديم

بقلم المؤرخ أ.د عصام شبارو

إنها المرة الأولى، التي يطلب فيها أحد المؤرخين أو الباحثين، أن أراجع كتابه قبل إرساله إلى المطبعة، وأن أقدم له بكلمة قصيرة جداً، دون أن أعتذر عن تلبية طلبه. لأن تلبية مثل هذا الطلب، تعني على الأقل، تبني مضمون الكتاب والتأكيد على أهمية عنوانه، كما كنت أفعل أثناء اشرافي على عشرات الأطاريخ لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ العربي الإسلامي، وتحديداً في تاريخ الخلافة العباسية وما رافقها من قيام دول اسلامية مختلفة.

ولكن، حينما تقصدك طالبة سابقة، تحولت إلى أستاذة في التاريخ العربي الإسلامي، وتدرس ثلاث مواد في هذا الاختصاص بقسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة اللبنانية، فإن الأمر يختلف تماماً، لأن الدكتورة سوزي حمود، كانت طالبة في قسم التاريخ هذا بالذات، وهو القسم الذي كان لي شرف التدريس فيه طيلة إحدى وعشرين سنة (1988 ـ 2009)، قبل أن تتخرج فيه سنة 2000، لتتابع دراستها العليا، باشرافي سواء في رسالة الماجستير التي أعدتها بعنوان «فتح الأندلس من خلال روايات جرجي زيدان ـ نقد ومقارنة تاريخية». ونالت عليها درجة جيد جداً مع تنويه لجنة المناقشة، أو في أطروحة الدكتوراه التي أعدتها بعنوان: «دور المرأة السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في البلاط العباسي الثاني» ونالت عليها درجة ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، ونادراً ما يحصل الطالب على مثل هذه الدرجة.

ونادراً أيضاً، أن لا يتوقف مثل هذا الطالب عن متابعة البحث، بعد أن حصل على الدكتوراه وأصبح أستاذاً في الجامعة اللبنانية. فحينما قصدتني الدكتورة سوزي حمود، وهي تحمل نسخة بخطها عن هذا الكتاب، أهدتني كتابين تحولا إلى مرجعين لطلاب قسم التاريخ،

الأول بعنوان «تاريخ الأندلس في العصر الذهبي» وقد أصدرته سنة 2008، والثاني بعنوان «تاريخ لبنان الوسيط» وقد أصدرته سنة 2009، وبعد اطلاعي عليهما مع النسخة المخطوطة عن كتابها الثالث بعنوان «الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي» (362 ـ 923/ 973 ـ 1517) أدركت أن ظني لم يخطىء، وأنا أشاهد أمامي مؤرخة ناشئة بكل معنى الكلمة.

لقد أصاب الغرور بعض الدكاترة، بمجرد التحاقهم بالهيئة التعليمية في الجامعة اللبنانية، وكأن هدفهم الوحيد بعد نيل شهادة الدكتوراه، هو لقب أستاذ في هذه الجامعة. لكن البعض الآخر، والدكتورة سوزي حمود منه، لم يثنه التحاقه بالهيئة التعليمية، عن الشعور بأنه ما زال طالب علم، يستفيد من خبرة أساتذته الذين سبقوه، وإن كان لا شيء يمنعه أبداً من التفوق على أساتذته الذين نهل من علمهم وخبرتهم ليضيف جديداً، يتلمس معه موضعاً بين كبار المؤرخين، في مستقبل قريب.

شعرت بالارتياح، وأنا أقرأ النسخة المخطوطة من الكتاب، لتقيد المؤرخة بنصائحي لها حينما كانت طالبة تعد أطروحة الدكتوراه. ومنها الاعتماد على المصادر العربية في كتابة التاريخ العربي الإسلامي، واعتماد التاريخ الهجري وما يقابله في التاريخ الميلادي.

بالنسبة لاعتماد المصادر العربية، صحيح أن بعض المؤرخين عادوا إلى المصادر العربية والأجنبية، ويمكن الوثوق بالمراجع التي وضعوها، إلا أن المراجع العربية والأجنبية للبعض الآخر من هؤلاء المؤرخين، استسهلت الأمر، وهي تتناقل بعضها عن بعض، جمل وفقرات وأفكار، لتتكرر فيها الأخطاء التاريخية التي ما إن وقع فيها أحد المراجع، حتى تقع فيها المراجع الأخرى، وهي تتناقل عنه الخطأ نفسه. وهذا ما يؤكد، أن العودة إلى النبع الغزير داخل المصدر، أفضل بكثير من العودة إلى النهر أو روافده. ففي النبع يوجد الماء العذب الصافي الذي لا يحتاج إلى تكرير أو معالجة مستمرة خشية التلوث. وهذا ما نصحني به أستاذي الكبير، المؤرخ الأب الدكتور جان موريس فييه، وهو يشرف على أطروحة الدكتوراه التي أعددتها في جامعة القديس يوسف بعنوان: القضاء والقضاة من خلال مؤلفات القاضي التنوخي، وهذا العنوان محصور في ثلاثة مصادر عربية تمثل مؤلفات هذا القاضي وهي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، الفرج بعد الشدة، والمستجاد من فعلات الأجواد.

أما اعتماد التاريخ الهجري، في كتابة التاريخ العربي الإسلامي، وأساسه المصادر العربية

في الدرجة الأولى، فهو واجب قومي وحضاري، يندرج في عملية البعث والإحياء للخصائص المميزة للأمة العربية التي تجمع المسيحية والإسلام في لغة عربية واحدة، وهوية واحدة، وتاريخ مشترك واحد، ومستقبل واحد، والتي تجعل سحقها قومياً واحتواءها حضارياً أمراً مستحيلاً.

وتكتمل الفائدة مع اعتماد التاريخ الميلادي إلى جانب ما يقابله في التاريخ الهجري في كتابة التاريخ العربي الإسلامي، وبرامج الكومبيوتر قادرة على كشف التاريخ الميلادي الموافق، بدقة متناهية، لا تغفل معها، ليس السنة فحسب، بل الشهر واليوم.

المقدمة

ليس من السهل تناول مثل هذا العنوان الذي يتعلق بالصراع حول السلطة في المشرق العربي الإسلامي، في العصر الوسيط، وفي مرحلة طويلة تمتد حوالى 561 سنة هجرية/ 544 سنة ميلادية، وتبدأ منذ انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى القاهرة سنة 362/ 973، لتنتهي مع سقوط دولة المماليك الثانية على يد العثمانيين سنة 923/ 1517، حيث برز الصراع بين العناصر غير العربية حول السلطة.

وهذه المرحلة الطويلة (362 ـ 923/ 973 ـ 1517)، التي شهدت أحداثها مصر وبلاد الشام في المشرق العربي الإسلامي، وتداولت السلطة فيه أربع دول اسلامية كبرى، واجهت جميعها خطراً كبيراً تمثل بقدوم الفرنج تحت راية الصليب.

وكان لا بد من تخصيص فصل واحد لكل دولة من هذه الدول الأربع مع فصل حول قدوم الفرنج، حتى تتضح صورة الصراع حول السلطة، فحمل الفصل الأول عنوان: انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر وتوسعها في المشرق العربي (362ـ567/ 973ـ1171)، وهي فترة امتدت نحو 205 سنوات هجرية/ 198 سنة ميلادية، ومرت فيها الدولة الفاطمية بعصرين مختلفين، امتد كل منهما نحو قرن من الزمان، وهما: عصر القوة «الخلفاء» (362 ـ 468/ 973 ـ 1075)، وعصر الضعف «الوزراء» (468 ـ 567/ 1075 ـ 1171).

وحمل الفصل الثاني عنوان: نشوء إمارات وممالك الفرنج في المشرق العربي وتطورها (490 ـ 525/ 1097 ـ 1131)، وهي فترة امتدت نحو 35 سنة هجرية/ 34 سنة ميلادية، تمكن خلالها الفرنج من تأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية وامارتي الرها وانطاكية وكونتية طرابلس.

واخترت للفصل الثالث عنوان: نشأة الدولة الزنكية والصدام مع الفرنج (521 ـ 569/ 1127 ـ 1174)، وذلك في فترة امتدت نحو 48 سنة هجرية/ 47 سنة ميلادية، تمكن خلالها الزنكيون من تأسيس أتابكية الموصل لتمتد نحو بلاد الشام، وهي تسترد امارة الرها وتحاول توحيد بلاد الشام ومصر لمواجهة الفرنج، وهي الوحدة التي تحققت مع صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية الذي آلت إليه السلطة في مصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية، وفي الشام بعد انحسار نفوذ آل زنكي وحصره في الموصل.

وهكذا حمل الفصل الرابع عنوان «نشأة الدولة الأيوبية والصدام مع الفرنج (569 ـ 648/ 1174 ـ 1250)، وهذه الدولة الأيوبية استمرت نحو 79 سنة هجرية/ 76 سنة ميلادية، وهي غنية بالأحداث التاريخية التي أثبتت أن الوحدة بين مصر وبلاد الشام هي الطريق نحو استرداد بيت المقدس وتحرير المشرق العربي من الفرنج، وان الفرقة والصراع داخل البيت الأيوبي الواحد يعني ضياع بيت المقدس مجدداً.

وما لبثت السلطة في مصر وبلاد الشام، أن آلت إلى دولة المماليك التي واجهت وحدها خطرين كبيرين، عملا معاً، ومنفردين، على تقويض معالم المشرق العربي الإسلامي، وهما: المغول والفرنج. وقد تمكنت من اقصاء الفرنج نهائياً عن المشرق العربي الإسلامي، كما تمكنت من القضاء على أسطورة المغول «قوة لا تقهر» حتى زال خطر المغول نهائياً. وهذا ما اقتضى تخصيص فصلين لدولة المماليك، وهما الفصل الخامس وعنوانه «نشأة دولة المماليك وتطورها واقصاء الفرنج عن المشرق العربي الإسلامي (648 ـ 690/ 1250 ـ 1291) وذلك في فترة قصيرة لا تتعدى 42 سنة هجرية/ 41 سنة ميلادية. والفصل السادس وعنوانه «الصدام بين المماليك والمغول وذلك في فترتين، الأولى امتدت نحو 45 سنة هجرية/ 43 سنة ميلادية (658 ـ 703/ 1260 ـ 1303)، والثانية امتدت نحو 13 سنة هجرية/ 12 سنة ميلادية (795 ـ 808/ 1393 ـ 1405).

ولم تكن هذه الدول الإسلامية الأربع: الفاطمية، الزنكية، الأيوبية، والمملوكية، لتتداول السلطة على التوالي وتواجه خطر الفرنج قبل اقصائهم نهائياً على يد المماليك الذي واجهوا أيضاً المغول، لولا وجود بعض معالم النظم الحضارية التي دعمت المسيرة. لذلك خصصت الفصل السابع للحديث عن «التاريخ الحضاري عند الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك».

ولمعالجة عنوان الصراع بين العناصر غير العربية حول السلطة في المشرق العربي

الإسلامي» في مرحلة طويلة استغرقت حوالي خمسة قرون ونصف القرن، يسهل على الباحث العودة إلى المراجع العربية الكثيرة التي تناول كل منها دولة واحدة من هذه الدول الأربع، أو فترة معينة من تلك المرحلة الطويلة، قبل جمع المعلومات وتوزيعها على فصول الكتاب السبعة.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، تناول أحمد مختار العبادي في كتابه «في التاريخ العباسي والفاطمي» الذي وضعه سنة 1967، وأيمن فؤاد سيد في كتابه «الدولة الفاطمية في مصر»، الذي وضعه سنة 1992، ما يمكن أن يشكل الفصل الأول.

كما تناول سعيد عاشور في كتابيه: «قبرص والحروب الصليبية» الذي وضعه سنة 1957، و«الحركة الصليبية» الذي وضعه سنة 1960، وسهيل زكار في كتابه «مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية» الذي وضعه سنة 1972، وجوزف نسيم في كتابه «العدوان الصليبي على بلاد الشام» الذي وضعه سنة 1981، ما يمكن أن يشكل الفصل الثاني.

أما الفصل الثالث، فيمكن تغطية أحداثه من خلال كتابي عماد الدين خليل، وهما: «عماد الدين زنكي» الذي وضعه سنة 1971، و«نور الدين محمود وتجربته الإسلامية» الذي وضعه سنة 1973، وكأنه يؤرخ للدولة الزنكية في الموصل وبلاد الشام، على غرار كتاب «تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام» الذي وضعه محمد سهيل طقوش سنة 1999. دون اغفال كتاب «نور الدين محمود» الذي وضعه حسين مؤنس سنة 1959، وكتاب «تاريخ الملك العادل نور الدين محمود» الذي وضعه يحي حسين عمار سنة 1991، وكتاب «نور الدين والصليبيون» الذي وضعه حسن حبشي، وكتاب «دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي» الذي وضعه رشيد الجميلي سنة 1966.

وبالنسبة للفصل الرابع، فيكفي الرجوع إلى كتاب «الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)» الذي وضعه السيد الباز العريني سنة 1967، وكتاب «سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة» الذي وضعه دريد عبد القادر نوري سنة 1976، وكتاب «السلاطين في المشرق العربي (السلاجقة ـ الأيوبيون) الذي وضعه عصام شبارو سنة 1995. دون اغفال كتاب «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك» الذي وضعه سعيد عاشور ويمكن الاستعانة به أيضاً في الفصل الخامس الخاص بالمماليك.

تكثر المراجع العربية الخاصة بالمماليك، والتي توفر الكتابة في الفصلين الخامس

والسادس، حيث يمكن الاستعانة بكتاب «تاريخ المماليك البحرية» الذي وضعه حسن علي إبراهيم، وكتاب «المماليك والفرنج» الذي وضعه أحمد دراج سنة 1961، وكتاب «دولة بني قلاون في مصر» الذي وضعه محمد جمال الدين سرور. وكتاب «مقام دولة المماليك الأولى في مصر والشام» الذي وضعه أحمد مختار العبادي سنة 1969، وكتاب «قيام دولة المماليك الثانية» الذي وضعه حكيم امين عبد السيد سنة 1966، وكتاب «المماليك» الذي وضعه السيد الباز العريني سنة 1979. وكتاب «الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، الذي وضعه انطوان خليل ضومط سنة 1980، و«السلاطين في المشرق العربي (المماليك)» الذي وضعه عصام شبارو سنة 1995، و«تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام» الذي وضعه محمد سهيل طقوش سنة 1997.

وهذا يعني، أنه لا يوجد مرجع واحد يتناول هذه المرحلة الطويلة التي بدأت مع انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر سنة 362/ 973 حتى سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين سنة 923/ 1517، باستثناء كتاب «تاريخ المشرق العربي الاسلامي، منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين القاهرة 447 ـ 923/ 1055 ـ 1517» الذي وضعه عصام شبارو سنة 1999، فهو يغطي أحداث هذه المرحلة.

وعلى الرغم من كثرة المراجع العربية التي تفوق في عددها عدد المصادر العربية، ويسهل معها أعداد البحث أو الكتاب، إلا أن أستاذي المؤرخ الدكتور عصام شبارو الذي حصلت باشرافه على شهادتي الماجستير والدكتوراه، كان دائماً يكرر لي النصيحة بأن أكون حذرة في التعامل مع المراجع العربية أو المراجع الأجنبية، مؤكداً أن المؤرخ الحقيقي هو الذي يعود إلى الأصل، أي إلى المصادر العربية أو المصادر الأجنبية، وبخاصة المصادر التي عايش أصحابها الحدث التاريخي، وكان كل مؤرخ من أصحاب هذه المصادر بمثابة شاهد عيان.

لازمتني هذه النصيحة، وأنا أعد هذا الكتاب، صحيح أنني أطلعت على معظم المراجع العربية والأجنبية، ولكنني اكتفيت منها بما يمكن استخلاصه من العناوين الصغرى التي يمكن حصرها داخل كل فصل من الفصول السبعة التي يتألف منها الكتاب.

لذلك، فإن هوامش هذا الكتاب، تخلو من المراجع العربية، ومع ذلك أفردت لها حيزاً كبيراً في لائحة المصادر والمراجع، تسهيلاً للقارىء في معرفة المراجع العربية التي يمكن الاستعانة بها في الكتابة، سواء عن الفاطميين أو الزنكيين أو الأيوبيين أو المماليك. في حين

أصبحت هوامش الكتاب، غنية بالمصادر العربية، وبعض المصادر الأوروبية أو الفارسية.

فعمارة اليمني (ت 569/ 1173)، كان من أنصار الفاطميين وعايش الخلافة الفاطمية في أواخر عهدها، أي عهد الوزراء الفاطميين الذين تعرض بهم في كتابه «النكت العصرية في أخبار الوزارة الفاطمية». وقد عاصر الأمير أسامة بن منقذ (ت 584/ 1188) أواخر عهد الوزراء الفاطميين أيضاً، وهو شاهد عيان للصراع بين الوزراء ولتاريخ أمراء بني منقذ الذي ينتمي إليهم وذلك في كتابه «الاعتبار».

وعماد الدين الأصفهاني (ت 597/ 1201)، خدم نور الدين محمود بن زنكي حتى وفاته سنة 569/ 1174، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي عن طريق مستشاره القاضي الفاضل مجير الدين عبد الرحيم المتوفى سنة 596/ 1200، ووضع كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» وهو تاريخ لصلاح الدين منذ سنة 583/ 1187 حتى وفاته سنة 589/ 1193، وله أيضاً كتاب «البرق الشامي» الذي يبدأ منذ وصول العماد الأصفهاني إلى الشام سنة 562/ 1167 وينتهي أيضاً بوفاة صلاح الدين الأيوبي.

وابن الأثير (ت 630/ 1233)، عاصر بدوره الحروب الصليبية، فكان كتابه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل» الذي يحكي عن الدولة الزنكية، فضلاً عن تاريخه الكبير الذي حمل اسم «الكامل في التاريخ» ويتناول في أجزائه الثلاثة الأخيرة هذه الحروب الصليبية التي عايشها حتى وفاته.

وابن جبير (ت 614/ 1217)، الرحالة الأندلسي، وصل في أسفاره إلى المشرق العربي الإسلامي، أثناء الحروب الصليبية، ووضع كتابه «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» ويعرف باسم «رحلة ابن جبير». فدخل بلاد الشام، ليشاهد منجزات نور الدين محمود بن زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي، ويلمس العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والمسيحيين.

أما أبو شامة (ت 665/ 1267)، فيؤرخ للدولة الزنكية عهد نور الدين محمود بن زنكي وللدولة الأيوبية عهد صلاح الدين الأيوبي، وذلك في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية».

وكذلك، فإن أخبار الأيوبيين، برزت مع ابن واصل المتوفى سنة 697/ 1298، وذلك في كتابه «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب».

ولا يمكن اغفال مؤرخين حمل كل منهما اسم ابن شداد، أحدهما بهاء الدين يوسف

ابن رافع (ت 632/ 1234)، وقد بدأ خدمة صلاح الدين الأيوبي سنة 584/ 1188، أي بعد سنة واحدة من فتح بيت المقدس، وخصه بسيرة عنوانها «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، واليوسفية مشتقة من الاسم الحقيقي لصلاح الدين وهو يوسف. والمؤرخ الثاني هو عز الدين محمد بن علي (ت 684/ 1285)، وقد عاصر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأولى وهو الملك الظاهر بيبرس الذي حكم في الفترة (658 ـ 678/ 1260 ـ 1279) فوضع له «تاريخ الملك الظاهر». وهذا ما فعله أيضاً ابن عبد الظاهر (ت 692/ 1292)، حينما وضع كتاب «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، فضلاً عن كتابه الآخر «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور».

أما المؤرخ المقريزي (ت 845/ 1441)، الذي عاصر مطلع عهد دولة المماليك الثانية، ولم يعاصر الدولة الأيوبية ولا دولة المماليك الأولى، فإن كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»، يعد من أهم كتبه، حيث يشكل تاريخاً مفصلاً لدولتي الأيوبيين والمماليك، زاد من أهمية كتابه الآخر «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف باسم «الخطط» أو «خطط المقريزي»، حتى اعتبر شيخ مؤرخي عصره.

ولا يمكن اغفال مؤرخين اثنين من طبقة المماليك أنفسهم، أرخا لنهاية دولة المماليك، أحدهما ابن تغري بردي (ت 875/ 1470) الذي وضع كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وكتاب «منتخبات من حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور» الذي يعتبر تكملة لكتاب المقريزي «السلوك لمعرفة دول الملوك». أما الآخر، فهو ابن إياس (ت 930/ 1523) الذي وضع كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور».

وقد أفردت عنواناً في الفصل السابع الذي يتعلق بالتاريخ الحضاري، وهو «المؤرخون» تناولت فيه معظم مؤرخي المصادر العربية الذين كان كل منهم بمثابة شاهد عيان على أحداث عصره، وذلك بتفصيل أوسع.

وهذا الأمر، ينطبق على المصادر الأوروبية والفارسية، التي تكتمل الفائدة بالعودة إليها، مثل المؤرخ الفرنجي وليم الصوري (ت 581/ 1183) وقد وضع كتاب «تاريخ الحروب الصليبية». والمؤرخ الفارسي رشيد الدين (ت 718/ 1318) الذي وضع كتاب «جامع التواريخ، تاريخ المغول (تاريخ هولاكو)».

وكان الهدف الرئيسي من العودة إلى تلك المصادر، ليس اعادة سرد الحوادث في التاريخ

السياسي والعسكري للفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك، بقدر ما هو تسليط الضوء على صراع العناصر غير العربية حول السلطة في مصر وبلاد الشام، اللذين يمثلان قطرين كبيرين داخل المشرق العربي الإسلامي، وشهدا قيام أربع دول اسلامية متتالية، كانت تسقط الواحدة على يد الأخرى التي تليها. وهذا هو الجديد في مثل هذا العنوان الذي لم يركز عليه المؤرخون الذين أغفل معظمهم أيضاً التاريخ الحضاري لهذه الدول الأربع، لذلك فإن جوهر هذا الكتاب يقوم على سد هاتين الثغرتين وهما: الصراع حول السلطة والتاريخ الحضاري.

وحتى يتمكن القارىء من الاحاطة جيداً بتواريخ تداول السلطة، سواء على صعيد الدول الأربع، أو على صعيد حكام هذه الدول، وهم كثر، لذلك أفردت ستة ملاحق لهذا الأمر. فكان الملحق رقم 1 الذي يتضمن أسماء الخلفاء العباسيين الخمسة عشر الذين تداولوا الخلافة في بغداد في تلك المرحلة، وهم يشكلون العصرين الثالث والرابع (334 ـ 656/ 945 ـ 1258) من التاريخ العباسي. في حين تضمن الملحق رقم 2 أسماء الخلفاء الفاطميين الأحد عشر الذين تداولوا الخلافة في القاهرة (362 ـ 567/ 973 ـ 1171). أما الملحق رقم 3، فيتضمن أسماء أتابك «ملوك» الدولة البورية في دمشق وهم ستة تداولوا السلطة في الفترة (497 ـ 549/ 1104 ـ 1154)، والدولة الزنكية في بلاد الشام وهم ثلاثة تداولوا السلطة في الفترة (521 ـ 577/ 1127 ـ 1181)، والدولة الزنكية في الموصل وهم تسعة تداولوا السلطة في الفترة (521 ـ 577/ 1127 ـ 1181). وتضمن الملحق رقم 4 أسماء السلاطين الأيوبيين في مصر، وهم تسعة تداولوا السلطة في الفترة (567 ـ 648/ 1171 ـ 1250). كما تتضمن أسماء الأمراء الأيوبيين في دمشق، وهم اثنا عشر بينهم أربعة سلاطين شاركوا في حكم دمشق ومصر معاً، يضاف إليه أسماء الأمراء الأيوبيين الثلاثة في حلب، وذلك في الفترة (582 ـ 658/ 1186 ـ 1260).

ولم أغفل اسماء الأمراء الأيوبيين الثلاثة في كل من الجزيرة وحصن كيفا وآمد، والأربعة في كل من حمص والكرك، والستة في كل من حماه واليمن، والثمانية في بعلبك.

ويتعلق الملحق رقم 5 بأسماء ملوك الفرنج التسعة الذين تداولوا السلطة في مملكة بيت المقدس اللاتينية في الفترة (493 ـ 583/ 1099 ـ 1187). في حين تضمن الملحق الأخير رقم 6 أسماء سلاطين دولة المماليك الأولى «البحرية» وعددهم خمسة وعشرون تداولوا السلطة في الفترة (648 ـ 784/ 1250 ـ 1382). وأسماء سلاطين دولة المماليك الثانية «البرجية»

وعددهم خمسة وعشرون أيضاً تداولوا السلطة في الفترة (784 ـ 923/ 1382 ـ 1517).

وقد اعتمدت التاريخ الهجري في مكان الصدارة، لأنه يشكل الأساس لجميع المصادر العربية التي خلت من التاريخ الميلادي الذي يوافقه. فظهرت الفصول السبعة في هذا الكتاب، بجميع أحداثها وعناوينها اعتماداً على التاريخ الهجري، وما يقابله في التاريخ الميلادي، وكذلك فعلت في المقدمة والخاتمة، والملاحق الستة، وفي لائحة المصادر عند كتابة تاريخ وفاة كل مؤرخ.

وأرجو أن أكون قد وفقت في ما سعيت إليه

الفصل الأول

انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر
وتوسعها في المشرق العربي
(362 ـ 567/ 973 ـ 1171)

شهد الوطن العربي الإسلامي، في فترة واحدة ثلاثة أشكال من الخلافة: العباسية في العراق، والأموية في الأندلس وهما على المذهب السني، ثم الفاطمية في مصر وهي على المذهب الإسماعيلي الشيعي. مما يعني انقسام المسلمين عقائدياً وسياسياً وعسكرياً. فلا غرو أن ينتهي هذا الانقسام بسقوط الخلافة الفاطمية سنة 567/ 1171، ثم الخلافة العباسية سنة 656/ 1258، ولتضيع دولة الأندلس نهائياً سنة 898/ 1492.

1 ـ قيام الخلافة الفاطمية في المغرب (297 ـ 362/ 909 ـ 973)

قامت الخلافة الفاطمية في المغرب على أساس المذهب الشيعي «الإسماعيلي»، وكانت تهدف إلى أن تحل مكان الخلافة العباسية «السنية» لأنها ترى أحقية أحفاد النبي ﷺ من ابنته فاطمة الزهراء بالخلافة التي تسوقها إلى اسماعيل بن جعفر الصادق وهو شقيق موسى الكاظم الإمام السابع عند الشيعة «الإثنا عشرية»، ثم إلى أبناء إسماعيل حتى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب.

اتخذت الخلافة الفاطمية منذ نشأتها، على غرار الفرق الشيعية الأخرى، اتجاهاً مضاداً للعصبية العربية، فاعتمدت على الموالي من البربر في المغرب، كما اعتمدت الفرق الأخرى في

المشرق على الموالي من الفرس[1]. ومع ذلك لم تستمر الخلافة الفاطمية في المغرب أكثر من خمس وستين سنة (297 ـ 362/ 909 ـ 973) تعاقب على حكمها أربعة خلفاء أولهم المهدي بالله سنة 297/ 909، وهو الذي أسس عاصمته المهدية، ثم القائم بأمر الله سنة 322/ 934، فالمنصور بالله سنة 334/ 946، وقد بنى عاصمته الجديدة «المنصورية» ليستقر بها سنة 337/ 949، ثم المعز لدين الله سنة 341/ 953، وقد انتقلت الخلافة الفاطمية في عهده إلى مصر سنة 362/ 973.

2 ـ انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (362/ 973)

حاولت الخلافة الفاطمية في المغرب توحيد جميع مناطق المغرب الكبير تحت رايتها، وضم الأندلس أيضاً إلى نفوذها بعد أن قامت فيه الخلافة الأموية. ولكنها فشلت في تحقيق هدفها، فانتقلت إلى مصر مع الخليفة المعز لدين الله الذي أرسل قائده جوهر الصقلي على رأس حملة من مائة ألف رجل انطلقت من القيروان سنة 358/ 969، واستولت على الإسكندرية ثم الجيزة. ونزل الجيش الفاطمي في شمال شرق الفسطاط يحيط به جبل المقطم. وفي هذا المكان تأسست مدينة القاهرة لتكون قاعدة سياسية وعسكرية للخلافة الفاطمية. وقد بنيت فيها القصور والدواوين وثكنات الجيش، وقد سماها القائد جوهر مدينة المنصورية سنة 358/ 969، تيمناً باسم مدينة المنصورية التي أنشأها الخليفة الفاطمي المنصور خارج القيروان. وبعد انتقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى هذه المدينة الجديدة سنة 363/ 973، سماها القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر الخلافة العباسية «السنية»[2]. وتحولت القاهرة إلى قاعدة للخلافة الفاطمية، لتقف على قدم المساواة مع بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

3 ـ بدء نشر الدعوة الإسماعيلية الفاطمية

بعد دخول القائد جوهر إلى الفسطاط، أقيمت أول صلاة يخطب فيها للمعز الفاطمي في جامع عمرو بن العاص في يوم الخميس 19 شعبان 358/ 8 تموز 969. وما لبث الفاطميون

---

1 ـ ابن حوقل: صورة الأرض، ص 740.

2 ـ المقريزي: الخطط، جـ 1 ص 377.

أن اختاروا جامع ابن طولون لإقامة شعائرهم الدينية. ثم رأوا ضرورة بناء جامع خاص بهم، لذلك بدأ العمل لإنشاء جامع الأزهر في يوم الاثنين 24 جمادي الأولى 359/ 4 نيسان 970، حتى تم افتتاحه رسمياً في يوم الجمعة 7 رمضان 361/ 21 حزيران 972. واصبح الجامع الأزهر رمزاً للدعوة الإسماعيلية الفاطمية، ولعله سمي كذلك تيمناً باسم فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون. ومما يجدر ذكره أن الجامع الحالي يحتل ضعف مساحته الأصلية، وأن المآذن الحالية حلت مكان المئذنة القديمة التي تم هدمها زمن المماليك.

وبذلك كانت القاهرة ومعها الجامع الأزهر، بمثابة القاعدة القوية لنشر الدعوة الإسماعيلية الفاطمية.

تقدمت فرق الشيعة التي تطالب بحصر الخلافة في آل الإمام علي بن أبي طالب. ومع ذلك تبقى أهمها «الشيعة الامامية»، وهي على ثلاثة مذاهب، أولها الاثنا عشرية التي تسوق الخلافة بعد الحسين بن علي إلى ابنه زين العابدين علي ثم إلى أبنائه وأحفاده من بعده، وهم: محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم وصولاً إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى سنة 265/ 878، فلقبوه بالمهدي. أما المذهب الإسماعيلي، فيتفق مع الإثني عشرية إلى الإمام السادس جعفر الصادق، رافضاً إمامة ابنه موسى الكاظم، فيسوق الخلافة إلى ابنه الآخر اسماعيل على أساس أنه الإمام السابع، ثم يليه ابنه محمد بن المكتوم بن اسماعيل، حتى ظهور عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب. والمذهب الثالث عرف بالزيدية لأنه يسوق الخلافة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، ثم إلى ابنه يحيى.

وبذلك يعتبر المذهب الإسماعيلي، مذهب الخلافة الفاطمية التي تأسست في المغرب، ثم انتقلت مع المعز لدين الله إلى مصر، وهي تعتبر بدورها خلافة دينية وراثية، تستند إلى مسألتين: الوصية والامامة.

انتشرت الوصية، بين الشيعة الذين يرون أن النبي ﷺ بعد حجة الوداع، قصد غدير خم، وهو وادي بين المدينة المنورة ومكة المكرمة، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه». كما يرون أنه قال: «علي مني بمنزلة هارون من موسى». لذلك لقبوا الإمام علي بالوصي، وهي مرتبة أعلى من الإمامة وتلي مرتبة النبوة، ولقبوا من جاء بعده بالأئمة. وأصبحت الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ولديّ علي عليهم السلام.

والإمام بنظر الفاطميين، معصوم عن الخطأ، لأنه المعلم الأكبر الذي ورث العلم الإلهي عن النبي ﷺ عن طريق الإمام علي ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين. وقد أجاز قانون الوراثة الشيعي أن يتلقى أسرار العلم الإلهي، من لم يبلغ الحلم، لذلك كان من الممكن أن يتولى الخلافة الفاطمية من كان قاصراً. وكان الفاطميون يفضلون لقب الإمام على لقب الخليفة، لأن كلمة خليفة تعني النيابة بعد النبي ﷺ في حين أن كلمة الإمام تدل بالإضافة إلى هذا المعنى على السلطان الديني الذي جاءه مباشرة من الله.

تعود فكرة المهدية وغيبة الإمام إلى أصل فارسي، ثم انتقلت إلى المسلمين مع فتح العراق وإيران. وعلى هذا الأساس تمسكت فرق الشيعة عموماً، والفاطميون خصوصاً بولاية إمام من الأئمة، يتوجب عليهم طاعته والخضوع لأمرة دون مناقشة، والرجوع إليه في جميع المسائل الدينية والدنيوية. واعتقدت هذه الفرق برجعة الإمام على أساس أنه مهدي زمانه وسوف يظهر حتماً ليملأ الدنيا سلاماً وعدلاً. لذلك زعمت فرقة الكيسانية أن محمد بن الحنفية لم يمت وهو المهدي المنتظر، وكذلك زعمت الموسوية أن موسى بن جعفر الصادق لم يمت أيضاً وهو المهدي المنتظر، والمحمدية تنتظر عودة محمد بن عبد الله الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رغم مقتله على يد عيسى بن موسى زمن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، والشيعة الإثنا عشرية تنتظر عودة محمد بن الحسن العسكري، وهو الإمام الثاني عشر من ذرية الإمام علي بن أبي طالب.

كان المذهب الإسماعيلي أقوى هذه المذاهب الشيعية، وتمكن بفرعيه القرمطي والفاطمي من تأسيس دولتين هما دولة القرامطة في البحرين واليمن، والدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر.

وبعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي سنة 487/ 1094. انقسمت الدعوة الإسماعيلية الفاطمية إلى نزارية ومستعلية. ذلك أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، رفض جعل الإمامة لصاحب النص وهو نزار بن المستنصر، وعمل على تولية الابن الأصغر المستعلي بالله. ثم قام نزار بن المستنصر بثورة في الإسكندرية، حيث بايعه أهلها ولقبوه بالمصطفى لدين الله، فانقسم بذلك الفاطميون إلى نزارية ومستعلية.

رغم تمكن الوزير الأفضل من القضاء على ثورة نزار في الاسكندرية، إلا أن الدعوة

الإسماعيلية النزارية ما لبثت وأن قويت في فارس وشمال بلاد الشام، عندما اعتنق الحسن بن الصباح (ت 518/ 1124) المذهب الإسماعيلي، وتحصن في قلعة آلموت قرب بحر قزوين، وهناك دعا للمستنصر الفاطمي بدلاً من الخليفة العباسي، ثم دعا لولده نزار مخالفاً الإجماع على خلافة المستعلي بن المستنصر. لذلك عرفت دعوة الحسن بن الصباح بالدعوة الإسماعيلية النزارية.

لم يفرض الخلفاء الفاطميون مذهبهم الإسماعيلي بالقوة، وإن كانت القاهرة والجامع الأزهر بمثابة القاعدة الرئيسية لنشر الدعوة الإسماعيلية الفاطمية. فقد تفاعل هؤلاء الخلفاء مع الشعب العربي المصري المتمسك بالمذهب السنّي، مذهب الخلافة العباسية، فخفت حدة موقفهم من المسلمين السنّة، واتبعوا معهم كما مع اليهود والأقباط، سياسة التسامح.

4 ـ عهد الخلفاء الفاطميين والتوسع في المشرق العربي (362 ـ 468/ 973 ـ 1075)

مرت الخلافة الفاطمية في مصر، بمرحلتين: مرحلة بالقوة (362 ـ 468/ 973 ـ 1075) وقد سيطر فيها خمسة خلفاء على الحكم، هم: المعز لدين الله (362 ـ 365/ 973 ـ 976)، والعزيز بالله (365 ـ 386/ 976 ـ 996)، والحاكم بأمر الله (386 ـ 411/ 996 ـ 1020)، والظاهر لإعزاز دين الله (411 ـ 427/ 1020 ـ 1035)، والفترة الأولى من حكم المستنصر بالله (427 ـ 468/ 1035 ـ 1075). أما مرحلة الضعف فتمثل عهد الوزراء الفاطميين (468 ـ 567/ 1075 ـ 1171) وقد انتهت بسقوط الخلافة الفاطمية.

سيطرت الدولة الفاطمية في عهد الخلفاء، على دمشق سنة 963/ 974، ليمتد نفوذها نحو بلاد الشام واليمن والحجاز وبعض الجزيرة، ومع ذلك فإن هذه المناطق كانت تتعرض للصراع بين مختلف الدويلات التي ظهرت في ظل الخلافة العباسية. وعندما خرج القائد التركي أفتكين من بغداد وانتزع دمشق من الفاطميين وتحالف مع القرامطة لطرد الفاطميين من بلاد الشام، اضطر العزيز بالله لأن يخرج بنفسه لقتال أفتكين وأسره. مما يعني أن السلطة الفعلية للخلافة الفاطمية كانت داخل مصر، حيث استطاع الفاطميون بتسامحهم مع المسلمين «السنّة» ومع أهل الذمة من الأقباط واليهود أن يوحدوا جميع عناصر الشعب المصري.

أصبح المشرق العربي مشتتاً بين خلافتين متصارعتين على أرضه وبخاصة في بلاد

الشام، وهما الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية. وبذلك اشتدت الفتن المذهبية بين الشيعة والسنّة في العراق وبخاصة في بغداد أواخر القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وجاء كثير منها مصحوباً بالقتل والنهب والفوضى[1]، لتمتد إلى مصر وبخاصة القاهرة التي لم تكن تخلو من الفتن في يوم عاشوراء[2]. وتحوّل الخلاف السنّي ـ الشيعي داخل العراق وداخل مصر إلى صدام عنيف بين الخلافتين العباسية والفاطمية في بلاد الشام التي تعتبر بمثابة حلقة وصل بين مصر والعراق، حتى غدت بلاد الشام هي الأخرى مسرحاً للمنازعات بين الشيعة والسنّة[3].

5 ـ عهد الوزراء الفاطميين (468 ـ 567/ 1075 ـ 1171)

تعرضت الخلافة الفاطمية التي امتد نفوذها إلى مصر والشام في مرحلة القوة، للضعف في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وأخذ نفوذها ينحسر تدريجياً عن بلاد الشام. فانتهت بذلك مرحلة القوة التي لعب فيها الخلفاء دوراً رئيسياً، في توحيد مصر والشام والحجاز واليمن وبعض الجزيرة ولو فترة قصيرة.

وبدأت مرحلة الضعف التي آلت فيها السيطرة للوزراء حوالى القرن (468 ـ 567/ 1075 ـ 1171)، بدأت في الفترة الثانية من حكم المستنصر بالله (468 ـ 487/ 1075 ـ 1094)، ليتوالى بعده ستة خلفاء ضعاف هم: المستعلي بالله (487/ 1094)، الآمر بأحكام الله (495 ـ 1101)، الحافظ لدين الله (524/ 1130)، الظافر بالله (544/ 1149)، الفائز بنصر الله (549/ 1154)، ثم العاضد لدين الله (555/ 1160). لكن السلطة الفعلية كانت بيد الوزراء ومعظمهم من غير العرب الذين سيطروا على مقاليد الخلافة الفاطمية في القاهرة، حتى سقوطها سنة 567/ 1171.

تولى الأمير بدر الجمالي الأرمني الوزارة مدة عشرين سنة (468 ـ 487/ 1075 ـ 1094)، ثم خلفه ابنه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مدة ثمان وعشرين سنة (487 ـ 515/

---

1 ـ ابن الجوزي: المنتظم، جـ 9، ص 15 ـ 26. ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 3، ص 367.

2 ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص 198.

3 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 4، ص 58.

1094 ـ 1121)، ثم الوزير محمد بن فاتك المأمون البطائحي لمدة أربع سنوات (515 ـ 519/ 1121 ـ 1125) استطاع بعدها الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله أن يسيطر على الحكم ويعيد للخلافة الفاطمية شيئاً من عظمتها المفقودة، فحكم بدون وزير وباشر الأمور بنفسه[1] طيلة خمس سنوات. وبمقتله سنة 524/ 1130، عادت السيطرة للوزراء: الأكمل بن الأفضل سنة 524/ 1130، يانس ثم بهرام سنة 526/ 1132، وهم جميعاً من أصل أرمني، قبل أن يتولى الوزارة، ثلاثة من أهل السنّة، هم: رضوان بن ولخشي سنة 531/ 1137 الذي حاول التعاون مع عماد الدين زنكي من أجل القضاء على الخلافة الفاطمية تمهيداً للجهاد ضد الفرنج، والوزير العادل بن السلار سنة 544/ 1149 الذي سعى للاتفاق مع الأتابك نور الدين محمود بن زنكي الذي كان يسعى لتوحيد مصر وبلاد الشام، وكان أسامة بن منقذ بمثابة حلقة وصل بن الوزير والأتابك[2]، ثم الوزير عباس سنة 548/ 1153.

كان عدم التعاون بين الخلفاء الفاطميين والوزراء من أهم مظاهر ضعف الدولة الفاطمية وانحلالها. فقد بلغ الجفاء بينهم إلى حد العداء والتصادم، كما بلغ التنافس حول منصب الوزارة إلى حد التطاحن الدموي العنيف والاستعانة بقوى خارجية. ويكفي أن نشير إلى أن جميع الوزراء الفاطميين في مرحلة الضعف «عصر الوزراء» قع انتهوا قتلاً باستثناء أولهم الأمير بدر الجمالي، ثم وصلت عملية القتل والتصفية الجسدية إلى الخلفاء الفاطميين أنفسهم، فقتل المستعلي سنة 495/ 1101، ثم الآمر سنة 524/ 1130، ثم الظافر سنة 549/ 1154، وأصبح «مذهب القوم ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم»[3].

استمر الضعف مع الوزير الصالح بن رزيك سنة 549/ 1154، ثم ابنه الوزير العادل سنة 556/ 1161 والذي ما لبث أن قتل على يد شاور الذي تولى الوزارة سنة 558/ 1163، ليبدأ الصراع بين شاور وضرغام حول الوزارة فيقتل ضرغام سنة 559/ 1165، ثم يقتل شاور سنة 564/ 1169، بعدما لم يتورع كل منهما من الاستعانة بالفرنج من أجل وزارة مصر، فكانت النتيجة سقوط الخلافة الفاطمية عهد آخر خلفائها العاضد لدين الله في 7 محرم 567/ 10 أيلول 1171.

---

1 ـ ابن ميسر: أخبار مصر، جـ 2 ص 73.

2 ـ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 10.

3ـ اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 19.

الفصل الثاني

نشوء مملكة بيت المقدس

وامارات الفرنج في المشرق العربي وتطورها

(490 ـ 525/ 1097 ـ 1131)

تعد فرنسا مهد الحروب الصليبية، وقد شارك ملوكها في معظم حملاتها، وعندما استغل البابا أربان الثاني الفرنسي الأصل الروح الدينية المسيطرة على شعوب أوروبا الغربية دعا إلى حمل الصليب في مدينة كليرمون في فرنسا سنة 488/ 1095، مما يعني أن بذور الحروب الصليبية جرى إلقاؤها في تربة فرنسية، وقد بدأت واستمرت في جوهرها مشروعاً فرنسياً، حتى أن المملكة التي أقامها الفرنج في المشرق العربي الإسلامي كانت أيضاً في جوهرها مملكة فرنسية في لغتها وعاداتها. وما راية الصليب، أو الباعث الديني لهذه الحروب، إلا وسيلة استغلت للتحريض والدعاية من أجل اخفاء البواعث الحقيقية التي اندفع وراءها الغرب الأوروبي تحقيقاً لمصالحه السياسية والاقتصادية والتوسعية.

1 ـ تأسيس إمارة الرها (490/ 1097)

بدأت أول محاولة صليبية شعبية لعبور آسيا الصغرى نحو ساحل المشرق العربي الإسلامي، حينما خرج الفرنج من شمال غرب فرنسا واللورين وألمانيا، وهم يفتقرون إلى القيادة الموحدة فاستطاع سلاجقة الروح في آسيا الصغرى، وكانوا بزعامة قلج أرسلان، أن ينزلوا هزيمة ساحقة بالفرنج، قرب مدينة نيقية، حيث أبادوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا

القليل هربا نحو القسطنطينية.

ثم انطلقت حملة صليبية ضخمة من فرنسا والمانيا وايطاليا في محاولة جديدة للانتقام وتحقيق غايتها سنة 489/ 1096، وهي التي اتفق المؤرخون على تسميتها بالحملة الصليبية الأولى، وكانت بقيادة الأمراء الاقطاعيين وتفتقر إلى القيادة الموحدة. ومع ذلك فهي أول حملة صليبية منظمة تتجه نحو المشرق العربي الإسلامي، وقد انقسمت إلى أربعة جيوش، الأول بقيادة غودفروا دو بويون وأخيه بودوين من اللورين، والثاني بقيادة بوهمند أمير تارانت ومعه ابن أخيه تانكرد، والثالث بقيادة ريموند صاحب تولوز يرافقه أدهيمر دو مونتيل نائب البابا في هذه الحملة، والرابع بقيادة روبرت أمير نورمنديا. ولهؤلاء الأمراء الإقطاعيين يرجع الفضل في تحقيق الحملة الصليبية غايتها المرجوة، وذلك بمساعدة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الذي تمكن من السيطرة على قونية في رمضان 490/ آب 1097، واستعادة شواطىء آسيا الصغرى.

انفصل بودوين عن الحملة وسار نحو المناطق الداخلية وهدفه إقامة إمارة مستقلة، وقد تمكن من دخول الرها في الجزيرة الفراتية شمال العراق بمساعدة الأرمن، سنة 490/ 1097.

2 ـ تأسيس امارة أنطاكية (491/ 1098)

تابعت الحملة الصليبية زحفها من قونية نحو أنطاكية في أقصى شمال بلاد الشام، وهي تعتبر من المدن الشهيرة بمناعة حصونها وأبراجها، وكان يتولاها الأمير ياغيسيان التركي من قبل السلاجقة الذين تصدوا وحدهم للفرنج في ذلك الوقت، ولم يتمكنوا من الصمود طويلاً، فانفتحت أبواب بلاد الشام أمام الفرنج الذين أسسوا إمارة الرها قبل أن يتوجهوا إلى أنطاكية، مستغلين الانقسام المذهبي بين الخلافتين العباسية والفاطمية، والذي انعكس تأثيره بصورة خاصة على أرض بلاد الشام، حيث شعرت الدولة الفاطمية بالارتياح لما حل بالسلاجقة من هزائم أمام الفرنج، بل وذهبت أبعد من ذلك، عندما أرسل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي سفارة إلى الفرنج وهم أمام أبواب أنطاكية سنة 491/ 1098، تعرض التحالف من أجل القضاء على السلاجقة واقتسام بلاد الشام، على أن يحتفظ الفاطميون بالمناطق الجنوبية

بما فيها بيت المقدس، في حين يسيطر الفرنج على المناطق الشمالية بما فيها أنطاكية[1].

وهذه السفارة التي أرسلها الأفضل الفاطمي إلى الفرنج عند أنطاكية أكسبت الفرنج وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان المشرق العربي الإسلامي. لذلك لم يشارك الفاطميون القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الفرنج[2].

تمكن بوهمند من دخول أنطاكية بفضل خيانة فيروز الأرمني الذي كان قد اعتنق الإسلام وقلّده ياغيسيان على ثلاثة أبراج كبيرة، فاتفق فيروز مع الفرنج وسلّمهم هذه الأبراج مما سهل الاستيلاء على الأبراج الأخرى ليدخلوا المدينة في يوم الخميس آخر جمادى الثانية 491/ 3 حزيران 1098، بعد حصار استمر حوالى تسعة أشهر.

أخذ بوهمند يعمل على تأسيس إمارة أنطاكية قبل التوجه إلى بيت المقدس. وقد تولى أنطاكية بعد رحيل بوهمند كل من تانكرد (498 ـ 506/ 1104 ـ 1112)، وروجيه (507 ـ 513/ 1113 ـ 1119)، وبوفاة هذا الأخير أصبحت أنطاكية تحت وصاية بودوين الثاني ملك بيت المقدس، ثم تولى أنطاكية بوهمند الثاني (520 ـ 524/ 1126 ـ 1130)، وبوفاته أصبحت تابعة لمملكة بيت المقدس[3].

أما الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، فقد انتهز فرصة انشغال السلاجقة بمواجهة الفرنج، وأخذ يعمل على استرداد المناطق التي كانت تحت سيطرة الخلافة الفاطمية في بلاد الشام، فدخل صور عنوة سنة 491/ 1098، ثم استرد بيت المقدس من سقمان الأرتقي وأخيه ايلغازي في رمضان 491/ آب 1098[4]، وأعاد السيطرة الفاطمية من مصر جنوباً إلى ساحل الشام حتى حدود نهر الكلب شمالاً ومجرى نهر الأردن شرقاً[5]، وهذا الأمر يوضح عدم إدراك الوزير الفاطمي لحقيقة مطامع الفرنج ونواياهم، بعد تمكنهم من إيهام الفاطميين

---

1 ـ Setton: A History of the Crusades t 1 p 316.

2 ـ Michaud: Histoire des Croisades t 1 p 362.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 230.

3 ـ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، ص 352، 353. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 197. رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، ص 372.

4 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 135.

5 ـ Setton: A History of the Crusades t 1 p 316.

أن هدفهم الوحيد هو الرها وأنطاكية واللاذقية، وهي المناطق التي كانت تابعة للبيزنطيين في وقت مضى.

وبعد أن تابعت الحملة الصليبية سيرها نحو بيت المقدس، أدرك الفاطميون حقيقة نوايا الفرنج ومطامعهم، فكان ذلك إيذاناً ببدء الصدام بينهما.

3 ـ تأسيس مملكة بيت المقدس وتوسعها (492 ـ 525/ 1099 ـ 1131)

كانت مدينة بيت المقدس تابعة للدولة الفاطمية في مصر، وكان يتولاها افتخار الدولة[1]. وقد حاصر الفرنج المدينة مدة تسعة وثلاثين يوماً اعتباراً من يوم الثلاثاء 15 رجب 492/ 7 حزيران 1099[2]، ليبدأ الهجوم النهائي مساء الأربعاء 21 شعبان 492/ 13 تموز 1099، حتى تمكنوا من احتلالها بعد يومين في يوم الجمعة 23 شعبان/ 15 تموز. ليرتكبوا مجزرة كبيرة داخل المسجد الأقصى، حيث قتلوا ما ينوف عن سبعين ألفاً منهم العباد والزهاد والعلماء، فضلاً عن النساء والأطفال والشيوخ، وكانت الجثث ملقاة في الأزقة والأسواق[3]. في حين عمد وليم الصوري إلى التقليل من عدد القتلى، فجعله عشرة آلاف داخل الحرم، ومثل هذا العدد في الشوارع والساحات[4].

كان افتخار الدولة ومن نجا من المسلمين قد التجأوا إلى محراب داود عليه السلام، وعندما قرر الفرنج قتل كل مسلم أو يهودي ما زال في المدينة، خرج افتخار الدولة ومن معه بعد طلب الأمان نحو عسقلان، في حين التجأ اليهود إلى كنيس في الحي اليهودي فأحرق الفرنج الحي والكنيس، كما هدموا المشاهد وقبر الخليل. وبذلك انتقم الفرنج من المسلمين واليهود، داخل المدينة المقدسة، كما احتقروا المسيحيين الأرثوذكس، باستبعاد قساوستهم عن كنيسة القيامة، وفرضوا عليهم تأدية ضريبة العشر للكنيسة اللاتينية.

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 148.

2 ـ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1 ص 420.

3 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 137، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 10 ص 283، 284، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 197.

Michaud: Histoire des Croisades, T 4 p 424 – 425.

4 ـ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1 ص 437.

حقق الفرنج هدفهم الرئيسي باحتلال بيت المقدس وتعيين غودفروا حاكماً عليها (493 ـ 494/ 1099 ـ 1100)، كما عيّن رئيس أساقفة بيزا ويدعى ديبارتوس بطريركاً على القدس خلفاً لبطريركها أرنولد.

لم تكن الخلافة الفاطمية مسؤولة عن مجيء الفرنج إلى المشرق العربي الإسلامي، ولم تتحالف معهم قبل مجيئهم. وإذا كانت قد اتصلت بهم بعد مجيئهم بهدف القضاء على السلاجقة، فلأنها لم تكن مدركة الهدف الرئيسي للحملة الصليبية الأولى، وهو تأسيس مملكة بيت المقدس. كذلك لم يتخاذل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر، وخرج من مصر على رأس الجيش للحؤول دون احتلال الفرنج لبيت المقدس، لكنه وصل إلى عسقلان في يوم الخميس 14 رمضان 492/ 4 آب 1099، وذلك بعد ضياع بيت المقدس بعشرين يوماً[1]. وبدل أن يبادر بالهجوم، أضاع الوقت في انتظار قدوم الأسطول الفاطمي، مما سهل الأمر أمام الفرنج لمباغتته في عسقلان وإنزال الهزيمة به في يوم الجمعة 22 رمضان 492/ 12 آب 1099، فاضطر للفرار مع بعض رجاله، واتجه بحراً نحو مصر[2]. وبذلك تراجع النفوذ الفاطمي أمام التقدم الصليبي، فأعلن حكام عسقلان وقيسارية وارسوف وعكا التبعية للفرنج وتعهدوا بدفع الجزية لهم[3].

رغم هزيمته الأولى قرب عسقلان في 22 رمضان 492/ 12 آب 1099، كان الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي أول من تزعم حركة الجهاد في مصر، عندما أرسل ثلاث حملات فاطمية كبرى كانت تتجمع في عسقلان قبل مواجهة الفرنج في جنوب بلاد الشام، وما إن تقدمت الحملة الأولى نحو الرملة سنة 494/ 1101 حتى حلت بها الهزيمة وقتل قائدها الأمير سعد الدولة قبل أن تتراجع نحو عسقلان[4]، وتفشل في استرداد بيت المقدس.

عاد الوزير الأفضل وأرسل حملة ثانية تضم عشرين ألفاً من العرب والسودان تحت

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 127.

2 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 137. ابن ميسر: أخبار مصر، ص 464.

3 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 139.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 167.

4 ـ ابن ميسر: أخبار مصر، جـ 2 ص 40.

قيادة ابنه شرف المعالي[1]، فتمكنت من إنزال الهزيمة بالملك بودوين الأول بين الرملة ويازور في فلسطين في يوم السبت 27 رجب 495/ 17 أيار 1102، ثم استولت على الرملة، وحاصرت يافا، في حين اتجه الملك بودوين نحو أرسوف شمال يافا.

لم يتمكن الفاطميون من جني ثمرة انتصارهم في الرملة، وكان عليهم متابعة الزحف نحو بيت المقدس بدل حصار يافا. ففي هذه الأثناء توالت الإمدادات الصليبية وفي مقدمتها مائتي سفينة تحمل الجند والعتاد، مما مكن الملك بودوين من فك الحصار، ومواجهة الفاطميين الذين حلت بهم الهزيمة خارج أسوار يافا. وتراجع الفاطميون إلى عسقلان وعاد شرف المعالي إلى مصر، بينما سيطر الفرنج على يافا.

تمكن بودوين من السيطرة على المدن الساحلية بين يافا وحيفا. في حين استمرت السيطرة الفاطمية على عكا مما يشكل خطراً على تحركات الفرنج. وكان زهر الدولة بنا الجيوشي، يتولى عكا من قبل الوزير الأفضل بن بدر الفاطمي، وقد صمدت عكا أمام الحصار الصليبي الأول سنة 496/ 1103، لكنها عادت واستسلمت بعد حصارها براً وبحراً، وخرج منها زهر الدولة متجهاً نحو دمشق في يوم الأحد 17 شعبان 497/ 15 أيار 1104[2].

رغم فشلها، تعتبر الحملة الثالثة سنة 498/ 1105، أهم الحملات الفاطمية لطرد الفرنج من بلاد الشام. وقد عين الوزير الأفضل ابنه سناء الملك حسين لقيادتها، حيث كانت تضم خمسة آلاف من المصريين والسودان إضافة إلى الفرسان العرب، وقد سارت بمساندة الأسطول الفاطمي. وتبدو أهمية هذه الحملة، بتحالف الأتراك السنة مع الفاطميين الشيعة لأول مرة ضد الفرنج. فقد تمكن سناء الملك حسين من اقناع طغتكين مؤسس أتابكية دمشق من إرسال ألف وثلاثمائة فارس بقيادة أصبهد صباوا للمشاركة في القتال[3] . ورغم ذلك فقد حلت الهزيمة بالجيوس الإسلامية المتحالفة، بين يافا وعسقلان في يوم الخميس 4 ذي الحجة 498/ 17 آب 1105.

منذ ذلك التاريخ لم يعد لحركة الجهاد الفاطمي من تأثير يذكر، فتحولت إلى إغارات

---

1 ـ Grousset: Histoire des Croisades t 6 p 229.

2 ـ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ 8، ص 9.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 188.

3 ـ ابن ميسر: أخبار مصر جـ 2 ص 41.

وصل بعضها إلى أسوار بيت المقدس وإلى يافا[1].

بوفاة غودفروا سنة 494/ 1100، توج أخوه بودوين أمير الرها ملكاً على بيت المقدس، ولبس التاج الملكي في بيت لحم. وقد تأسست مملكة بيت المقدس في عهده (494 ـ 512/ 1100 ـ 1118)، حيث تمكن من احتلال أرسوف وقيسارية سنة 495/ 1101، ثم عكا سنة 498/ 1104، ثم بيروت في يوم الثلاثاء 21 شوال 503/ 13 أيار 1110، بعد حصار بري وبحري دام شهرين، وأحدث الفرنج مذبحة رهيبة بين المسلمين داخل بيروت[2]. ثم سقطت صيدا بدورها في جمادي الثانية 504/ كانون الأول 1110، بعد حصار بري ـ بحري استمر ستة أسابيع.

توسعت مملكة بيت المقدس في عهد بودوين الثاني (512 ـ 525/ 1118 ـ 1131)، لتشمل مدينة صور التي سقطت بعد حصار دام خمسة أشهر، في يوم الثلاثاء 23 جمادى الأولى 518/ 8 حزيران 1124، في حين تمكنت الدولة الفاطمية من الاحتفاظ بعسقلان حتى سنة 548/ 1153، عندما فشل اسامة بن منقذ في الدفاع عنها، وآلت السيطرة عليها إلى بودوين الثالث ملك بيت المقدس[3]. وتعتبر عسقلان آخر مناطق النفوذ الفاطمي في جنوب بلاد الشام.

اكتمل نمو مملكة بيت المقدس في الفترة (494 ـ 525/ 1100 ـ 1131)، حيث امتدت من بيروت شمالاً إلى العريش جنوباً، وأضحت إمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس تابعة لمملكة بيت المقدس. وبسقوط عسقلان سنة 548/ 1153، تمت سيطرة الفرنج الكاملة على ساحل بلاد الشام من الاسكندرية شمالاً حتى غزة جنوباً.

4 ـ تأسيس كونتية طرابلس (503/ 1109)

كان الأمير فخر الدولة بن عمار، يتولى طرابلس حينما حاصرها ريموند سنة 495/ 1101، ثم سنة 497/ 1103، دون جدوى. ثم توفي ريموند أثناء الحصار سنة 499/

---

1 ـ Setton: A History of the Crusades t 1 p 421.

2 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 168.

3 ـ اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 14 ـ 16.

1105. ومع ذلك شدد الفرنج الحصار على طرابلس، فاضطر صاحبها فخر الدولة بن عمار للتوجه إلى بغداد سنة 502/ 1108، طالباً النجدة من الخليفة المستظهر بالله العباسي، والسلطان محمد السلجوقي[1]، ولكنه لم يحصل على مبتغاه، فانصرف عائداً. وأثناء غيابه تمكن الأسطول الفاطمي من السيطرة على طرابلس، ومع ذلك فشل أمام الحصار الصليبي، ومجيء برتراند بن ريموند بأسطول بحري، فتمكن من دخول المدينة عنوة في يوم الجمعة أول ذي الحجة 503/ 2 تموز 1109[2]، وقتل وسبى الأهالي.

تأسست مملكة بيت المقدس وإمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس، على النمط الأوروبي اللاتيني وحسب قواعد الإقطاعية الحربية التي عرفتها فرنسا، ولكن الفرنج في الكيانات الأربعة الجديدة، أضافوا قوانين جديدة تستلزمها ضرورات الحرب في المشرق العربي الإسلامي، فتحوّل المجتمع في هذه الكيانات الأربعة إلى مجتمع حربي يشبه المجتمع الإسبرطي في اليونان القديمة.

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 165.

2 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 5 ص 180.



مملكة بيت المقدس

وإمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس

5 ـ دمشق تتزعم المواجهة العسكرية ضد الفرنج
(498 ـ 523/ 1105 ـ 1129)

يعتبر ظهير الدين طغتكين مؤسس أتابكية دمشق التي استمرت حوالى نصف قرن (497 ـ 549/ 1104 ـ 1154)، وقد اغتصب السلطة في دمشق بعد وفاة سيده دقاق بن تتمش بن ألب أرسلان السلجوقي.

رغم الخلاف في المذهب، فإن طغتكين أول أتابكة الشام من الأتراك السنّة، لم يجد غضاضة في التحالف مع الفاطميين الشيعة، ضد العدو المشترك الذي يخالف الاثنين في الدين والمذهب معاً. فعندما أرسل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي ابنه سناء الملك حسين على رأس حملة من خمسة آلاف جندي سنة 498/ 1105، بهدف مواجهة الفرنج في جنوب بلاد الشام، انطلاقاً من عسقلان، لم يجد هذا الأخير حرجاً في طلب المساعدة من طغتكين الذي بادر إلى إرسال ألف وثلاثمائة فارس بقيادة أصبهد صباوا ورغم فشل الحملة الإسلامية المشتركة، وفرار القوة الدمشقية ، إلا أن مثل هذا التحالف يعتبر خطوة رائدة تلتها خطوة مماثلة سنة 500/ 1107، عندما تعاون طغتكين مع الأمير عز الملك والي صور من قبل الفاطميين، حيث أنزلا معاً الهزيمة بالفرنج في أعمال السواد وحوران[1].

تحولت دمشق إلى قاعدة لتحريك المواجهة العسكرية ضد الفرنج، ومنها أرسل طغتكين قواته إلى صور، متعاوناً مع حاكمها الفاطمي ومع شيعة جبل عامل الذين اندفعوا من قراهم للدفاع عن هذه المدينة[2]، أثناء حصار الفرنج لها سنة 505/ 1111. وأصبحت صور تحت حماية طغتكين رغم بقائها تابعة للخلافة الفاطمية[3]. وكانت الخطوة الهامة في تكوين بعض ملامح مشروع سياسي وعسكري وحدوي، قد ظهرت عندما استنجد طغتكين بأمير الموصل شرف الدين مودود الذي لبى الدعوة، وقامت قواتهما المشتركة بإنزال الهزيمة بالفرنج على مقربة من طبرية، حيث دارت معركة الأقحوانة في محرم 507/ حزيران 1113[4].

كان على دمشق التي تصدرت العمليات الحربية، أن تستعد للمواجهة، بعد أن

---

1 ـ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ 8، ص 39.

2 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 284.

3 ـ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ 8، ص 41.

4 ـ المصدر نفسه، جـ 8، ص 42.

طمع الفرنج في احتلالها. ففي سنة 520/ 1126، سار بودوين الثاني ملك بيت المقدس إلى مرج الصفر قرب دمشق حيث التقى بطغتكين، فدارت معركة لم تسفر عن انتصار أحد من الفريقين.

بعد وفاة طغتكين سنة 523/ 1129، تولى الحكم ابنه تاج الملوك بوري (523 ـ 526/ 1129 ـ 1131)، فعرفت أتابكية دمشق بالدولة البورية نسبة إليه، وفي أيامه حاول بودوين الثاني ملك بيت المقدس احتلال دمشق أيضاً بعد أن انضم إليه صاحب طرابلس وصاحب أنطاكية، فزحف إليها بجيش صليبي سنة 523/ 1129، لكن تاج الملوك استطاع أن يردهم على أعقابهم.

ومع ذلك، لم تتضح فكرة الجهاد، إلا مع عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية الذي تمكن من استرداد امارة الرها سنة 539/ 1144[1].

لذلك لا يجوز القول، أن الخلافة الفاطمية «الشيعية» استدعت الفرنج وتعاونت معهم للقضاء على السلاجقة «السنّة» أو على الأقل ليكونوا حاجزاً فاصلاً بين السلاجقة والفاطميين في بلاد الشام. ولكن ما حدث بعد مجيء الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة 490/ 1097، أي في مرحلة حكم الوزراء الفاطميين (468 ـ 567/ 1075 ـ 1174)، أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي تولى الوزارة طيلة ثمانٍ وعشرين سنة (487 ـ 515/ 1094 ـ 1121) لم يدرك حقيقة نوايا الفرنج، وظن أن بامكانه التعاون معهم للقضاء على السلاجقة «السنّة» أعداء الفاطميين «الشيعة»، لذلك أرسل سفارة إلى الفرنج وهم أمام انطاكية سنة 491/ 1028، للتعاون معهم على أن يكون شمال بلاد الشام للفرنج، في حين يحتفظ الفاطميون بجنوب بلاد الشام (فلسطين)[2]. وأسرع على الفور، منتهزاً انشغال السلاجقة في مواجهة الفرنج شمال بلاد الشام، ليسترد بيت المقدس والمناطق التي انتزعها السلاجقة من الفاطميين.

أخطأ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، في التعاون مع الفرنج، وعدم مشاركة السلاجقة في الدفاع عن أنطاكية ضد الفرنج[3] رغم الرابطة الدينية التي تجمع بين الفاطميين والسلاجقة، وإن اختلفا في المذهب، بينما العدو المشترك، أي الفرنج، يخالف الفاطميين والسلاجقة معاً

---

1 ـ ابن الجوزي: المنتظم، جـ 10 ص 13.

2 ـ Stevenson: The Crusades in The East. P 26.

3 ـ Setton: A History of The Crusades. T1, p 316.

في الدين والمذهب والتاريخ والحضارة. كما أخطأ بإرسال السفارة إلى الفرنج عند أنطاكية، وهي السفارة التي أكسبت الفرنج وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من المشرق العربي الإسلامي.

أدرك الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، الخطأ الكبير الذي وقع فيه، حينما تكشفت أمامه الحقيقة، بعد استيلاء الفرنج على أنطاكية وشمال بلاد الشام، ومتابعة زحفهم نحو جنوب بلاد الشام الواقعة تحت النفوذ الفاطمي، لينتزعوا بيت المقدس في 23 شعبان 492/ 15 تموز 1099. فقرر الأفضل مواجهة الفرنج، ولكن بعد فوات الأوان، فقد حلت الهزيمة به في عسقلان يوم الجمعة 22 رمضان 492/ 12 آب 1099، وفر إلى مصر[1].

أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، لم يأل جهداً في مواجهة الفرنج، وما لبث أن اغتيل سنة 515/ 1121، على يد المتطرفين من شيعة البيت الفاطمي الذين رأوا في بقاء الفرنج ضماناً لحماية الفاطميين من أطماع السلاجقة. وحاول ابنه الوزير الأكمل بن الأفضل أن يتزعم حركة الجهاد ضد الفرنج، فاغتيل أيضاً سنة 526/ 1132، ليعمل الوزير بهرام الأرمني على مقاومة حركة الجهاد ومسالمة الفرنج في بلاد الشام، وتشجيع الأرمن على القدوم إلى مصر[2]، ما أثار حفيظة رضوان بن ولخشي والي الغربية الذي يعد من أشد المتحمسين لمقاومة الفرنج، فتولى الوزارة بعد فرار بهرام الأرمني، سنة 531/ 1137، وأنشأ ديوان الجهاد[3] لمحاربة الفرنج. في الوقت الذي كان فيه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (524 ـ 544/ 1130 ـ 1149) من أشد المتحمسين لمسالمة الفرنج في بلاد الشام. واغتيل الوزير رضوان ولخشي بعدما أوشك على اقامة تحالف مع عماد الدين زنكي من أجل القضاء على الدولة الفاطمية تمهيداً لمواجهة الفرنج[4].

وكذلك سعى الوزير العادل بن السلار، للاتفاق مع نور الدين محمود بن زنكي، من أجل مواجهة الفرنج، بعدما أدرك نوايا ملك بيت المقدس في الاستيلاء على عسقلان

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 8 ص 191.

ابن ميسر: أخبار مصر، ص 404.

2 ـ ابن ميسر، أخبار مصر، جـ 3 ص 79.

3 ـ المصدر نفسه، جـ 2، ص 82.

4 ـ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 30 ـ 32.

وغزو مصر، وما لبث أن اغتاله الفاطميون سنة 548/ 1153، ما سهل دخول الفرنج إلى عسقلان[1]، ولم تعد الدولة الفاطمية تشكل أي خطر على الفرنج، بعدما انحصر نفوذها داخل مصر، وهي تسير نحو الضعف والانحلال. وتحول الوزير الفاطمي شاور إلى رمز للتعاون مع الفرنج، عندما آثر تسليمهم القاهرة سنة 562/ 1167، حتى لا يدخلها أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين في الحملة الثانية التي أرسلها نور الدين محمود بن زنكي. فقد ارتضى الوزير شاور بوجود مندوب عن الملك املريك الأول للمشاركة في شؤون مصر[2]، إضافة إلى حامية من الفرنج تسيطر على أبواب القاهرة لمنع أسد الدين شيركوه من العودة، مقابل أتاوة سنوية من دخل مصر تقدر بمائة ألف دينار. فوضع بذلك الخلافة الفاطمية تحت وصاية الفرنج وحمايتهم، وذلك دون علم الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله. وكان العقاب الذي يستحقه الوزير شاور هو القتل على يد صلاح الدين الأيوبي، وإرسال رأسه إلى الخليفة الفاطمي في حملة أسد الدين شيركوه الثالثة التي أرسلها نور الدين محمود إلى مصر سنة 563/ 1168، لتدخلها سنة 564/ 1169، بعد اجبار الفرنج على الانسحاب.

ومع ذلك كله، فإذا كان بعض الخلفاء والوزراء الفاطميين «الشيعة» قد آثر التعاون مع الفرنج، فإن مثل هذه السياسة لم تكن محصورة بطائفة معينة أو مذهب معين. فقد استطاع الفرنج أن يجندوا من المسيحيين «الموارنة» بعض الأدلاء لمعاونتهم في عبور الطرق الوعرة والمسير في الاتجاه الصحيح أثناء قدوم الحملة الصليبية الأولى وهدفها الرئيسي تأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية. وبعد تحقيق هذا الهدف، جنّد الفرنج من شيعة جبل عامل بعض المتعاونين المناهضين للخلافة العباسية «السنيّة» وحماتها من أتابكة الدولة الزنكية الذين يجاهدون تحت رايتها. كما تحالفت الدولة البورية «السنية» في دمشق مع الفرنج، ممثلة بمعين الدين أنز، ثم بمجير الدين آبق بن محمد آخر أتابكة هذه الدولة، وذلك للحفاظ على ملكه في مواجهة الدولة الزنكية «السنية» في الموصل، وهذا أمر طبيعي مع قدوم أي قوة عسكرية أجنبية إلى أي مكان وفي أي

---

1 ـ ابن ميسر: أخبار مصر، جـ 2 ص 86.

2 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 137.

زمان، حيث لا يعود القرار للسكان المحليين، فيظهر من بينهم بعض العملاء المتعاونين مع العدو طمعاً في السلطة والحكم، وهؤلاء قلة قليلة موجودة في مختلف المجتمعات، ولا تمثل أبداً الطائفة التي تنتمي إليها.

وأخذت مطامع الأمراء المسلمين الشخصية تتفاءل مع قيام تابكية جديدة هي الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي لتبلغ ذروتها مع ابنه نور الدين زنكي الذي اتضحت معه معالم فكرة توحيد مصر وبلاد الشام لمواجهة الفرنج، كما اتضحت مع الاثنين فكرة الجهاد ضد الفرنج.

الفصل الثالث

نشأة الدولة الزنكية

والصدام مع الفرنج (521 ـ 569/ 1127 ـ 1174)

تأسست مملكة بيت المقدس وإمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس، وسط انقسام الأمراء المسلمين بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. واستمرت الكيانات الصليبية رغم قلة مواردها من الرجال والمال بسبب اختلاف الأمراء المسلمين حول السلطة والنفوذ[1]. لكن المشرق العربي الإسلامي ما لبث أن أخرج اثنان من كبار القادة هم عماد الدين زنكي الذي أسس الدولة الزنكية واسترجع الرها سنة 539/ 1144، وابنه نور الدين محمود الذي بدأ مسيرة الوحدة بين مصر وبلاد الشام، وتحول الاثنان إلى رمز للجهاد ضد الفرنج، وهما من الأتابكة الملوك.

أصل الأتابكة من الترك الذين كانوا يأتون بهم من بلاد القبجاق شمال البحر الأسود. وقد اعتمد عليهم السلاجقة في الجيش والقصور حتى أصبحوا أوصياء (أي أتابكة) على أبناء السلاطين، وكان الوزير نظام الملك أول من حصل على لقب أتابك من السلطان السلجوقي ملكشاه. واستطاع بعض هؤلاء الأتابكة الوصول إلى مناصب رفيعة وتأسيس دول خاصة[1] بهم بعد أن حل الضعف في سلطنة السلاجقة التي تجزأت بعد وفاة السلطان ملكشاه، فقد تمكن طغتكين من تأسيس أتابكية دمشق التي ما لبثت أن حملت اسم ابنه تاج الملوك بوري «الدولة البورية» (497 ـ 549/ 1104 ـ 1154). في حين أسس عماد الدين زنكي أتابكية الموصل

1 ـ خوندمير: حبيب السير، جـ 2، ص 551.

التي توسعت في عهده (521 ـ 541/ 1127 ـ 1146)، لتحمل اسمه «الدولة الزنكية».

1 ـ نشأة الدولة الزنكية في الموصل وحلب (521 ـ 522/ 1127 ـ 1128)

ذاع صيت عماد الدين زنكي، حينما اشترك في قتال الصليبيين عند طبرية سنة 506/ 1112، فأظهر بسالة وشجاعة فكافأه السلطان محمود السلجوقي بأن أقطعه البصرة وواسط، ليعمل في خدمته حتى صار أتابكاً (وصياً) لاثنين من أبناء السلطان الذي عينه سنة 521/ 1127 أميراً على الموصل والجزيرة. وبذلك نشأت أتابكية الموصل التي حكمها عماد الدين في الفترة (521 ـ 541/ 1127 ـ 1146). وقد استهل حكمه بتنظيم إمارته حسب النظم السلجوقية، واعتمد على معرفة الأخبار بما أوجده من نظام التجسس، كما جمع حوله خيرة الرجال.

تطلع عماد الدين زنكي لإقامة إمارة مستقلة عن السلاجقة. وكانت الموصل القريبة من أملاك السلاجقة لا تكفي لتحقيق هذا الهدف، لذلك تطلع إلى حلب التي تمتاز بموقعها الاستراتيجي في مواجهة الفرنج في أنطاكية والرها، فدخلها سنة 522/ 1128[1]، ليبدأ حركة الجهاد ضد الفرنج.

2 ـ انتصارات عماد الدين زنكي واسترداد الرها (524 ـ 539/ 1130 ـ 1144)

انتصر عماد الدين زنكي على الفرنج في حصن الأثارب سنة 524/ 1130، بعد قتال عنيف جعل منه بطل الإسلام المجاهد في سبيل نصرته، خاصة وأن الفرنج في حصن الأثارب كانوا يغيرون على أهالي حلب وينهبون أموالهم، لذلك خرّب عماد الدين هذا الحصن وقتل وأسر من كان فيه، فكان ذلك بداية حركة الجهاد ضد الفرنج. وقد اتجه بعد السيطرة عليه إلى قلعة حارم قرب أنطاكية فحاصرها، وطلب أهلها الهدنة مقابل نصف

---

1 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 37، 38.
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ1، ص 34 ـ 36.

دخل المدينة فأجابهم إلى طلبهم.

توالت انتصارات عماد الدين زنكي على الفرنج عند اللاذقية سنة 530/ 1136، وقلعة بعرين قرب حماه، وفتح المعرّة وكفرطاب سنة 531/ 1137، كما فتح حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس سنة 532/ 1138، ثم تسلم بعلبك وقلعتها بالأمان سنة 533/ 1139.

توج عماد الدين زنكي انتصاراته على الصليبيين باسترداد امارة الرها التي كانت آنذاك تحت حكم جوسلين الثاني، وهي أول إمارة صليبية أقيمت في المشرق العربي الإسلامي. وأدرك عماد الدين أهمية استعادتها، كما أدرك أن الفرنج في مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس سيرسلون النجدة إذا ما هاجم الرها، لذلك أوهمهم بانهماكه في محاربة ديار بكر، فاطمأن جوسلين الثاني وخرج من مدينة الرها. وكانت عيون عماد الدين تأتيه بالأخبار، فأسرع إلى مدينة الرها وحاصرها ثمانية عشر يوماً حتى أخذها عنوة، كما حاصر قلعتها وسيطر عليها.

كان لسقوط الرها سنة 539/ 1144[1]. أثر كبير في رفع معنويات المسلمين وتصميمهم على القتال. لذلك يمكن اعتبار عماد الدين زنكي أول من وضع أساس حركة الجهاد ضد الفرنج. في حين كان ضياع الرها من أيدي الفرنج باعثاً على إرسال الحملة الصليبية الثانية سنة 542/ 1147، اي بعد وفاة عماد الدين زنكي بسنة واحدة.

وبوفاته سنة 541/ 1146 اقتسم ولداه الحكم فحصل ابنه الأكبر سيف الدين غازي على أتابكية الموصل التي تعتبر أطول الأتابكيات عمراً حيث استمرت 134 سنة (541 ـ 660/ 1146 ـ 1262) وقد قضى عليها المغول بقيادة هولاكو، في حين حصل ابنه الأصغر نور الدين محمود (541 ـ 569/ 1146 ـ 1174) على أتابكية حلب التي قضت على أتابكية دمشق «البورية» سنة 549/ 1154، لتوحيد كلمة المسلمين في بلاد الشام، قبل أن يتطلع إلى تحقيق الوحدة الكبرى مع مصر تحت راية الدولة الزنكية، تمهيداً لمواجهة الفرنج.

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 279.
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ1 ص 95.

3 ـ فشل الصليبية الثانية على دمشق
(541 ـ 543/ 1146 ـ 1148)

تعتبر استعادة الرها من الفرنج سنة 539/ 1144 وتأكيد السيطرة الإسلامية عليها سنة 541/ 1146، كارثة مروعة حلّت بالفرنج لأن للرها ما يقرب مما لبيت المقدس من القداسة في مخيلة العالم المسيحي، فهي تمت بأصولها إلى المسيحية الأولى، وهي أول إمارة اقامها الفرنج في المشرق العربي الإسلامي، وهي الخط الدفاعي الأول من ناحية الشرق. فلا غرو أن يعتبر الغرب الأوروبي سقوط الرها كارثة تنذر بما هو أشد هولاً، فأرسل حملة صليبية جديدة.

توجهت الحملة الصليبية الثانية بقيادة ملكين هما أكبر ملوك الغرب الأوروبي انعدمت الوحدة الحقيقية بينهما، عندما سار كل منهما مستقلاً عن الآخر، فخرج ملك ألمانيا كونراد الثالث أولاً، وبعد شهرين تبعه ملك فرنسا لويس السابع. وقد سهل الامبراطور البيزنطي عبور الجيش الألماني نحو آسيا الصغرى، حيث حلتّ الهزيمة الساحقة على يد السلاجقة، فتوجه كونراد الثالث ومن نجا معه نحو القسطنطينية ومنها انطلق بحراً نحو عكا ثم بيت المقدس. وكذلك حلت الهزيمة بالجيش الفرنسي على يد السلاجقة في اقليم فيرجيا قبل أن يتوجه إلى بيت المقدس حيث استقبله ملكها بودوين الثالث، ثم وصل بعده كونراد الثالث، في سنة 542/ 1147.

منيت الحملة الصليبية الثانية بالفشل منذ البداية، فقد حلّت الهزيمة بجيش يعتبر من أحسن الجيوش الأوروبية، قبل وصوله إلى بلاد الشام. ثم تحولت الحملة عن هدفها الرئيسي وهو استعادة الرها، إلى حصار دمشق سنة 543/ 1148، بعد أن توجه لحصارها الملوك الثلاثة: بودوين الثالث، كونراد الثالث، ولويس السابع.

كان مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين يتولى حكم دمشق، وعرف بضعفه وعجزه في تدبير شؤون الدولة، فسيطر أحد مماليك جده طغتكين ويدعي معين الدين أنر على زمام الأمور، وطلب النجدة من نور الدين محمود وأخيه غازي. استطاع معين الدين أن يبذر الشقاق بين الملوك الثلاثة بفضل الرشاوي والوعود بدفع الأتاوة السنوية. وكان بودوين الثالث يدرك مدى قوة نور الدين محمود الذي خرج بجيشه من حلب، كما خرج أخوه غازي بقواته من الموصل، لذلك رفع الحصار عن دمشق بعد أربعة أيام، مما أغضب كونراد الثالث

ولويس السابع اللذين كانا يبحثان عن نصر يعوضهما هزيمتهما في آسيا الصغرى. وعاد كل منهما إلى بلاده يجر وراءه أذيال الخيبة والفشل[1].

تابع نور الدين محمود انتصاراته بعد أن حلت الهزيمة بأمير أنطاكية ريموند دو بواتيه الذي لقي مصرعه في موقعه آنب سنة 544/ 1149، وأمر بوضع راس ريموند وذراعه الأيمن في صندوق من الفضة ليرسله إلى الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي في بغداد[2].

4 ـ القضاء على الدولة البورية في دمشق وتوحيد بلاد الشام على يد نور الدين محمود بن زنكي (549/ 1154)

لجأ مجير الدين آبق، آخر أتابكة الدولة البورية في دمشق، للتحالف مع مملكة بيت المقدس اللاتينية حيث كان يدفع لها أتاوة سنوية. فقضى نور الدين على هذا التحالف وعلى الدولة البورية معاً، فأرسل حملة بقيادة أسد الدين شيركوه سنة 549/ 1154، ثم لحق به، ليدخلا دمشق. في حين تراجع الفرنج عن نجدة مجير الدين آبق، بعدما أيقنوا من انتصار نور الدين محمود والقضاء على الدولة البورية في دمشق[3].

وفي سنة 559/ 1164، استطاع نور الدين محمود أن يدخل حارم بعد إنزال الهزيمة بريموند صاحب طرابلس، ومعه بوهمند الثالث أمير أنطاكية الذي وقع أسيراً ثم أطلق سراحه مقابل فدية مالية كبيرة وإطلاق الأسرى المسلمين.

كما تمكن نور الدين من فتح بانياس، وبذلك تمت له وحدة بلاد الشام، ولم يعد أمامه سوى أن ينزل الهزيمة بمملكة بيت المقدس، وهذا لا يتم إلا بوحدة مصر وبلاد الشام.

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 121.

2 ـ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، ص 774.

3 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 328.
ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 107.
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 128.

5 ـ الصراع بين نور الدين محمود وأملريك الأول حول السيطرة على مصر (559 ـ 564/ 1164 ـ 1169)

أيقنت جميع الأطراف المتصارعة على أرض بلاد الشام، أهمية مصر عسكرياً ومادياً في تحقيق النصر النهائي في الحروب الصليبية، لذلك كان التنافس حول السيطرة عليها.

كانت الخلافة الفاطمية تعيش أواخر أيامها في ظل آخر خلفائها العاضد لدين الله، وكان الصراع قوياً بين شاور وضرغام حول الوزارة، فأرسل نور الدين محمود ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه في السنوات 559/ 1164، 562/ 1167، و 563/ 1168. لكن أملريك ملك بيت المقدس رد بثلاث حملات صليبية لمنعه من دخول مصر حتى يتسنى له احتلالها. ومع ذلك تمكن أسد الدين شيركوه من دخول مصر وتولي وزارتها سنة 564/ 1169.

خرج أسد الدين شيركوه في حملته الأولى سنة 559/ 1164، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي وذلك بعد أن سيطر ضرغام على الوزارة الفاطمية في مصر مستنجداً بالفرنج مقابل عقد معاهدة تصبح مصر بموجبها تابعة لهم. وسار نور الدين بجيشه ليشغل الفرنج عن التعرض لحملة أسد الدين الذي وصل القاهرة وأنزل الهزيمة بجيش ضرغام الذي قتل، وأعيد شاور إلى الوزارة الفاطمية[1].

أقام أسد الدين شيركوه في ضواحي القاهرة حسب اتفاق شاور مع نور الدين، لكن شاور نقض الاتفاق بعد أن وصل إلى غايته، فطلب نجدة الفرنج لإخراج أسد الدين من مصر[2]، وكان أملريك الأول ملك بيت المقدس ينتظر هذه الفرصة لاحتلال مصر، فأرسل حملة صليبية مما اضطر أسد الدين إلى التراجع نحو بلبيس، حيث حاصرته هناك القوات الصليبية ـ الفاطمية مدة ثلاثة اشهر، حتى تم الاتفاق سنة 559/ 1164 على انسحاب أسد الدين شيركوه والفرنج[3].

وفي سنة 562/ 1167 قام أسد الدين شيركوه بحملته الثانية ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي[4]، فاستنجد شاور مرة أخرى بالفرنج الذين أسرعوا لنجدته بحملة ثانية تحت

---

1 ـ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص 73.

2 ـ أبو شامة: الروضتين، ص 131.

3 ـ المصدر نفسه، ص 132.

4 ـ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص 65.

قيادة الملك أملريك الأول، وقد فتح شاور لهم أبواب القاهرة، بعد تعهده بدفع أربعمائة ألف دينار في حال بقائهم حتى طرد أسد الدين شيركوه من مصر. وقد تم الاتفاق داخل قصر الخليفة الفاطمي في القاهرة. وهذه المرة تمكن أسد الدين شيركوه من الانتصار على التحالف الصليبي ـ الفاطمي في معركة البابين في المنيا في 25 جمادي الأولى 562/ آذار 1167، ثم دخل الإسكندرية واستناب بها صلاح الدين الأيوبي ومعه ألفي جندي، ثم تابع طريقه متوجهاً نحو الصعيد[1]. وفي هذه الأثناء أعاد التحالف الصليبي ـ الفاطمي تنظيم قواته في القاهرة، ثم اتجه نحو الاسكندرية وحاصرها. فعاد أسد الدين شيركوه من الصعيد نحو الإسكندرية، وانتهى الأمر بعقد اتفاق ينسحب بموجبه أسد الدين والفرنج من مصر.

تمكن شاور من الاحتفاظ بسيطرته على مصر، بعد أن ارتمى في أحضان الفرنج، ليجعل منهم حماة مصر، وارتضى وجود مندوب عن الملك املريك الأول، يشارك في شؤون حكم مصر[2]، وهو نوع من الوصاية على الخلافة الفاطمية، وتم هذا الاتفاق بين شاور الفرنج دون علم العاضد لدين الله الفاطمي.

لم يلبث أملريك الأول ملك بيت المقدس، أن نقض الاتفاق بعد أن شجعه رجاله في القاهرة على القدوم لاحتلال مصر[3]. وسار بحملته الثالثة إلى بلبيس سنة 564/ 1168، فاحتلها بالسيف قهراً، وقتل معظم سكانها ثم خربها وأحرقها، ومن نجا وقع في الأسر[4]. وهنا تبدلت السياسة التي كان يتبعها شاور، فقيل إنه بكى أمام العاضد لدين الله الفاطمي، ليستنجد بنور الدين محمود، لانقاذ مصر من الفرنج[5].

ما إن اقترب الملك أملريك الأول من القاهرة، ليعسكر عند بركة الجيش جنوب الفسطاط، عمد شاور إلى اشعال النار في الفسطاط التي خرج أهلها تاركين معظم أموالهم،

---

1 ـ أبو شامة: الروضتين، ص 145.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 349.

2 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 137.

3 ـ أبو شامة: الروضتين، ص 154.

4 ـ المصدر نفسه، ص 170.

5 ـ عمارة اليمني: النكت العصريةن ص 81.

ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 67، 68.

فنهبت وأحرقت في 9 صفر 564/ 1168. وامتلأت القاهرة بالنازحين من الفسطاط، وقرر الأهالي مواجهة الفرنج، فعمدوا إلى وضع العراقيل في مجرى نهر النيل، مما منع الأسطول الصليبي الذي وصل إلى بحيرة المنزلة وتينس من التقدم في نهر النيل جنوباً صوب القاهرة. في الوقت الذي انتقل فيه أملريك الأول ليعسكر أمام القاهرة، قرب باب البرقية[1]، ولم يلبث أن تراجع عن القاهرة بعد أن وعده شاور بدفع أربعمائة ألف دينار، وقيل مليون دينار، دفع منها أولاً مائة ألف دينار، وأخذ يماطل في دفع الباقي. وعندما وصل أسد الدين شيركوه بحملته الثالثة، أمر أملريك الأول الأسطول الصليبي بالعودة إلى عكا. وبذلك تم انسحاب الفرنج في مطلع ربيع الثاني 564/ كانون الثاني 1169 بعد أن فشلوا في تحقيق غرضهم[2] في حين نزل أسد الدين شيركوه، عند باب اللوق في القاهرة، حيث اجتمع سراً بالعاضد لدين الله الفاطمي واتفقا على أمور كثيرة منها قتل شاور الذي اتبع سياسة الاتفاق مع الفرنج تارة، ومع نور الدين محمود تارة أخرى.

نفذ صلاح الدين الأيوبي هذه المهمة، فقتل شاور وأرسل رأسه إلى العاضد الذي قلّد أسد الدين شيركوه الوزارة في يوم الخميس 17 ربيع الثاني 564/ 18 كانون الثاني 1169[3].

وقد اعتبر أسد الدين شيركوه نفسه نائباً لنور الدين في مصر، وأنه تقلد الوزارة باسمه، لكنه لم يستمر في منصبه سوى شهرين وخمسة أيام حيث توفي يوم الأحد 22 جمادي الثاني 564/ 23 آذار 1196. فاسرع العاضد لدين الله إلى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في يوم الأربعاء 25 جمادي الثانية 564/ 26 آذار 1169.

وهنا، أصبح صلاح الدين الأيوبي، على غرار عمه أسد الدين شيركوه، في موقف حرج، فهو من جهة تابع لسيده نور الدين محمود، وهو مع سيده يعترفان بالولاء للسلطة الروحية المتمثلة بالخليفة العباسي «السني» في بغداد، وهو من جهة ثانية أصبح وزيراً للعاضد لدين الله، وكأنه يعترف بالولاء للسلطة الروحية الأخرى المتمثلة بالخليفة الفاطمي «الشيعي» الذي تجري الخطبة له في مساجد القاهرة.

---

1 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 171.

2 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 138.

3 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 351.

فهل يمكن أن تستمر طويلاً، هذه الازدواجية في الولاء لسيدين أحدهما سنيّ والآخر شيعي، مع أن صلاح الدين الأيوبي نفسه شافعي المذهب، وأخذ يعمل على تدعيم المذهب السني بوجه عام والمذهب الشافعي بوجه خاص، في كافة أنحاء مصر.

انتظر صلاح الدين الأيوبي سنتين وستة أشهر حتى أسقط الخلافة الفاطمية، ليعود الولاء الروحي في مصر للخليفة العباسي وحده.

6 ـ القضاء على الخلافة الفاطمية واتساع دولة نور الدين من الفرات إلى النيل (7 محرم 567/ 10 أيلول 1171)

أرسل الخليفة المستنجد بالله العباسي في بغداد إلى نور الدين معاتباً على تأخير إقامة الدعوة له في القاهرة، فاغتنم نور الدين فرصة ذهاب نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى القاهرة، وبعث معه برسالة يحث فيها صلاح الدين بالتعجيل بإقامة الخطبة للخليفة العباسي. لكن صلاح الدين اعتذر إليه بحجة الخوف من معارضة أهل مصر لميلهم إلى الفاطميين، فلم يقبل نور الدين هذا العذر، بخاصة أن الخليفة المستنجد بالله توفي يوم الأحد 9 ربيع الثاني 566/ 20 كانون الأول 1170 فخلفه المستضيء بأمر الله العباسي. واتفق أن اشتد المرض في هذه الآونة على الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، لذلك أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي، وأن يخطب للمستضيء العباسي في يوم الجمعة 7 محرم 567/ 10 أيلول 1171. ثم توفي العاضد بعد ثلاثة أيام في يوم الاثنين 10 محرم 567/ 13 أيلول 1171، دون أن يعلم بأنه آخر الخلفاء الفاطميين، لأن أحداً من أهله أو أصحابه لم يخبره بما حدث. فكان قدره أن يموت في يوم عاشوراء (10 محرم)، وهو اليوم الذي استشهد فيه حفيد النبي العربي محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام.

أقيمت الاحتفالات في بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، تعبيراً عن هذا الحدث التاريخي. وقد أرسل نور الدين محمود هذه البشارة إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله، مع الشيخ شهاب الدين المطهر. فأرسل الخليفة خادمه عماد الدين صندل ومعه خلعة خاصة بنور الدين محمود، وهي عبارة عن طوق فيه ألف دينار، فضلاً عن سيفين، أحدهما يعني تقلده حكم الشام، والثاني حكم مصر، على أن يكون صلاح الدين نائبه في مصر[1]. وبذلك اتسعت دولة

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 63، 64.

نور الدين فشملت: الموصل، ديار بكر، الجزيرة، الشام، مصر، واليمن. وخطب له على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة[1]، وكأنه وحد العراق وبلاد الشام ومصر، لتمتد دولته من الفرات إلى النيل.

وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية في القاهرة، وعادت مصر تحت ظل الخلافة العباسية في بغداد، بعد خروجها منها حوالى القرنين من الزمان (362 ـ 567/ 973 ـ 1171).

كان صلاح الدين الأيوبي يسعى إلى الوحدة ثم التحرير على منوال سيده نور الدين الذي ما لبث وأن توفى بقلعة دمشق في يوم الأربعاء 11 شوال 569/ 15 أيار 1174. وبذلك أصبح صلاح الدين الأيوبي الذي اعترف بشرعيته الخليفة العباسي سنة 570/ 1175، هو المؤهل لحمل راية الجهاد ضد الفرنج عن طريق الوحدة ثم التحرير.

1 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 162، 172.

الفصل الرابع

نشأة الدولة الأيوبية وتطورها
والصدام مع الفرنج
(569 ـ 648/ 1174 ـ 1250)

يعتبر تاريخ الدولة الأيوبية التي امتدت حوالى ثلاثة أرباع القرن (569 ـ 648/ 1174 ـ 1250)، من أهم المراحل التاريخية التي عرفها المشرق العربي الإسلامي وهو يواجه حملات صليبية متتابعة على يد أقوى ملوك غرب أوروبا، وهي الحملات المعروفة بالثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، والتي كان هدفها الرئيسي جميعاً استعادة بيت المقدس بعد تحريره على يد صلاح الدين الأيوبي مؤسس هذه الدولة، ففشلت الحملة الصليبية الثالثة (585 ـ 588/ 1189 ـ 1192) في تحقيق هذا الهدف وان نجحت في دخول عكا. لذلك أدرك الفرنج أهمية احتلال مصر باعتبارها مفتاح المشرق العربي لدخول بيت المقدس، فاستهدفت الحملة الصليبية الرابعة احتلال مصر لكنها انحرفت عن هدفها لتتوجه نحو القسطنطينية (599 ـ 601/ 1202 ـ 1204) في صراع بين اللاتين واليونان، أي بين المسيحيين أنفسهم. وكانت الحملة الصليبية الخامسة أول حملة تتوجه نحو مصر وتحتل دمياط (615 ـ 618/ 1218 ـ 1221) قبل أن يجبرها الكامل محمد بن العادل الأيوبي على الانسحاب.

مرت الدولة الأيوبية بمرحلة خطيرة بسبب النزاع بين الأمراء الأيوبيين حول السلطة والنفوذ وتعاونهم مع قوى خارجية لها مطامعها التوسعية أيضاً تمثلت بالدولة الخوارزمية من جهة والفرنج من جهة ثانية فاتجه الكامل محمد للتعاون مع الفرنج، حتى أنه لم يتورع عن تسليم

بيت المقدس صلحاً إلى الامبراطور فردريك الثاني وهو يقود الحملة الصليبية السادسة (625 ـ 626/ 1228 ـ 1229) التي تعد أصغر حملة في تاريخ الحروب الصليبية. وعلى الرغم من استمرار النزاع بين الأمراء الأيوبيين، فقد تمكن الناصر داود من استرداد بيت المقدس سنة 638/ 1240، ليسيطر عليه الصالح أيوب سنة 642/ 1244، بمساعدة الخوارزمية. وبعد خمس سنوات توجهت الحملة الصليبية السابعة نحو مصر، وهي حملة فرنسية أبحرت من مرسيليا لتحتل دمياط مجدداً (647 ـ 648/ 1249 ـ 1250)، قبل أن تحل الهزيمة الساحقة بها، لتكون آخر الحملات الصليبية المنظمة على مصر والمشرق العربي، وقد رافق فشلها نهاية الدولة الأيوبية في مصر، مع مقتل آخر سلاطينها توران شاه وهو يحتفل بالنصر على الفرنسيين يوم الأحد 27 محرم 648/ 12 أيار 1250.

1 ـ نشأة الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين (564 ـ 570/ 1169 ـ 1174)

ينتمي صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام، إلى أسرة كردية من الأحرار[1]، امتزجت بالعروبة التي كانت في ذلك الوقت عروبة الأحاسيس والمشاعر والحضارة. وقد عمل أبوه نجم الدين «أيوب» وعمه أسد الدين «شيركوه» في خدمة عماد الدين زنكي بالموصل سنة 532/ 1138، وفي هذه السنة ولد صلاح الدين في قلعة تكريت. ولما فتح عماد الدين زنكي بعلبك سنة 533/ 1139 عيّن أيوب والياً عليها. وهناك نشأ صلاح الدين على تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث والفقه، وكذلك فنون الكرة والفروسية والصيد.

لحق صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه الذي لم يلبث أن أصبح أكبر أمراء نور الدين محمود، كما ارتفع شأن نجم الدين أيوب[2]. وأعجب نور الدين محمود بمهارة صلاح الدين في الفروسية ولعب الكرة فولاه قيادة الجيش الدمشقي مرتين، الأولى سنة 551/ 1156 والثانية سنة 555/ 1160[3]، وبدأ يظهر نجمه وهو في الخامسة والعشرين عندما صحبه عمه

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 3، 4.

2 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 21.

3 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 10، ص 100.

أسد الدين شيركوه في حملته الأولى سنة 559/ 1164 لفتح مصر بناء على أوامر نور الدين محمود، وفي حملته الثانية سنة 562/ 1167، ثم حملته الثالثة سنة 563/ 1168، حتى تمكن من ضم مصر سنة 564/ 1169 وتولي وزارتها.

استفاد صلاح الدين من التجربة العسكرية برفقة عمه أسد الدين حتى سنحت له الفرصة بعد وفاته، ليتولى وزارة مصر من قبل الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي في يوم الأربعاء 25 جمادي الثانية 564/ 26 آذار 1169. وهنا بدأت فكرة تأسيس دولة أيوبية في مصر، تراوده، فأرسل إلى نور الدين يطلب قدوم إخوته ومن بينهم شمس الدولة توران شاه، فجاؤوا إليه في مصر، ثم لحق بهم والده نجم الدين أيوب مع باقي أفراد آل أيوب، فوصل إليها في يوم الخميس 27 رجب 565/ 16 نيسان 1170.

منذ أن تولى صلاح الدين وزارة مصر، ونور الدين محمود يلح عليه بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي وجعلها للخليفة العباسي. ولكنه تريث في الأمر حتى يرسخ أقدامه في مصر قبل القضاء على الخلافة الفاطمية وتأسيس الدولة الأيوبية. وعندما أنذره نور الدين محمود امتثل لأمره[1] في أول جمعة من شهر محرم في يومه السابع من سنة 567/ 10 أيلول 1171، عندما صعد رجل أعجمي يدعى أمير عالم إلى منبر الجامع، فخطب بالناس ودعا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وكان نجم الدين أيوب موجوداً في الجامع خوفاً من حصول حادث. وبعد أن مرت الخطبة بسلام، أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر في الجمعة الثانية بقطع خطبة العاضد الفاطمي وأن يخطب للمستضيء العباسي، ثم توفي العاضد لدين الله الفاطمي بعد ثلاثة أيام[2]. وهكذا قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية «الشيعية»، فأعاد مصر إلى الخلافة العباسية «السنية»، وبعث البشارة بذلك مباشرة إلى بغداد مما أغضب نور الدين محمود الذي يعتبره نائباً عنه في مصر[3].

تعد وفاة نور الدين في يوم الثلاثاء 11 شوال 569/ 15 أيار 1174، تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية في مصر، في حين تعد فترة الخمس سنوات التي سبقت الوفاة، بمثابة فترة انشاء

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 200.

2 ـ المصدر نفسه، جـ 1، ص 201.

3 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 197، 198.

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 44.

هذه الدولة، لأن صلاح الدين الأيوبي كان خلالها لا يزال من الناحية الشرعية، تابعاً لسلطة سيده نور الدين، ولم يعترف الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بالدولة الأيوبية، إلا بعد الوفاة.

2 ـ توحيد مصر وبلاد الشام (570 ـ 581/ 1174 ـ 1185)

بدأت فكرة توحيد مصر والشام أيام نور الدين محمود، الذي ضم مصر إلى أتابكيته بعد أن أرسل إليها أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي فدخلاها سنة 564/ 1169. وما إن تولى صلاح الدين وزارة مصر بعد وفاة عمه في هذه السنة، حتى ظهرت أطماعه في إقامة حكم مستقل وراثي له ولآل أيوب من بعده. لذلك لم يشعر نور الدين محمود خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته أنه قد ضم مصر فعلياً إلى دولته، لأن صلاح الدين لم يعد ينفذ أوامره بل أخذ يماطل ويراوغ حتى استقر له الأمر بوفاة سيده وتولي الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان قاصراً، فخشي صلاح الدين أن تؤول الأمور إلى الوصي عليه واعتبر نفسه أحق بالوصاية[1]، لذلك أقام على مصر بهاء الدين الأسدي حاكماً مدة غيابه، وتوجه إلى بلاد الشام لضمها فعلياً، وإتمام الوحدة قبل مواجهة الفرنج.

استغرقت عملية ضم بلاد الشام إلى مصر، حوالى احدى عشرة سنة، منذ أن توجه صلاح الدين من مصر نحو بلبيس ثم بصرى، حتى دخل دمشق في **أول ربيع الثاني** 570/ 30 **تشرين الأول** 1175 وتملكها بسهولة، بعد أن أظهر أنه جاء لتربية وحماية الصالح إسماعيل وتدبير ملكه. وامتنعت قلعة دمشق وفيها جمال الدين ريحان لكن صلاح الدين استماله بالمال، وتولى القلعة طغتكين سيف الإسلام أخو صلاح الدين[2].

تابع صلاح الدين زحفه فتسلم مدينة حماه ثم حمص، ثم توجه إلى بعلبك فتسلمها من واليها «يمن»[3].

في غضون ذلك كان أمراء آل زنكي في حلب قد أرسلوا بطلب النجدة من أتابك الموصل سيف الدولة غازي، لمساعدة ابن عمه الملك الصالح اسماعيل لاسترداد أملاكه،

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 7، 18.

2 ـ المصدر نفسه، جـ 2، ص 20.

3 ـ المصدر نفسه، جـ 2، ص 29، 30.

فأرسل غازي جيشاً كبيراً بقيادة أخيه عز الدين مسعود. وقد تمكن صلاح الدين ومعه ستة آلاف من العساكر من أن ينزل الهزيمة بآل زنكي جميعاً، وكان عددهم عشرين ألفاً. وقطع صلاح الدين حينئذٍ الخطبة للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، ولم يكتف بذلك بل صرح بسلطانه على مصر والشام، واعترف به الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي. ثم تابع صلاح الدين زحفه ليوطد حكمه في بلاد الشام.

تسلم صلاح الدين حصن بزاغة في يوم الثلاثاء 22 شوال 571/ 4 أيار 1176. ودخل منبج في 29 شوال/ 11 أيار، وحاصر عزاز ثمانية وثلاثين يوماً حتى تسلمها في 11 ذي الحجة/ 21 حزيران. وبعد ذلك عاد إلى القاهرة[1]، وهو ينتظر الفرصة لدخول حلب والموصل معقل آل زنكي.

أثناء وجوده في القاهرة في الفترة (572 ـ 578/ 1176 ـ 1182)، شرع صلاح الدين في بناء قلعة الجبل ومتابعة بناء سور القاهرة، فكان همّه تحصين المدينة وتدعيم القوة البحرية، قبل أن يتجه ثانية، نحو بلاد الشام.

خشي صلاح الدين على بلاد الشام من عز الدين مسعود صاحب الموصل، لذلك اتجه ثانية إليها ودخل دمشق في يوم الثلاثاء 17 صفر 578/ 22 حزيران 1182، ثم حاصر بيروت براً وبحراً عدة أيام، ودخل الرقة ونصيبين والرها وسنجار وحران، ولم يتمكن من دخول الموصل.

سار صلاح الدين نحو آمد في سنة 579/ 1193، ففتحها عنوة، ثم حاصر حلب عدة أيام حتى سلّمها عماد الدين زنكي الثاني في يوم الأحد 18 صفر 579/ 12 حزيران 1183، ونصب صلاح الدين ابنه الظاهر غازي حاكماً عليها[2]. وبذلك انتهى نفوذ آل زنكي في دمشق وحلب بينما استمر في الموصل.

حاصر صلاح الدين الموصل[3] سنة 581/ 1185، فأرسل صاحبها عز الدين

---

1 ـ بن واصل، مفرج الكروب، جـ 2، ص 51.

2 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 42 ـ 47.

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 141، 142.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 163، 164.

مسعود والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود يطالبه بترك الموصل، لكن صلاح الدين ردهما واستمر في حصاره، فاضطر عز الدين مسعود لطلب الصلح شرط أن تبقى الموصل بيده على أن يخطب فيها لصلاح الدين ويقدم له المساعدة كلما طلب منه ذلك. وهكذا تمّ الصلح بينهما وجرت الخطبة باسم صلاح الدين في جميع بلاد الموصل.

وبذلك تمّ توحيد مصر وبلاد الشام، وتحولت الوحدة إلى كتلة متراصة تمكنت من استرداد بيت المقدس من الفرنج الذين حلت بهم الهزيمة في حطين.

3 ـ هزيمة الفرنج في حطين (الجمعة 24 ربيع الثاني 583/ 4 تموز 1187)

توجه صلاح الدين نحو جنوب طبرية في جيش بلغ تعداده عشرين ألفاً، في حين جمع الفرنج في صفورية حوالى ألف وثلاثمائة فارس وخمسة عشر ألفاً من المشاة بقيادة غي دو لوزينان ملك بيت المقدس، وكان معه ريموند صاحب طرابلس، رينو صاحب الكرك، أوك صاحب جبيل، وهمفري صاحب تبنين، ثم أرسلت أنطاكية قوة صغيرة.

نجح صلاح الدين في جذب الجيش الصليبي نحو طبرية بعد أن اشتدت الحرارة. وفي يوم الخميس 23 ربيع الثاني 583/ 3 تموز 1187، أحكم تطويق الفرنج الذين توقفوا عند الموضع المعروف باسم اللوبيا في منتصف الطريق إلى طبرية. وفي اليوم التالي هاجم المسلمون الجيش الذي قاده ريموند نحو حطين، ومنعوه من الوصول إلى ماء البحيرة، فاشتد عطش الفرنج. وهكذا انقض صلاح عليهم في حطين في يوم الجمعة 24 ربيع الثاني 583/ 4 تموز 1187، بعد أن أشعل حولهم النيران لتزيد من شدة الحر والعطش. وحلت الهزيمة الساحقة بالفرنج فوقعوا بين قتيل واسير[1]، وكان من جملة الأسرى الملك غي دو لوزينان ورينو وأوك وهمفري. وسيق الأسرى إلى دمشق[2]، وجرى قتل رينو دو شاتيون على يد صلاح الدين جزاءً له على غدره ومكره. في حين تمكن ريموند صاحب طرابلس من الفرار أثناء المعركة، وتوجه نحو صور ثم طرابلس حيث مات بعد أيام. ثم أطلق صلاح الدين عدداً كبيراً من الأسرى الفرسان مقابل تسليم ما بأيديهم من القلاع والمدن. أما الأسرى من المشاة وأجناد الفرسان فقد

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 194، 195.

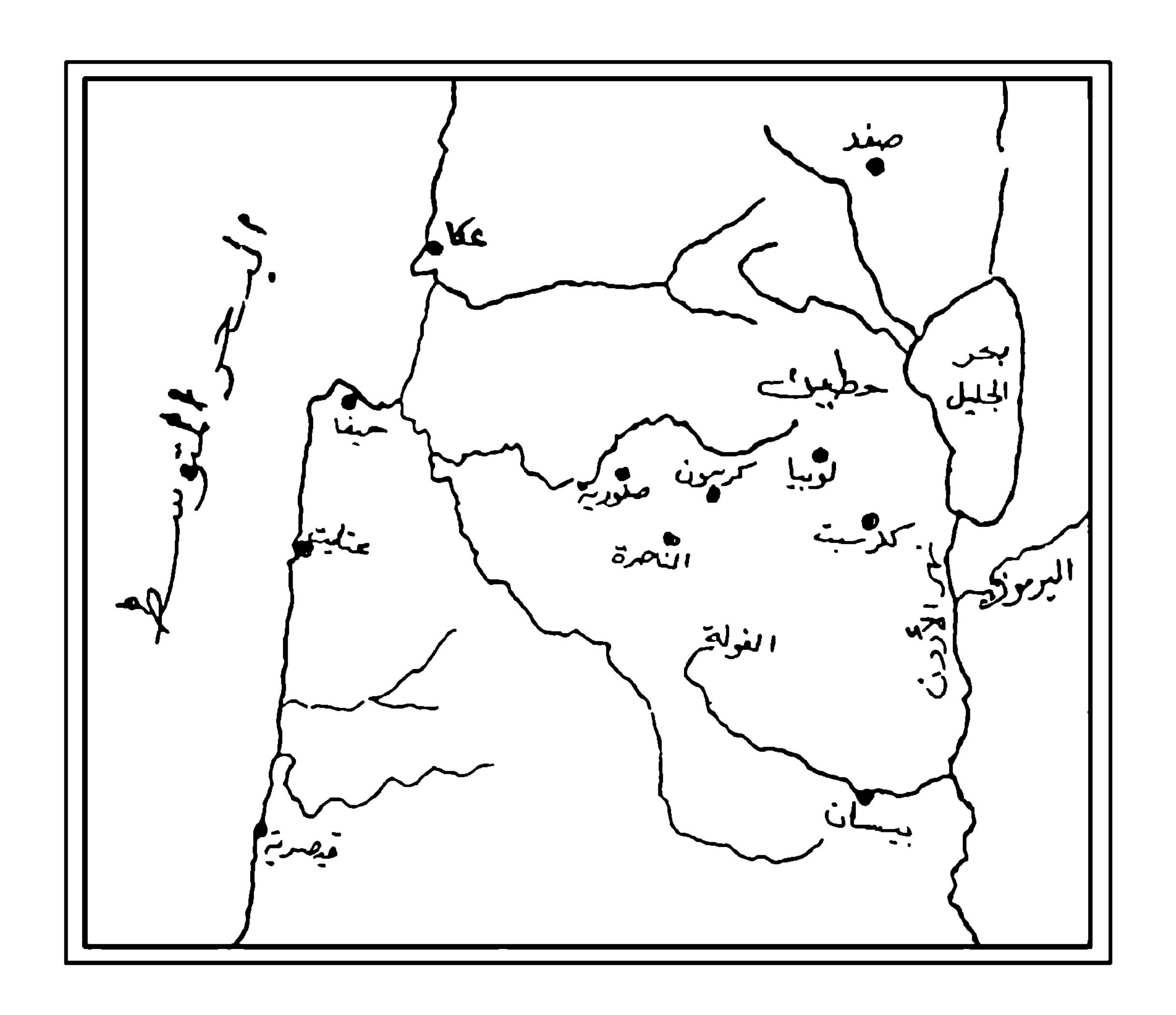
2 المصدر نفسه، جـ 2، ص 192.

بيعوا رقيقاً، وكان يساق الثلاثين أو الأربعين منهم، يربطهم حبل واحد، في أسواق الرقيق في بلاد الشام.

كانت نتائج معركة حطين سريعة ومتلاحقة، فقد تم لصلاح الدين فتح قلعة طبرية بعد أن أعطى الأمان لصاحبتها زوجة ريموند، فخرجت مع أولادها وأصحابها وأموالها إلى طرابلس[1]. ثم دخل صلاح الدين عكا، ومن هذه المدينة خرجت قواته لفتح الناصرة وقيسارية وحيفا، في حين أمر أخاه العادل بالخروج من مصر ففتح يافا. وهكذا توالت انتصارات صلاح الدين فاستولى على قلعة تبنين والصرفند وصيدا، ثم فتح بيروت بعد حصارها ثمانية أيام، كما استسلمت له جبيل مقابل إطلاق سراح صاحبها الذي كان من جملة أسرى حطين. وأخيراً سقطت عسقلان بعد حصار دام أربعة عشر يوماً، وسيّر صلاح الدين النساء والأطفال والأموال إلى بيت المقدس بعد أن أعطاهم الأمان.

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 195، 196.


صفد
عكا
بحر
الجليل
حطين
حيفا
لوبيا
صفورية
عتليت
اليرموك
الفولة
بيسان
قيصرية

معركة حطين

4 ـ تحرير بيت المقدس (الجمعة 27 رجب 583/ 2 تشرين الأول 1187)

أصبحت مدينة بيت المقدس محاصرة نتيجة سقوط جميع الأماكن المحيطة بها. وكان ملك بيت المقدس لا يزال أسيراً لدى صلاح الدين، فاتفق سكان المدينة على تعيين باليان دو إيبلان قائداً عسكرياً لهم.

حاصر صلاح الدين بيت المقدس اثني عشر يوماً، بدءاً من يوم الأحد 15 رجب 583/ 20 أيلول 1187، فتسلمه بعدما طلب الفرنج الأمان[1]، في يوم الجمعة 27 رجب 583/ 2 تشرين الأول 1187، وسمح بخروج الفرنج مقابل عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة دنانير عن كل امرأة ودينارين عن كل طفل، خلال مدة أربعين يوماً، ومن لم يؤد ما عليه في تلك الفترة يصبح أسيراً. وبهذا الاتفاق تمّ أسر ستة عشر ألفاً من الفرنج.

وفي ظهيرة 4 شعبان/ 9 تشرين الأول أقيمت أول صلاة جمعة في بيت المقدس، بعد أن تولى الخطبة القاضي محي الدين محمد بن علي القرشي[1].

خرج من بيت المقدس، نحو ستين ألف رجل من الفرنج مع من يتبعهم من النساء والأولاد، في ثلاث قوافل نحو صور التي كانت تغص بالفرنج الذين قدموا إليها من مختلف المناطق المحرّرة. ولم تتمكن هذه المدينة من استيعاب هذه القوافل الثلاث، فاكتفت باستقبال المحاربين، بينما تابع الباقون سيرهم شمالاً نحو طرابلس التي عجزت بدورها عن استقبالهم لكثرة من تجمع بها من الفرنج أيضاً، لذلك اتجهوا نحو أنطاكية.

بعد تحرير بيت المقدس، ظهر صلاح الدين الأيوبي أمام المسلمين في صورة المجاهد الكبير الذي يحظى بعطف وتأييد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (576 ـ 622/ 1180 ـ 1225)، والقائد الذي كان يحرص دائماً على تزويد الخليفة في بغداد بالتقارير المتواصلة عن سير حركة الجهاد ضد الفرنج[2].

كانت انتصارات صلاح الدين كارثة خطيرة على الغرب الأوروبي وهو يشاهد تقلص إماراته في المشرق العربي الإسلامي، حيث لم يبق خارج سيطرة صلاح الدين سوى صور وقلعة شقيف أرنون وطرابلس وأنطاكية وحصن المرقب وحصن الأكراد وبرج أنطرطوس.

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 212، 214.

2 ـ عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي، ص 147، 281 ـ 283.

لكن الخطأ العسكري الكبير الذي ارتكبه صلاح الدين الأيوبي هو السماح للفرنج بالتجمع في صور التي تحولت إلى قاعدة قوية للغرب الأوروبي، فضلاً عن إطلاق سراح غي دو لوزينان ملك بيت المقدس الذي انتقل إلى صور واتفق مع صاحبها كونراد دو مونتفور، متزعماً الحشد الصليبي الكبير لاسترداد ما حرره صلاح الدين بعد طلب النجدة من الغرب الأوروبي.

5 ـ الحملة الصليبية الثالثة ودخول عكا (585 ـ 588/ 1189 ـ 1192)

تعد الحملة الصليبية الثالثة من أضخم الحملات الصليبية، بعد أن اشترك فيها ثلاثة من أقوى ملوك غرب أوروبا: رتشارد الأول ملك انكلترة، فيليب أغسطس ملك فرنسا، وفردريك الأول ملك ألمانيا.

هلك معظم الجيش الألماني على يد السلاجقة قرب مدينة قونية، وغرق الامبراطور فردريك الأول وهو يغتسل في أحد الأنهر قرب أنطاكية، فتابع ابنه السير نحو عكا ومعه ألف رجل وقيل خمسة آلاف، بعد أن خرج الجيش الألماني في مائتي ألف.

خان الملك غي دو لوزينان العهد، ليكون أول من يبدأ بحصار عكا سنة 585/ 1189، بعد خروجه من صور، ممهداً الطريق أمام الحملة الصليبية الثالثة لتدعمه في الحصار.

أبدى المسلمون بطولة في الدفاع عن عكا، فكانوا يخرجون منها ليقاتلوا الفرنج ثم يعودون داخل الأبواب. كما ظهرت بطولة مدينة بيروت في مساندة أهل عكا أثناء الحصار، بعد أن اشتدت الحاجة إلى المواد الغذائية، فانطلقت سفينة من ميناء بيروت، وقد تزيا المسلمون بزي الفرنج وعلقوا الصلبان ووضعوا الخنازير على سطح السفينة التي اختلطت بسفن الفرنج ودخلت ميناء عكا.

أحكم الفرنج الحصار حول عكا، وأقاموا ثلاثة أبراج خشبية ضخمة، احتموا بداخلها، وزحفوا بها نحو السور لنقبه، لكن أهل عكا أحرقوا الأبراج[1].

اشتد حصار الفرنج على عكا، مع وصول الملك الفرنسي إليها يوم الثلاثاء 12 ربيع الأول 587/ 10 نيسان 1191، والملك الإنكليزي رتشارد الأول يوم السبت 13 جمادي

---

1 ـ العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 376.

الأولى 587/ 9 حزيران 1191، فاضطر قائد الحامية الأمير سيف الدين المشطوب، لطلب الأمان وتسليم عكا، فدخلها الفرنج صلحاً يوم الجمعة 17 جمادي الثانية 587/ 12 تموز 1191، بعد حصار دام سنتين.

نقض رتشارد الأول ملك انكلترة الاتفاق، بعد دخوله عكا، وقتل ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين دفعة واحدة يوم الثلاثاء 27 رجب 587/ 21 آب 1191، ولم يبق من الأسرى المسلمين إلا المقدمين والأقوياء ليعملوا في خدمته. وانفرد بالسيطرة على عكا، بعد عودة ملك فرنسا فيليب أغسطس إلى بلاده، وقد ملأه الغضب والحنق من سياسة رتشارد الأول القائمة على الشدة والغدر والتفرد بالسيطرة.

تحول الصدام بين الفرنج والمسلمين، إلى مواجهة بين أعظم ملوك غرب أوروبا رتشارد الأول وبين أعظم سلاطين المشرق العربي الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقد عرف كل منهما بالشجاعة والاقدام، وإن اختلفا في معاملة الأسرى والالتزام بالاتفاق. وهنا يظهر الفرق شاسعاً بين معاملة صلاح الدين الأيوبي للفرنج بعد انتصاره عليهم ودخوله بيت المقدس واعطائهم الأمان وارسالهم إلى الأماكن التي يريدونها، وبين معاملة رتشارد الأول للمسلمين والغدر بهم وقتل الأسرى، ما يعد صفحة سوداء في تاريخه.

انتهت الحملة الصليبية الثالثة، بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين ورتشارد الأول، في يوم الأربعاء 22 شعبان 588/ 2 أيلول 1192 ومدته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وينص على امتلاك الفرنج للمنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وأرسوف وحيفا وعكا، وما عدا ذلك بما فيه بيت المقدس يبقى للمسلمين، على أن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما، والقيام بتخريب عسقلان. وتم الاتفاق على حرية المسلمين في دخول المناطق التي يسيطر عليها الفرنج، وحرية المسيحيين في زيارة بيت المقدس وأن يعاد إليهم صليب الصلبوت. وبقيت إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس بيد الفرنج[1].

عاد رتشارد الأول من عكا قاصداً انكلترة بحراً، يوم الخميس أول رمضان 588/ 10 أيلول 1192، بعدما فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق غرضها وهو استرداد بيت

---

2 ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 606.

المقدس[1] الذي رابط فيه صلاح الدين وشارك مع أولاده والعلماء في نقل الحجارة لتحصين دفاعات المدينة، ما أفشل حصار الفرنج لها، فتأكد ملك بيت المقدس غي دو لوزينان من عجزه عن استرجاع ملكه، فاشترى جزيرة قبرص من رتشارد الأول، وأبحر إليها، واتخذها اقطاعاً له، ليحكمها حسب نظم بيت المقدس.

6 ـ وفاة صلاح الدين وتقسيم الدولة الأيوبية (الأربعاء 27 صفر 589/ 5 آذار 1193)

توفي صلاح الدين الأيوبي في دمشق صبيحة يوم الأربعاء 27 صفر 589/ 5 آذار 1193، بعد مرض استمر اثنا عشر يوماً وكان في السابعة والخمسين من عمره. وقيل إنه لم يترك إلا ديناراً واحداً وسبعة وأربعين درهماً من الفضة. وقد دفن جثمانه في قلعة دمشق إلى أن شيد له ضريح متوج بقبة بمحاذاة الجامع الأموي الكبير في دمشق، فنقلت رفاته إليها.

كان صلاح الدين قد أعلن وصيته السياسية سنة 580/ 1184، وتقضي بتولي ابنه العزيز عثمان حكم مصر، وابنه الأفضل نور الدين علي حكم دمشق. وفي سنة 582/ 1186 تولى ابنه الظاهر غازي حكم حلب. وبذلك كان القسم الأكبر من دولة صلاح الدين من نصيب أولاده الثلاثة، أما بقية الأمراء الأيوبيين فقد حصلوا على اقطاعات صغيرة كانت تابعة لسلطة هؤلاء الثلاثة.

وهذه الوصية السياسية تمثل الموقف التقسيمي، في اقتسام الأبناء والأخوة، بعد وفاته، للسلطة الأيوبية التي اقامها من دجلة إلى النيل، وهي تتناقض تماماً مع الموقف الوحدوي الذي اتخذه صلاح الدين في توحيد مصر وبلاد الشام قبل المواجهة مع الفرنج. وهذا الموقف التقسيمي أدى إلى نشوب الصراع بين أبناء صلاح الدين وأخوته، ما أدى إلى تقويض أركان السلطنة وسقوط المدن التي كان صلاح الدين قد فتحها من بيروت إلى عسقلان، في أيدي الفرنج.

على الرغم من دوره الرئيسي في تقسيم السلطنة الموحدة التي أقامها، فقد استمر صلاح الدين وحده من بين جميع الأيوبيين وحتى من بين جميع القادة المسلمين الذين جاؤوا من بعده، رمزاً

---

1 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 2 ص 403، 404.

للبطولة والجهاد والوحدة لدى العرب والمسلمين، في حين تحول إلى أسطورة مع الغرب الأوروبي.

أصبح صلاح الدين الأيوبي رمزاً للمشروع الوحدوي الكفيل بمواجهة الأعداء أياً كان الزي الذي يتخفون وراءه، فوجد فيه المسلمون بطلهم المنشود الذي تحتاجه الشعوب والأمم في الأوقات العصيبة التي تمر بها، كما وجد فيه العرب بطلهم العربي رغم أصله الكردي وأدخلوا سيرته في قصص الأدب الشعبي، حتى أصبح على كل شفة ولسان إلى يومنا هذا. ومع ذلك لم يحوله المسلمون ولا العرب إلى أسطورة على غرار ما فعله الغرب الأوروبي عبر أجياله الوسطى.

7 ـ اعادة توحيد مصر وبلاد الشام ثم تقسيمها عهد العادل سيف الدين (597 ـ 615/ 1200 ـ 1218)

انتهز العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الفرصة بعد وفاة أخيه صلاح الدين سنة 589/ 1193، فأخذ يعمل على اعادة توحيد الدولة التي اقتسمها مع أبناء أخيه، وذلك تحت رايته هو، فشجع الصراع بين ولدي أخيه، الأفضل والعزيز. وفي يوم الاثنين 10 شوال 596/ 25 تموز 1200، صار العادل سلطاناً على مصر، فضلاً عن احتفاظه بإمارة دمشق وأملاكه بأعمال الجزيرة[1].

وهكذا أعاد العادل توحيد مصر والشام، وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين خاضعين لسلطانه ومن بينهم الظاهر والأفضل ولدي صلاح الدين الأيوبي اللذين عقد معهما صلحاً تكون حلب بموجبه للظاهر، إضافة إلى منبج وأفامية وكفرطاب وقرى معينة من المعرّة، وتكون للأفضل سميساط وسروج ورأس العين وحملين.

وقد أصاب مصر زمن العادل، الأوبئة والمجاعات وهجرة السكان بسبب انخفاض النيل سنتي 597/ 1200 و 598/ 1201[2].

نجا العادل الأيوبي من الحملة الصليبية الرابعة (599 ـ 601/ 1202 ـ 1204) التي كانت تستهدف احتلال مصر، فانحرفت عن طريقها وتوجهت نحو القسطنطينية، إلا أنه

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 2، ص 149 ـ 152.

2 ـ المصدر نفسه، جـ 6، ص 170.

لم ينج من تهديد الفرنج في ساحل بلاد الشام. وقد أفاد العادل من المنازعات التي وقعت بين الفرنج على حكم أنطاكية، فعقد معاهدة مع أملريك ملك بيت المقدس في محرم 601/ أيلول 1204، وكانت مدتها ست سنوات وتقضي بإعادة التجارة مع سواحل الشام.

أكدت الحملة الصليبية الرابعة، كذب ادعاء الغرب الأوروبي، بأنه توجه إلى المشرق العربي، هو لانقاذ قبر المسيح عليه السلام من المسلمين، فقد دخل الفرنج «اللاتين» إلى القسطنطينية حيث البيزنطيين «اليونان»، وأمعنوا في القتل والنهب والسرقة وحرق الدور والمنازل، ولم تسلم كنيسة آيا صوفيا نفسها من النهب والحرق ونبش قبور الأباطرة المدفونين بداخلها وسرقة ما فيها من الذهب والأحجار الكريمة. ولم ينصت الفرنج إلى نداء رجال الدين وهم يحملون الأناجيل طالبين الأمان، حتى أن بطريرك القسطنطينية هرب حافي القدمين.

وفي سنة 603/ 1207 تقلّد العادل من الخليفة العباسي حكم مصر والشام وأخلاط وبلاد الجزيرة[1].

والمستغرب، أن يسير العادل سيف الدين على منوال أخيه صلاح الدين الأيوبي في تقسيم الدولة الأيوبية بعد توحيدها مجدداً، فكانت له السلطة العليا على مصر والشام وخاصة بعد اعتراف الخليفة العباسي به. ومهد لحصر الحكم في أبنائه من بعده، فجعل ابنه الكامل محمد على مصر، وابنه المعظم عيسى على دمشق وهي امارة كانت تمتد من العريش إلى حمص، كما تولى ابنه الأشرف موسى البلاد الشرقية. وخضع الأمراء الأيوبيون في حلب وحمص وحماه لسلطة العادل، الذي ما لبث أن توفي في يوم الجمعة 7 جمادي الثانية 615/ 31 آب 1218.

إذا كانت الحملة الصليبية غيرت اتجاهها، فلم تغزو مصر، إلا أن مصر أصبحت هدفاً رئيساً للحملة الصليبية الخامسة ثم الحملة الصليبية السابعة.

فقبل وفاة العادل بنحو أربعة أشهر ونصف جاءت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر، فتولى ابنه الكامل مواجهتها بمساعدة أخوته، طيلة ثلاث سنوات وأربعة أشهر، انفجر الصراع بعدها، بين الأخوة الثلاثة، ما حدا بالكامل لتسليم بيت المقدس صلحاً إلى الامبراطور فردريك الثاني الذي قاد الحملة الصليبية السادسة.

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 165 ، 166.

8 ـ مواجهة الكامل محمد بن العادل للحملة الصليبية الخامسة ضد مصر (615 ـ 618/ 1218 ـ 1221)

تولى الكامل محمد حكم مصر بعد وفاة أبيه العادل، طيلة عشرين سنة (615 ـ 636/ 1218 ـ 1238)، شهدت قدوم الحملة الصليبية الخامسة بقيادة المندوب البابوي الكاردينال بيلاجيوس نحو دمياط في مصر، فوصلتها في رجب 615/ أيلول 1218، وأعلن الكامل عن استعداده لتسليم بيت المقدس مقابل فك الحصار الذي بدأ مع وصول الفرنج بقيادة جان دوبريان من عكا يوم الخميس 4 ربيع الأول 615/ أول أيار 1218، ليشتد مع وصول بيلاجيوس الذي رفض عرض الكامل، فكان ذلك من حسن حظ المشرق العربي.

وعلى الرغم من غرابة هذا العرض بالتنازل عن بيت المقدس الذي حرره صلاح الدين الأيوبي سنة 583/ 1187، فقد سقطت دمياط بيد الفرنج يوم الثلاثاء 25 شعبان 616/ 5 تشرين الثاني 1219، فاضطر اﺍلكامل للتراجع بجيشه ليمنع الفرنج من الزحف نحو القاهرة. ثم بنى مدينة جديدة لتكون خط الدفاع الأول عن القاهرة، ما لبثت أن حملت اسم المنصورة تيمناً بانتصاره على الفرنج وعقده المعاهدة مع بيلاجيوس في 7 رجب 618/ 7 ايلول 1221 التي ينسحب بموجبها عن دمياط بعد احتلال استمر طيلة سنة وعشرة أشهر ويومين، وبعد أن بقي الفرنج في مصر ثلاث سنوات وأربعة وأشهر وسبعة أيام.

9 ـ تسليم الكامل محمد بيت المقدس صلحاً إلى الامبراطور فردريك الثاني (ربيع الأول 626/ شباط 1229)

يستغرب المؤرخ موقف الكامل محمد الأيوبي، من استعداده للتنازل عن بيت المقدس، مقابل انسحاب الفرنج من دمياط، وحفاظه على حكمه في مصر، على الرغم من احرازه النصر على الفرنج بعد بنائه مدينة المنصورة.

يبدو أن الصراع بين الكامل محمد صاحب مصر، وأخوه المعظم عيسى صاحب دمشق هو الذي جعل الكامل محمد مستعداً للتنازل عن بيت المقدس الذي يقع ضمن أملاك أخيه المعظم، ما يشير إلى مرحلة خطيرة مرت بها الدولة الأيوبية، تمثلت باستعانة الأخوين المتصارعين بقوتين خارجيتين لكل منها أطماعها التوسعية، فاتجه الكامل نحو الفرنج ليراسل

فردريك الثاني[1] امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (ألمانيا، ايطاليا، صقلية)، بينما اتجه المعظم نحو السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي[2]. وسنحت الفرصة أمام الكامل للاستيلاء على بيت المقدس يوم الأربعاء 14 شعبان 625/ 20 تموز 1228، وذلك بعد ثمانية أشهر وتسعة أيام من وفاة أخيه المعظم يوم الاثنين 27 شوال 624/ 11 تشرين الثاني 1227 ليخلفه ابنه، وأصبح الكامل في موقف قوي لا يحتاج معه إلى دعم الامبراطور فردريك الثاني. بالعكس فإن هذا الامبراطور كان في موقف ضعيف لا يحسد عليه، فقد وصل إلى عكا في شوال 625/ أيلول 1228، وهو يقود الحملة الصليبية السادسة التي تعد أصغر حملة في تاريخ الحروب الصليبية، ولا تضم أكثر من خمسمائة أو ستمائة فارس، ولا تتمتع بعطف الكنيسة.

حقق الكامل محمد الأيوبي، للامبراطور فردريك الثاني، ما عجز عن تحقيقه أقوى ملوك غرب أوروبا وفي مقدمتهم رتشارد قلب الأسد ملك انكلترة إبان الحملة الصليبية الثالثة. وهذا هو المستغرب في موافقة الكامل على عقد اتفاقية يافا مع فردريك الثاني في ربيع الأول 626/ شباط 1229، حيث تقرر بموجبها الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن يتنازل له عن بيت المقدس (ما عدا الحرم الشريف حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى) وبيت لحم والناصرة، وعلى شريط من الأرض يصل بين بيت المقدس والساحل (تبنين وصيدا)، واتفقا على اطلاق الأسرى من كلا الجانبين[3].

تعرض الامبراطور فردريك الثاني، لسخط المتطرفين من الذين رأوا أنه جعل من الحرب الصليبية مسألة معاهدة وجرى أخذ بيت المقدس عن طريق الاستجداء ومن غير قتال. لذلك توقعوا أن يستعيد المسلمون بيت المقدس، بعد أن احتفظوا لأنفسهم بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة بموجب اتفاقية يافا، لتستمر إقامة شعائر الإسلام[4].

سخط المسلمون على الكامل الأيوبي، لتوقيعه اتفاقية يافا، وتسليم بيت المقدس التي

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 11، ص 162 ـ 165.

2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 221 ، 222.

3 ـ المصدر نفسه، جـ 1، ص 230.

4 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 283.

استردها صلاح الدين الأيوبي بعد جهاد متواصل توجه بانتصار حطين سنة 583/ 1187.
وقد تعرض الكامل لتأنيب العلماء والفقهاء، وأعلن الناصر داود الحداد، وأقيمت المآتم والجنازات في مدن الشام وخاصة دمشق[1].

ثم عاد بيت المقدس إلى المسلمين سنة 638/ 1240، وذلك بعد وفاة الكامل بست سنوات.

10 ـ الناصر داود يسترد بيت المقدس (638/ 1240)

استغل الفرنج النزاع بين الأمراء الأيوبيين، فأقاموا التحصينات في بيت المقدس وأخرجوا المسلمين منها مخالفين بذلك معاهدة فردريك الثاني مع الكامل. وما لبث أن انتهى أجل المعاهدة سنة 637/ 1239، فقام الناصر داود أمير الكرك بمحاصرة بيت المقدس وطرد الفرنج منها سنة 638/ 1240.

11 ـ أمير دمشق الصالح اسماعيل يسلم صفد وشقيف أرنون وطبرية وعسقلان للفرنج (638 ـ 641 / 1240 ـ 1243)

استمر النزاع بين الأمراء الأيوبيين حول بلاد الشام، ودخل الفرنج في هذا النزاع، فتحولت الشام إلى ساحة للفوضى والاضطراب. حتى وصل الأمر بالصالح اسماعيل أمير دمشق بأن يتعاون مع الفرنج ويسلمهم صفد وشقيف أرنون دون قتال، مما لم يعهد له مثيل في تاريخ الدولة الأيوبية. فقد حاصر الصالح هذا قلعة شقيق أرنون وسلمها لصاحب صيدا سنة 638/ 1240[2]، لأن حاميتها المسلمة رفضت تسليمها للفرنج، ثم دخلها وسلمها للفرنج، وعاقب أفراد الحامية.

عمد الصالح اسماعيل أيضاً، إلى تسليم طبرية وعسقلان التي أعاد الفرنج بناء استحكاماتها سنة 641/ 1243. ولم يكتف بذلك، بل تحالف مع الناصر داود أمير الكرك، وصلاح الدين شيركوه الثاني أمير حمص، وقرر الجميع التوجه إلى مصر.

---

1 ـ Stevenson: The Crusades, p 313.

2 ـ أبو شامة، الذيل على الروضتين ص 170. ابن واصل، مفرج الكروب جـ 5، ص 302.

12 ـ سيطرة الصالح أيوب بن الكامل على بيت المقدس
(3 صفر 642/ 11 تموز 1244)

استطاع الصالح أيوب بن الكامل أن يقضي على التحالف الأيوبي ـ الفرنجي عندما هجم حلفاؤه الخوارزمية في عشرة آلاف مقاتل، بعد أن عبروا الفرات واستولوا على طبرية ونابلس. وفي 3 صفر 642/ 11 تموز 1244 اقتحموا بيت المقدس وجرى القتال في الشوارع[1]. ثم قاد بيبرس الجيش المصري المؤلف من المماليك الأتراك والخوارزمية نحو غزة، حيث حلت الهزيمة الساحقة بالفرنج بعد ثلاثة أشهر، فهلك منهم خمسة آلاف وأسر ثمانمائة[2]. ثم هاجم الصالح أيوب معاقل الفرنج بسبب تحالفهم مع الأيوبيين، ودمر أسوار واستحكامات طبرية وعسقلان.

وهكذا اعترف الأمراء الأيوبيون في الشام بسلطنة الصالح الأيوبي الذي دخل دمشق سنة 645/ 1247، وكذلك دخل بعلبك وبصرى وبيت المقدس، وعمّر ما تخرب فيها، ثم عاد إلى القاهرة. فإذا كان الكامل محمد الأيوبي قد سلم بيت القدس صلحاً، فقد عاد بيت المقدس إلى ابنه الصالح أيوب عنوة.

13 ـ الحملة الصليبية السابعة ضد مصر
(647 ـ 648/ 1249 ـ 1250)

كان سقوط بيت المقدس في يد الصالح أيوب وحلفائه الخوارزمية سنة 642/ 1244، دافعاً للحملة الصليبية السابعة، مثلما كان سقوط هذه المدينة للمرة الأولى، على يد صلاح الدين سنة 583/ 1187، دافعاً للحملة الصليبية الثالثة.

اتخذت الحملة السابعة طابعاً فرنسياً، فلم يشترك فيها ملوك انكلترة وألمانيا والمدن الايطالية. وكان هدفها مصر باعتبارها مفتاح المشرق العربي الإسلامي لدخول بيت المقدس[3].

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 2، ص 323.

2 ـ المصدر نفسه، جـ 6، ص 324.

3 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 351.

أبحرت الحملة من مرسيليا وقد بلغت خمسين ألفا بقيادة الملك لويس التاسع وبصحبته زوجته الملكة مرغريت وأخويه شارل دو أنجو وروبرت دو أرتوا. وفي يوم السبت 21 صفر 647/ 4 حزيران 1249 وصلت إلى دمياط، ونزلت إلى البر الغربي لنهر النيل (فرع دمياط) في اليوم التالي.

كان الصالح أيوب مريضاً عند قدوم الحملة، فاتخذ مقر قيادته في أشمون طناح شرق فرع دمياط، وعهد إلى وزيره الأمير فخر الدين يوسف بقيادة الجيش لمنع الفرنسيين من النزول إلى البر غرب فرع دمياط. وما لبث الأمير فخر الدين يوسف أن انسحب بجيشه نحو دمياط ثم تخلى عن الدفاع عنها وتراجع مع حاميتها نحو معسكر الصالح أيوب، فاحتل الفرنسيون دمياط بسهولة[1]، بعد أن هرب أهلها ليلاً حينما وجدوا أنفسهم دون حماية.

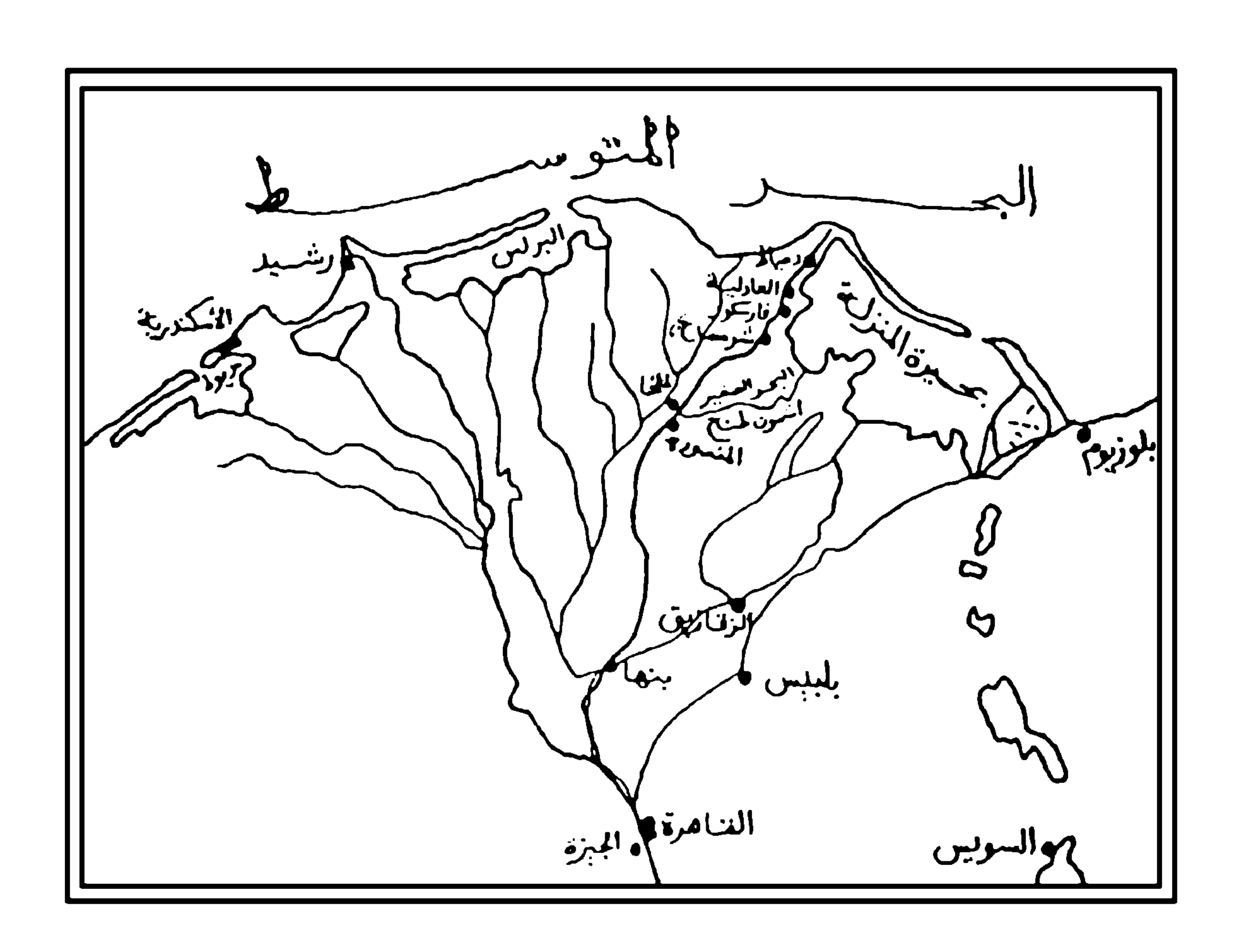
تراجع الصالح أيوب نحو المنصورة لمتابعة المقاومة ضد الفرنسيين، بعد أن أمر باعدام أربعة وخمسين من القادة المتخاذلين في الدفاع عن دمياط. أما لويس التاسع فأقام ستة أشهر في دمياط ينتظر قدوم الإمدادات مما أضعف معنويات الفرنسيين، وبخاصة بعد انتشار الوباء بينهم وازدياد العمليات الفدائية ضدهم، فاضطر إلى أن يقيم السدود ويحفر الخنادق لحماية معسكره[2]. ثم وصل أخوه الثالث كونت دو بواتييه، وتقرر الزحف نحو القاهرة.

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 330.

2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 348.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 333.



دلتا النيل عند مجيء الحملة الصليبية السابعة

توفى الصالح أيوب في المنصورة في يوم الاثنين 14 شعبان 647/ 23 تشرين الثاني 1249، فقامت زوجته شجر الدر بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موته. وأرسلت إلى ابن زوجها وولي عهده توران شاه في حصن كيفا، تطلب منه القدوم لتسلم السلطنة بعد وفاة أبيه.

انتهز الملك لويس التاسع الفرصة بوفاة الصالح أيوب، فترك دمياط ليزحف نحو معسكر الجيش المصري عند المنصورة التي أوشكت أن تسقط بيده لولا بطولة فرقة المماليك البحرية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري الذي أطبق على الفرنسيين وقتل حوالى ألف وخمسمائة فارس بما فيهم قائدهم روبرت دو أرتوا، يوم الثلاثاء 4 ذي القعدة 647/ 8 شباط 1250، فانسحب الجيش الفرنسي نحو دمياط.

وصل توران شاه إلى مصر في يوم الأحد 23 ذي القعدة 647/ 27 شباط 1250، فتولى السلطنة وتسلم قيادة الجيش المصري بنفسه، وظل يطارد الفرنسيين حتى فارسكور، حيث أبلى المماليك البحرية بقيادة أقطاي وبيبرس[1]، وحلت الهزيمة الساحقة بالفرنسيين حيث قتل منهم حوالى خمسة عشر ألفاً[2]، وتم أسر لويس التاسع ومن معه من الأشراف والقادة[3]، وسيقوا إلى مدينة المنصورة.

تم الاتفاق بين الفريقين على معاهدة تقضي بانسحاب الفرنسيين عن دمياط ودفع فدية لإطلاق أسرى الفرنسيين مقدارها ثمانمائة ألف دينار، فضلاً عن إطلاق سراح الأسرى المسلمين[4]، ومدة المعاهدة عشر سنوات. وتم تنفيذ شروط المعاهدة بعد مقتل توران شاه[5]، حيث تم دفع نصف الفدية المقررة على أن يدفع النصف الباقي بعد الوصول إلى عكا. وقد قامت الملكة مرغريت التي بقيت في دمياط أثناء الحملة بجمع المبلغ المطلوب. وتم تسليم

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 370.

2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 357.

3 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 360.

4 ـ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 181. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 363، جوانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ص 155، 156.

5 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 362.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 374.

دمياط في يوم الجمعة 2 صفر 648/ 6 أيار 1250، بعد وصول لويس التاسع ليبحر في اليوم التالي مع زوجته وابنهما جان تريستان لذي ولدته في دمياط.

كانت الحملة الصليبية السابعة آخر الحملات المنظمة على المشرق العربي الإسلامي. ومن المصادفات أن يرافق نهايتها وفشلها، مقتل توران شاه ونهاية الدولة الأيوبية في مصر.

14 ـ مقتل توران شاه ونهاية الدولة الأيوبية (27 محرم 648/ 2 أيار 1250)

توفي الصالح أيوب قبل أن يتمكن من طرد الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع الذي استولى على دمياط، فحقق ابنه توران شاه هذا الأمر بعد وصوله إلى مصر، بفضل مساندة شجر الدر زوجة أبيه وجهود المماليك البحرية الصالحية لا سيما أقطاي وبيبرس في موقعة فارسكور التي أسر فيها لويس التاسع مما أدى إلى جلاء حملته عن دمياط. وأطلق على هؤلاء المماليك اسم «داوية الإسلام»[1] على غرار طائفة الداوية عند الفرنج، وكان فرسانها معروفين بالشجاعة والإقدام.

كان توران شاه يكره مماليك أبيه «البحرية الصالحية»، كما كان يخشى منهم. ولعله لم يكن على قدر كاف من سياسة الأمور، فلم يعرف كيف يكافىء من يدين لهم بالسلطنة والنصر، بل بالعكس أخذ يعمل على تهديد شجر الدر[2] التي ساعدته في تولي السلطنة، وعلى مناوئة الأمراء الذين حققوا له النصر على الفرنسيين، فتولى أربعة أمراء بينهم أقطاي وبيبرس مهمة تنفيذ قتله، في يوم الأحد 27 محرم 648/ 2 ايار 1250، حينما أقام توران شاه احتفالاً في فارسكور بانتصاره على الفرنسيين وتخليص مصر منهم.

حكم توران شاه واحداً وستين يوماً، وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية التي استمرت نحو ثلاثة أرباع القرن (569 ـ 648/ 1174 ـ 1250) لتحل محلها دولة المماليك التي استمرت حوالى القرنين وثلاثة أرباع القرن (648 ـ 923/ 1250 ـ 1517).

صحيح أن بعض خلفاء ووزراء الدولة الفاطمية «الشيعية» في القاهرة، وبعض شيعة

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 370.

2 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 371.

جبل عامل، وبعض موارنة جبل لبنان، تعاونوا مع الفرنج، أثناء الحملة الصليبية الأولى (489 ـ 503/ 1096 ـ 1109)، وأن مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين (534 ـ 549/ 1139 ـ 1154) آخر أتابكة الدولة البورية «السنّية» في دمشق، تحالف مع الفرنج، على الرغم من فشل الحملة الصليبية الثانية (541 ـ 543/ 1146 ـ 1148) وفك حصارها عن دمشق، إلا أن ذروة التعاون مع الفرنج، بلغت زمن الدولة الأيوبية «السنّية»، حينما أقدم السلطان الكامل محمد بن العادل الأيوبي على توقيع اتفاقية يافا سنة 626/ 1229، وتنص على تسليم بيت المقدس، ما عدا الحرم الشريف حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى وبيت لحم والناصرة، صلحاً إلى الامبراطور فردريك الثاني.

كما لم يتورع أمير دمشق الصالح اسماعيل بن العادل (635 ـ 636/ 1237 ـ 1238)، عن التعاون مع الفرنج وتمكن مع الناصر داود أمير الكرك، وصلاح الدين شيركوه الثاني الأيوبي أمير حمص، من اقامة تحالف ثلاثة أمراء أيوبيين مع الفرنج ضد ابن أخيه السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة 642/ 1244، في نزاع بين الأمراء الأيوبيين حول بلاد الشام. وما لبث السلطان الصالح أيوب أن قضى على هذا التحالف، ليعترف الأمراء الأيوبيون في الشام بسلطنته، بعد أن دخل بيت المقدس[1] ثم دمشق.

لقد عانى الروم الأرثوذكس من اضطهاد الفرنج والكنيسة اللاتينية داخل بيت المقدس، كما عانوا من احتلال الفرنج «اللاتين» للقسطنطينية. أثناء الحملة الصليبية الرابعة (599 ـ 601/ 1202/ 1204) التي كشفت خداع الفرنج في الغرب الأوروبي بادعائهم العطف على مسيحي المشرق العربي الإسلامي. فلا غرو أن يكون الروم الأرثوذكس الطائفة الأكثر عداوة للفرنج، فساندوا المسلمين لتحل الهزيمة بالفرنج عند مشارف طرابلس سنة 531/ 1137. كما كانوا ينفرون من بيع المواد الغذائية للفرنج، ولا يقدمون لهم المساعدة إلا بالضغط والاكراه.

كما أصبح المماليك، أشد الحكام عداوة للفرنج، منذ تأسيسهم دولتهم سنة 648/ 1250، وقضائهم على أسطورة المغول «قوة لا تقهر» في معركة عن جالوت سنة 658/ 1260، حتى تمكنوا من اقصاء الفرنج نهائياً عن المشرق العربي الإسلامي سنة 690/ 1291.

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 2، ص 323.

الفصل الخامس

نشأة دولة المماليك

واقصاء الفرنج عن المشرق العربي

(648 ـ 690/ 1250 ـ 1291)

انتهت الدولة الأيوبية فعلياً في مصر، بمقتل توران شاه على يد المماليك سنة 648/ 1250، وقامت دولة المماليك الأولى (648 ـ 784/ 1250 ـ 1382) التي استطاعت أن توحد مصر والشام كما في أيام صلاح الدين الأيوبي، وتنهي العمل الذي بدأه، باقصاء الفرنج نهائياً عن المشرق العربي الإسلامي سنة 690/ 1291.

1 ـ نشأة دولة المماليك (648/ 1260)

يعود أصل المماليك إلى الرقيق الأسيوي الأبيض، وموطنه الأصلي بلاد القبجاق في حوض نهر الفولغا شمال البحر الأسود وفي القوقاز، حيث تعيش قبائل مختلفة من الأتراك والجراكسة والروس والمجر واللان. وكان تجار الرقيق يحصلون على هؤلاء المماليك عن طريق الأسر في الحروب أو الخطف من أهلهم الذين قد يضطرون أحياناً لبيع أبنائهم بسبب الفقر والجوع مقابل المال أو الغذاء.

أكثر سلاطين الدولة الأيوبية، ثم دولة المماليك الأولى، من جلب المماليك الأتراك ثم الجراكسة لتدعيم القوة الحربية بعد تنشئتهم على الإسلام وتربيتم على الفروسية والطاعة.

كان الصالح أيوب (638 ـ 647/ 1240 ـ 1249) قد أكثر بدوره من شراء المماليك

الأتراك، فأصبح معظم الجيش يتألف منهم، وقد ضج أهالي القاهرة من عبث واعتداءات هؤلاء المماليك الجدد، فبنى الصالح قلعة في جزيرة الروضة وأسكنهم فيها، ثم اتخذها مقراً له. وقد عرفوا باسم المماليك البحرية، كونهم سكنوا جزيرة الروضة التي يحيط بها بحر (نهر) النيل[1]، والأرجح أن هذه التسمية تعود إلى الوسيلة التي كان يتبعها تجار الرقيق في جلبهم عبر البحار من القوقاز وآسيا الوسطى، حيث يعبرون البحر الأسود، وبحر القرم، ثم البحر المتوسط، لينزلوا في الإسكندرية أو دمياط[2]. وقد تمكن هؤلاء المماليك البحرية من تأسيس دولة المماليك الأولى (648 ـ 784/ 1250 ـ 1382).

ويمكن اعتبار فترة الثمانين يوماً التي تولت فيها شجر الدر السلطنة بمثابة مرحلة انتقالية منذ سقوط الدولة الأيوبية، مهدت لقيام دولة المماليك الأولى. فشجر الدر كانت زوج الصالح أيوب والد توران شاه، وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[3]، وهي أرمنية الأصل وليست مملوكية تماماً، وكان المماليك البحرية يأتمرون بأمرها، فاختاروها للسلطنة بعد قتلهم توران شاه. وتمت البيعة لشجر الدر في 10 صفر 648/ 14 أيار 1250، فقبضت على زمام الأمور بقوة وشهامة زائدة وحرمة وافرة[4]، فكانت ثاني امرأة تسلمت الحكم في الإسلام بعد رضية الدين سلطانة دلهي في الهند (634 ـ 638/ 1236 ـ 1240) التي عاصرت شجر الدر[5]. وكانت أيضاً أول امراة تسلمت الحكم في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي، وعرفت بـ «المستعصمية» الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين[6].

عارض المصريون وجود امرأة على رأس الحكم[7]، كما عارضها الأمراء الأيوبيون في

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 320، 330، 331.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 339.
2 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 4، ص 469.
3 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 196.
4 ـ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 1، ص 89.
5 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 368.
6 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 362.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 374.
7 ـ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص 34.

الشام، ولم يعترف بها الخليفة العباسي المستعصم[1]. فكان من الطبيعي أن لا تستمر طويلاً في السلطنة، في مجتمع عربي إسلامي لم يألف فيه المسلمون أن تتولى أمرهم امرأة، حيث الرجال قوامون على النساء. لذلك اشار المماليك البحرية على شجر الدر بالزواج من الأمير عز الدين أيبك التركماني والتنازل له عن السلطنة[2]، ففعلت ذلك في ربيع الثاني 648/ تموز 1250. فكان أيبك أول سلاطين دولة المماليك الأولى التي توالى على حكمها خمسة وعشرون من السلاطين[3].

وما لبث سلاطين دولة المماليك الأولى أن اعتمدوا بدورهم على المماليك الذين كانوا يجلبون من بلاد القبجاق. وأكثر السلطان المنصور قلاون من جلب المماليك الجراكسة، حتى بلغ عددهم حوالى ثلاثة آلاف وسبعمائة في أواخر عهده. وقد أنزلهم جميعاً في أبراج القلعة، لذلك عرفوا بالمماليك البرجية، وتحولوا مع الزمن إلى قوة نافست المماليك الأتراك وحلت محلهم في كرسي السلطنة لتؤسس دولة المماليك الثانية (784 ـ 923/ 1382 ـ 1517). وكان الظاهر سيف الدين برقوق أول سلاطينها الستة والعشرين[4].

وهكذا أقام المماليك الأتراك ثم الجراكسة سلطنة خاصة بهم امتد حكمها طيلة قرنين وثلاثة أرباع القرن (648 ـ 923/ 1250 ـ 1517). حتى انتهت على يد العثمانيين سنة 923/ 1517، وكان طومان باي الثاني آخر سلاطين المماليك.

2 ـ انتصارات الظاهر بيبرس على الفرنج (663 ـ 669/ 1265 ـ 1271)

يعد الظاهر بيبرس (658 ـ 676/ 1260 ـ 1277) المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأولى، بعد توحيد مصر وبلاد الشام تمهيداً للحرب الشاملة ضد الفرنج، وهي الحرب التي مهدت بدورها لاقصاء الفرنج التام عن المشرق العربي، بعد وفاته باربع عشرة سنة، وذلك على يد الأشرف خليل بن قلاون سنة 690/ 1291.

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 368، 369.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 376.

3 ـ راجع الملحق رقم 6 وفيه أسماء جميع سلاطين دولة المماليك الأولى.

4 ـ راجع الملحق رقم 6 وفيه أسماء جميع سلاطين دولة المماليك الثانية.

قضى الظاهر بيبرس السنوات الخمس الأولى من حكمه (658 ـ 663/ 1260 ـ 1265) يعمل على توطيد دعائم دولته في مصر وبلاد الشام، فأخضع جميع المناوئين له من المماليك والأيوبيين، وأخذ يعمل على تحصين دولته وتأمين حدودها ضد أي غزو خارجي محتمل. لذلك اهتم بإعادة بناء القلاع في مصر والشام[1]، واقام سلسلة من المنائر وأبراج المراقبة تربط أطراف الدولة بالقاهرة لمراقبة تحركات العدو، والمساعدة على سرعة نقل الأخبار[2]، وأمر بردم مصب النيل عند دمياط بواسطة الصخور الكبيرة، لمنع الفرنج من المرور إذا ما فكروا بإرسال حملة جديدة إلى مصر. ووضع الظاهر بيبرس للبريد نظاماً خاصاً لربط قلعة القاهرة بسائر أنحاء الدولة عن طريق البر بواسطة الخيل، أو عن طريق الجو بواسطة الحمام الزاجل[3]، حتى صارت الرسائل تنقل من دمشق إلى القاهرة ذهاباً وإياباً في مدة لا تزيد عن ثلاثة أيام.

أخذ الظاهر بيبرس يعمل على تكوين جيش من المماليك، لتدعيم قوته العسكرية، فأكثر من استقدام أعداد كبيرة منهم. فكان يرسل سفينتين كل عام، فيسهل الإمبراطور البيزنطي مرورهما عبر البوسفور نحو البحر الأسود، لنقل المماليك المجلوبين من القبجاق لتعود بهم إلى الاسكندرية ودمياط في البحر المتوسط[4].

وهكذا بلغ عدد أفراد الجيش المملوكي حوالى أربعين ألفاً[5]، ووصل عدد قطع الأسطول البحري إلى خمسين سفينة[6].

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 525.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 1، ص 111.
2 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 177.
القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 14، ص 399.
ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 200، 201.
3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 14، ص 389 ـ 394.
4 ـ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 202، 203.
5 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 197.
6 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 447.

(أ) سقوط قلعة صفد (19 شعبان 664/ 26 أيار 1266)

اتبع الظاهر بيبرس خطة جديدة في مواجهة الفرنج جعلت الرعب يملأ قلوبهم، منذ دخوله قيسارية يوم الخميس 15 جمادي الأولى 663/ 5 آذار 1265، تم استيلائه على أرسوف. وبعد حصار استمر أحد عشر يوماً سقطت قلعة صفد التي تعد من أخطر قلاع الفرنج، وذلك يوم الأربعاء 19 شعبان 664/ 26 ايار 1266، وقتل جميع أفراد الحامية من فرسان الداوية الأشداء ليكونوا عبرة لغيرهم من الفرنج. وهذا يعني اتباع الظاهر بيبرس سياسة الفرنج أنفسهم في نكث وعود الأمان، كما فعل ملك انكلترة رتشارد الأول أثناء الحملة الصليبية الثالثة على عكا، وكما فعل قبله الفرنج مع دخولهم بيت المقدس أثناء الحملة الصليبية الأولى. ومع سقوط قلعة صفد بدأت الهزائم تحل بالفرنج، فسقطت قلاع حلبا والقليعات وعرقا[1]، كما سقطت يافا.

(ب) سقوط إمارة انطاكية (4 رمضان 666/ 18 أيار 1268)

حاصر الظاهر بيبرس أنطاكية براً وبحراً، حتى لا تصل إليها الامدادات، ودخلها في 4 رمضان 666/ 18 أيار 1268، بعد أن قتل فيها أكثر من أربعين ألفاً، وكانت الغنائم كثيرة من الأسرى والمال[3].

تعد أنطاكية ثاني امارة صليبية يؤسسها الفرنج في المشرق العربي، بعد امارة الرها التي سقطت على يد عماد الدين زنكي. وكما كان سقوط الرها ضربة قاصمة أصابت الفرنج وهم في ذروة قوتهم، فقد كان سقوط إمارة أنطاكية ضربة قاسية وأشد أصابت الفرنج ليشعروا بالضعف قبل ثلاثٍ وعشرين سنة من اقصائهم عن المشرق العربي. لذلك سارع بعض الفرنج إلى عقد هدنة مع بيبرس يتنازل بموجبها عن نصف أو جزء من مداخيل البلاد، وكانت

---

1 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ 4، ص 3.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 545.

2 ـ ابن الفرات: معرفة تراجم الخلفاء والملوك، جـ 7، ص 35. القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 14، ص 42 ـ 51. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 150.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 14، ص 39 ـ 42.

أشهرها، الهدنة التي عقدها بيبرس مع إيزابيلا صاحبة بيروت في يوم الخميس 6 رمضان 667/ 9 أيار 1269. وبموجبها، اتخذت لنفسها حرساً من المماليك، وأصبحت كلما أرادت السفر إلى جزيرة قبرص، تذهب بنفسها إلى الظاهر بيبرس وتترك بيروت وديعة بين يديه ريثما تعود من سفرها. وهذا الأمر يشير إلى مدى المكانة التي وصل إليها بيبرس، وبخاصة في بيروت التي استمرت تحت حكم إيزابيلا لحين وفاتها سنة 680/ 1282.

عاد بيبرس إلى مصر، بعد أداء فريضة الحج ثم زيارة بيت المقدس، فدخل القاهرة في يوم السبت 13 صفر 668/ 12 تشرين الأول 1269. والحقيقة أن عودته ترتبط بقيام الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا.

(جـ) الحملة الصليبية الثامنة على تونس (668 ـ 669/ 1269 ـ 1270)

كان السلطان الظاهر بيبرس يتوقع قدوم حملة صليبية جديدة إلى مصر، ولم يكن ما قام به قبل توجهه إلى الشام، من رمي الصخور العظيمة في مصب نهر النيل عند دمياط، وتشييد برج للمراقبة في رشيد وتدعيم أسوار الإسكندرية[1]، إلا دليلاً واضحاً على ذلك، ولمنع السفن الصليبية من دخول مصر.

كان لويس التاسع ملك فرنسا يريد التوجه إلى مصر انتقاماً لهزيمته أثناء الحملة السابعة التي رافقت قيام دولة المماليك الأولى، هذه الدولة التي أخذت مع حكم بيبرس تكيل الضربات القوية للفرنج. لكن أخاه شارل دو أنجو ملك جزيرة صقلية أقنعه بوجوب توجه الحملة نحو تونس، نظراً لأهمية موقعها بالنسبة إلى صقلية.

بدأت الحملة الصليبية الثامنة حصار تونس في ذي القعدة 668/ حزيران 1270، وكان يحكمها الباي المستنصر بالله الحفصي. وتعرضت الحملة لوباء الحمى والدوزنطاريا، فهلك نصف العسكر بما فيهم الملك لويس التاسع وابنه تريستان الذي ولد بعد حصار دمياط ودخولها، وتوفي أثناء حصار تونس. وهكذا خلا الجو لشارل دو أنجو الذي استغل الحملة لصالحه وفاوض باي تونس حتى تقرر الصلح في ربيع الأول 669/ تشرين الأول 1270،

---

1 ـ ابن الفرات: معرفة تراجم الخلفاء والملوك، جـ 7، ص 84.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 1، ص 111.

على أن يخضع المستنصر بالله الحفصي لشارل ملك صقلية، ويدفع له جزية سنوية ومصاريف الحملة التي بلغت 220 ألف وزنة من الذهب، مقابل انسحاب الحملة من تونس.

(د) تحرير حصن الأكراد وحصن عكار (669/ 1271)

عاد بيبرس إلى بلاد الشام ليتابع انتصاراته على الفرنج بعد أن اطلع على نتائج الحملة الصليبية الثامنة على تونس، فاستولى بالأمان على حصن الأكراد في 24 شعبان 669/ 6 نيسان 1271 بعد حصار استمر خمسة عشر يوماً، ثم استولى على حصن عكار في يوم الأربعاء 17 رمضان 669/ 29 نيسان 1271[1].

كان بيبرس يلجأ عند الضرورة إلى توقيع المعاهدات، وعقد الهدنات مع الفرنج، وهذا لا يمنعه من خرقها عندما تدعو الحاجة، قبل انقضاء أجلها. وكانت مدة الهدنة، كما جرى التقليد عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات. لذلك عقد الهدنة مع بوهمند السادس أمير طرابلس[2] سنة 669/ 1271، ليجددها ابنه بوهمند السابع يوم الخميس 8 محرم 674/ 4 تموز 1275[3]. كما عقد الهدنة مع عكا يوم الجمعة 22 رمضان 670/ 22 نيسان 1272[4].

كان المسلمون العرب أوفياءً للقادة المسلمين غير العرب، أمثال صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، فأدخلوهما في أدبهم الشعبي، وتنافسوا في ما بينهم لإضفاء الهوية العربية عليهما، فتحولت سيرة كل منهما، إلى سيرة بطل شعبي، يرددها الراوي الشعبي للمناداة بوجوب الالتفاف حول الوحدة وتأكيدها تحت راية الدين لمواجهة عدو الأرض والدين.

---

1 ـ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 527 ـ 533. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 375 ـ 380. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 591.

2 ـ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 534، 537.

3 ـ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 445 ـ 447. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 619.

4 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 157.

توقف الصدام بين المماليك والفرنج حوالى أربع عشرة سنة، منها ثماني سنوات بعد وفاة الظاهر بيبرس، حتى عاد القتال فتجدد في عهد المنصور قلاون سنة 684/ 1285، ليتم إقصاء الفرنج نهائياً في عهد ابنه الأشرف خليل سنة 690/ 1291.

3 ـ المنصور قلاون وتحرير حصن المرقب (684/ 1285) وطرابلس (688/ 1289)

لم تسنح الظروف للظاهر بيبرس أو لأحد أبنائه ليشهد اقصاء الفرنج عن أرض المشرق العربي الإسلامي، فقد استطاع السلطان المنصور قلاون (678 ـ 689/ 1279 ـ 1290) أن ينقل السلطنة إلى بيته، فيتحقق اقصاء الفرنج بعد موته بسنة واحدة، وعلى يد ابنه الأشرف خليل سنة 690/ 1291.

حرّك قلاون جبهة القتال مع الفرنج التي استمرت هادئة حوالى أربع عشرة سنة منذ أن عقد بيبرس الهدنة معهم سنة 670/ 1271. وكان حصن المرقب قاعدة فرسان القديس يوحنا المعمدان، لا يقل أهمية عن قلعة صفد قاعدة فرسان الداوية التي استولى عليها بيبرس، وحاصر قلاون «المرقب» فطلب أهله الأمان، فتسلمه صلحاً في يوم الجمعة 19 ربيع الأول 684/ 25 أيار 1285[1].

وقع قلاون هدنة مع مرغريت أميرة صور في يوم الأربعاء 14 جمادي الأول 684/ 18 تموز 1285[2]، وهي هدنة مماثلة للتي وقعها بيبرس مع إيزابيلا أميرة بيروت. ومدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام، تعهدت الأميرة مرغريت بموجبها بعدم بناء تحصينات جديدة في إمارتها، كما تعهدت بالوقوف على الحياد في الصدام القائم بين قلاون والفرنج، وذلك مقابل عدم تعرض المماليك لإمارة صور.

انتهز قلاون فرصة اعتداء الفرنج على التجار المسلمين، وقطع الطريق على المسافرين. وتوجه بنفسه إلى طرابلس على رأس جيش يتألف من أربعين ألف فارس ومئة ألف من المشاة،

---

1 ـ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 78. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ 4، ص 21.

2 ـ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 103 ـ 110. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 2، ص 172 ـ 177.

تساندهم آلات الحصار. وحاصر المدينة في مستهل ربيع الأول 688/ 25 آذار 1289[1].
وبعد حصار استمر أربعة وثلاثين يوماً، استولى على طرابلس في 4 ربيع الثاني 688/ 27 نيسان 1289، وهرب الفرنج نحو الجزيرة المواجهة لطرابلس، وفيها كنيسة سان توماس، فاقتحم جيش قلاون هذه الجزيرة وقضى على الفرنج قتلاً وأسراً[2]. وقد عمد قلاون إلى هدم المدينة، بعد أن استمرت حوالى 185 سنة بيد الفرنج، ثم أمر ببناء مدينة جديدة على أن تكون بعيدة عن الشاطىء وفي منأى عن تهديد الأساطيل الصليبية[3]. وبعد سقوط طرابلس، تمكن المماليك من فتح أنفه والبترون دون أي مقاومة.

توفى قلاون في يوم الجمعة 6 ذي القعدة 689/ 10 تشرين الثاني 1290، وهو يستعد لحصار عكا.

4 ـ الأشرف خليل بن قلاون وتحرير عكا وبيروت وصور وصيدا (690/ 1291)

تولى صلاح الدين خليل السلطنة بعد وفاة أبيه المنصور قلاون، وتلقب بـ «الأشرف» في يوم السبت 7 ذي القعدة 689/ 11 تشرين الثاني 1290. وتابع العمل الذي بدأه أبوه في الاستعداد لدخول عكا، تمهيداً لاقصاء الفرنج عن المشرق العربي الإسلامي.

أعدّ الأشرف خليل حملة كبيرة من عشرين ألفاً تدعمها آلات الحصار، حيث استخدم اثنين وتسعين منجنيقاً من بينها منجنيق عظيم يسير على مائة عجلة سمي «المنصوري». وكان قد تجمع في عكا ما بين ثلاثين إلى أربعين ألفاً من الفرنج، بدأ الأشرف خليل الحصار في يوم الخميس 3 ربيع الثاني 690/ 5 نيسان 1291[4] ليستمر شهراً ونصف الشهر. ثم دخل إلى عكا يوم الجمعة في 17 جمادي الأولى 690/ 18 أيار 1291، بعد قتل وأسر الكثير من الفرنج، ثم أمر بهدم عكا[5].

---

1 ـ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ 8، ص 268.

2 ـ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ 4، ص 23. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 747. صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 70، 71.

3 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 748.

4 ـ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ 8، ص 308 ـ 310. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 763، 764 ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 8، ص 6 ـ 8.

5 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ 4، ص 24، 25.

ومن المصادفات أيضاً أن يستعيد الأشرف خليل مدينة عكا بعد قرن كامل، وفي نفس اليوم والشهر على سقوطها بيد الفرنج الذين استولوا عليها من صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة 17 جمادي الثانية 587/ 12 تموز 1191.

كانت معركة عكا، آخر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية التي عرفها المشرق العربي الإسلامي طيلة قرنين من الزمان.

دب الخوف والرعب في قلوب الفرنج، بعد تحرير عكا. وفي خلال سبعة وأربعين يوماً، تسلّم الأشرف خليل ونائبه في الشام الأمير سنجر الشجاعي جميع المدن الساحلية المتبقية بيد الفرنج، مثل: جبيل، صور، وصيدا. ثم دخل الأمير سنجر إلى بيروت دون مقاومة في يوم السبت 22 رجب 690/ 21 تموز 1291[1]. ثم جمع سكانها من الفرنج والنصارى وأغلبهم من طائفة الموارنة، وأرسلهم إلى دمشق ومنها إلى مصر. وفي مصر قام الأشرف خليل باطلاق سراحهم وخيّرهم بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى جزيرة قبرص، فتوجهوا جميعاً إلى قبرص.

ثم أخلى الفرنج حيفا وعتليت والصرفند، وقد أمر الأشرف خليل بهدم أسوار وتحصينات هذه المدن جميعاً، حتى لا يعاود الفرنج الاستيلاء عليها والتحصن فيها من جديد بعد أن فروا إلى جزيرة قبرص[2].

ومن سخرية التاريخ المملوكي، أن ينتهي الأشرف خليل بن قلاون قتلاً على يد أمرائه سنة 692/ 1293، وهو الذي أنجز المهمة التي بدأها صلاح الدين الأيوبي باسترداد القدس قبل قرن ونيف، والتي تابعها المماليك، بقيادة بيبرس ثم قلاون، والقاضية باقصاء الفرنج نهائياً عن أرض المشرق العربي الإسلامي.

---

1 ـ أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر، جـ 4، ص 25. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 769. صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 24، 25.

2 ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 24.

الفصل السادس

الصدام بين المماليك والمغول

(658 ـ 703 /1260 ـ 1303)

و (795 ـ 808/ 1393 ـ 1405)

تعرض المشرق العربي الإسلامي لخطرين خارجيين عملاً منفردين ومعاً على تقويض دعائم الحضارة العربية الإسلامية دون جدوى، وهما: الفرنج والمغول. وقد تصدى لهذين الخطرين القادة المسلمون غير العرب، فتولى الأتابكة الأتراك ثم الأيوبيون الأكراد مواجهة خطر الفرنج. وعندما ظهر الخطر المغولي بزعامة جنكيز خان وخلفائه في الفترة (603 ـ 648/ 1206 ـ 1250)، عجز الأيوبيون وهم في مرحلة الضعف عن مواجهته، فتولى المهمة المماليك الأتراك الذين أقاموا دولتهم في مصر سنة 648/ 1250، ليواجهوا الخطرين معاً، فحطموا أسطورة جيش المغول «قوة لا تقهر»، وأجبروا الفرنج على الجلاء التام.

1 ـ جنكيزخان مؤسس امبراطورية المغول

عندما ظهر المغول في مطلع القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، عرفوا باسم التتار. والحقيقة أن قبائل التتار ظهروا في التاريخ منذ القرن السادس للميلاد. أما المغول فهم قبائل مستقلة عن التتار، كانوا يعيشون بجوارهم في الشطر الشرقي من آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين على أنهار أولذا وكيرولين وأرخون وأونون. وحيث أن شهرة التتار سبقت شهرة المغول بأكثر من ستة قرون، فقد كان لهم من السلطان والقوة ما جعل المغول يحملون اسمهم لدى ظهورهم. مع الإشارة إلى أن لفظة «مغول» مشتقة من

كلمة Mong الصينية وتعني باسل شجاع.

نشبت المعارك بين المغول والتتار حيث اشترك فيها يسوكاي ليصرع أحد زعماء التتار واسمه تيموجين في سنة 549/ 1155، ولتخليد هذا الانتصار أطلق يسوكاي على ابنه عند ولادته اسم «تيموجين»[1]، وهو الذي عرف فيها بعد باسم جنكيزخان.

تمكن تيموجين من توحيد قبائل المغول والسيطرة على منغوليا سنة 601/1204، ليجمع مجلس الشورى (قوريلتاي) سنة 603/ 1206، حيث هتف به الجميع: جنكيزخان، أي امبراطور العالم[2]، ولعل كلمة «جنكيز» تحريف لكلمة Tien – tze الصينية ومعناها ابن السماء أو المحارب الكامل، أو لكلمة Cingiz المغولية ومعناها القوي والباسل[2].

أصدر جنكيزخان عقب انتخابه خاناً أعظم للمغول سنة 603/ 1206، قانون الياسا (ياسانامه بزرك)، وهي لفظة مغولية معناها الحكم أو السياسة أو القانون. وعلى أساس قانون الياسا[3] استطاع جنكيز خان توحيد القبائل التركية والمغولية ليقيم امبراطوريته في الفترة (603ـ625/ 1206ـ1227).

لم يغفل قانون الياسا، الحديث عن تنظيم حلقات الصيد، في الأوقات التي يفرغ فيها المغول من القتال، لما لها من أهمية في التدريب على أساليب الحرب[4]. ففي هذه الحلقات تجتمع أنواع شتى من الحيوانات يقف أمامها المغول صفوفاً منتظمة وكأنهم في ميادين القتال، وقد تمتد هذه الحلقات من شهر إلى ثلاثة أشهر تحت اشراف كبار قادة المغول، وهذا الأمر يؤدي إلى الاستعداد الدائم للغزو.

لا يجرؤ أحد حتى الخان الأعظم نفسه على مخالفة أحكام الياسا، ومن يفعل ذلك فخلعه واجب، ليتولى العرش غيره من أبناء جنكيزخان[5].

---

1 ـ Grousset: L'Empire des Stepps, p 249.

2 ـ الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ 1، ص 27، 28.

3 ـ المقريزي: الخطط، جـ 3، ص 357، 358.

4 ـ الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ 1، ص 19 ـ 21.

5 ـ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص 373.

ظل قانون الياسا حتى القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، مرجعاً لوجهة نظر الغزاة البدو وسيطرتهم على الشعوب المتمدنة، من أجل السيطرة على مواردهم وثرواتهم مقابل الحماية والدفاع عنهم. وهذا كله من أجل مصلحة جنكيزخان والأسرة الحاكمة، مما كفل له وحدة الامبراطورية ومقرها منغوليا لمدة أربعين سنة بعد وفاته، وتحقيق السيادة لأبنائه وأحفاده أجيالاً جديدة بعد اقتسامهم الامبراطورية.

امتدت امبراطورية المغول خارج منغوليا، نحو داخل سور الصين العظيم سنة 608/ 1211، لتسقط بكين سنة 612/ 1215، وتعترف كوريا بالتبعية سنة 1219/ 616. ثم قضى المغول على السلطنة الخوارزمية في آسيا الوسطى وتشمل أيضاً خراسان ومعظم أفغانستان ثم فارس. وقد استولى المغول على بخارى في ذي الحجة 616/ شباط 1220. ثم غزوا سمرقند ونكلوا بأهلها في محرم 616/ آذار 1220، وسقطت جرجان عاصمة خوارزم، ومرو عاصمة خراسان، كما سقطت نيسابور في صفر 618/ نيسان 1221، وكذلك مراغه وأردبيل وتبريز سنة 619/ 1222.

وبوفاة جنكيزخان سنة 624/ 1227، تمكن خليفته أوكتاي من غزو روسيا واحراق مدينة موسكو، كما غزا أوكرانيا ودمر عاصمتها كييف سنة 638/ 1240. وزحف نحو بولندا وألمانيا، ودخل بست عاصمة المجر، ثم تقدم نحو ڤيينا في النمسا. وأوشك الغرب الأوروبي على السقوط أمام المغول لولا وفاة أوكتاي سنة 639/ 1241، وتولي زوجته المسيحية توراكته خاتون مهام الحكم في فترة انتقالية استمرت حوالى أربع سنوات (639 ـ 643/ 1241 ـ 1245)، تمهيداً لتولي ابنها كيوك عرش المغول (643 ـ 647/ 1245 ـ 1249).

انتقل عرش المغول من أسرة أوكتاي وكيوك إلى أسرة تولوي، ليتولاه ثلاثة من أبنائه هم مونكو (648 ـ 655/ 1250 ـ 1257)، أريق بوكا (655 ـ 662/ 1257 ـ 1263)، وقوبيلاي (662 ـ 693/ 1263 ـ 1294). وفي عهد هؤلاء الثلاثة عرف المشرق العربي الإسلامي أحداثاً خطيرة لم يشهد مثيلاً لها من قبل، فقد عين مونكو أخاه الأصغر هولاكو نائباً عنه في حكم فارس، ووضع له خطة مثلثة تهدف للقضاء على الإسماعيلية في فارس، والخلافة العباسية في بغداد، واخضاع دولة المماليك في مصر والشام.

بعد انهيار السلطنة الخوارزمية، تحول حكام إيران إلى اتباع للمغول. وأدرك هولاكو، ضرورة القضاء على طائفة الإسماعيلية قضاء مبرماً، وتأمين الظهير الخلفي للجيش، قبل

التوجه نحو بغداد والسيطرة على المشرق العربي الإسلامي. وكانت طائفة الإسماعيلية موزعة على حوالى خمسين قلعة حصينة في جبال قومس وقهستان وخراسان وروذبار الموت التي لا تبعد كثيراً عن بحر قزوين، واتخذت قلعة الموت عاصمة لها.

وفي يوم السبت غرّة ذي الحجة 653/ أول كانون الثاني 1256، عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون، وبدأت الحرب المغولية ضد قلاع الإسماعيلية التي أخذت تسقط الواحدة بعد الأخرى، في حين امتنعت قلعتا آلموت وميمون دز، فطال حصار المغول لهاتين القلعتين. لكن ركن الدين خورشاه، ما لبث أن نزل من قلعة ميمون دز التي كان يقيم فيها، واستسلم لهولاكو في يوم الاثنين غرة ذي القعدة 654/ 20 تشرين الثاني 1256، في حين استمرت قلعة آلموت في المقاومة حتى سقطت بدورها في محرم 655/ كانون الثاني 1257[2]، وتعرضت للتخريب والتدمير، وقتل الآلاف من الاسماعيلية، ومعهم آخر زعمائهم ركن الدين خورشاه رغم عهد الأمان الذي أعطاه إياه هولاكو، وبذلك تم القضاء على الاسماعيلية في فارس.

2 ـ هولاكو وسقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية (الأربعاء 7 صفر 656/ 13 شباط 1258)

تابع هولاكو زحفه لدخول بغداد، تحقيقاً لهدفه الثاني الرامي إلى القضاء على الخلافة العباسية التي كان يتولاها المستعصم بالله (640 ـ 656/ 1242 ـ 1258). وفي هذه الأثناء ظهر بوضوح مدى العجز والضعف الذي آلت إليه هذه الخلافة التي لا يتجاوز نفوذها الفعلي اقليم العراق وخوزستان إن لم يكن العاصمة بغداد وحدها. كما ظهرت نتيجة عدم اعتماد العباسيين على العنصر العربي في بناء القوة العسكرية الكفيلة بحماية الخلافة.

كان المستعصم بالله ضعيفاً، قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، رغم تدينه وتمسكه بمذهب أهل السنة والجماعة[1]. وكان يعتقد أن مصير المغول هو الزوال على غرار السلاجقة والبويهيين قبلهم، وأن الخلافة العباسية مستمرة إلى يوم القيامة[2]، بينما كان يتوجب عليه الخروج للقاء المغول عند تخوم خراسان، قبل أن يغزوه في عقر داره.

---

1 ـ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ 1، ص 496.

2 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو)، م 2 جـ 1، ص 275.

لم يكتف هولاكو بحشد جيش كبير يتألف من مائتي ألف واتخاذ معسكره في ظاهر بغداد لجهة الشرق، بل تمكن من استمالة بعض الأمراء الأيوبيين وفي مقدمهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. كما أفاد من الانقسام المذهبي داخل بغداد، وبخاصة داخل مقر الخلافة، حيث اشتد الصراع بين الدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك «السنّي» يؤيده سليمان شاه بن برجم الأبوائي الذي ارتأى مواجهة المغول وقتالهم، وبين الوزير مؤيد الدين بن العلقمي «الشيعي» الذي اتصل سراً بالمغول وكان يحث على الاستسلام[1] وفتح أبواب بغداد، على غرار ما حدث مع البويهيين والسلاجقة.

كانت المواجهة بين المغول والعباسيين غير متكافئة، لذلك حلت الهزيمة بجيش بغداد، ولقي اثنا عشر ألفاً مصرعهم في ساحة القتال، بينما لاذ الباقون بالفرار. وفي يوم الثلاثاء 22 محرم 656/ 30 كانون الثاني 1258 أحكم هولاكو الحصار حول بغداد، مطالباً بخروج مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه مع أتباعهما بحجة نفيهما إلى مصر والشام، فاضطر الاثنان للإذعان لأمر الخليفة الذي وجد نفسه مضطراً لتنفيذ طلب هولاكو. ولما خرجا سار وراءهما سبعمائة شخص من الأقارب والأتباع، وقد تم قتلهم جميعاً في يوم الجمعة 2 صفر 656/ 8 شباط 1258، وأرسلت رؤوس سليمان شاه والدوادر الصغير وتاج الدين بن الدوادار الكبير إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليعلقها على أسوار مدينته[2]. وتمكن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، من إقناع الخليفة العباسي بالخروج من بغداد للقاء هولاكو الذي وعد بالأمان.

وفي يوم الأحد 4 صفر 656/ 10 شباط 1258، خرج الخليفة المستعصم بالله من بغداد ومعه ألف ومائتي شخص من العلماء والوجهاء، فلما وصلوا إلى معسكر هولاكو، ألقى القبض عليهم، ثم قتلوا عن آخرهم[3]، باستثناء الخليفة. وقيل إن الخليفة خرج من بغداد ومعه أبناؤه الثلاثة، فلاطفه هولاكو[4] وطلب إليه أن ينادي أهل بغداد بإلقاء السلاح والخروج

---

1 ـ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 255.

الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ 2، ص 461.

2 ـ رشيد الدين (تاريخ المغول ـ هولاكو)، م 2، جـ 1، ص 290.

3 ـ الجوزجاني: طبقات ناصري، ص 427، 428.

4 ـ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جـ 2، ص 196.

السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 471.

لإحصائهم، وكان القتل من نصيب الذين خرجوا، بينما استبقى الخليفة وأولاده.

وفي يوم الأربعاء 7 صفر 656/ 13 شباط 1258، اقتحم المغول مدينة بغداد من الشرق والغرب، فاستبيحت أربعين يوماً، حيث خربت المساجد للحصول على قبابها الذهبية، ومعها مشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة، كما هدمت القصور. وارتكبت المذابح الجماعية حتى بلغ عدد الضحايا ثمانين ألفا[1]، ولم ينج إلا من اختفى في بئر أو قناة أو مقبرة، ومع ذلك تعرض هؤلاء للوباء الشديد بعد خروجهم، فمات معظمهم[2].

مما لا شك فيه أن الخليفة المستعصم لقي مصرعه يوم الأربعاء 14 صفر 656/ 20 شباط 1258[3]، بعد أنْ دلّ هولاكو على ما اجتمع من كنوز العباسيين طيلة أكثر من خمسة قرون[4] (132 ـ 656/ 750 ـ 1258)، وقد تكدست في شكل تلال حول خيمة الخان ومعظمها من سبائك الذهب، وكل منها تزن مئة مثقال، فضلاً عن الجواهر والمعادن الثمينة.

أما الوزير ابن العلقمي نفسه فلم يلق من المغول سوى الإزدراء والذل والهوان على جري عادتهم في معاملتهم للخونة. ورغم اختياره لحكم بغداد تحت اشراف المغول[5]، إلا أن ابن العلقمي شعر بالندم الشديد، فمات مريضاً في جمادي الأول 656/ 1258 وهي السنة التي سقطت فيها بغداد[6].

وبسقوط بغداد، تأسست إيلخانية فارس ليحكمها هولاكو وأبناؤه من بعده، وقد اختار مدينة مراغة في أذربيجان عاصمة له، وأصبحت بغداد تابعة لهذه الإيلخانية التي أسهمت في فصل منطقة شرق دجلة التي اتسعت فيها معالم الحضارة الفارسية، عن منطقة غرب دجلة حيث استمرت البقية الباقية من الثقافة العربية. وتمسك الفرس بلغتهم، بينما اقتصرت اللغة العربية على البحوث الدينية والفلسفية، حتى ندرت الكتب العربية الموضوعة في إيران في نهاية

---

1 ـ الذهبي: دول الإسلام، جـ 2، ص 123.

2 ـ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص 203.

3 ـ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 270 ـ 272. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر. جـ 3، ص 193 ـ 194. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 49، 50.

4 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو)، م 2، جـ 1، ص 292.

5 ـ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 3، ص 522.

6 ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 472، 473.

القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. فتكرست بذلك الفرقة بين اللغتين الفارسية والعربية، وحافظت إيران على قوميتها تحت راية الإسلام دون أن تذوب في العروبة لغة القرآن الكريم.

تعرضت الثقافة العربية لخسارة فادحة مع سقوط بغداد، وإحراق ألوف الكتب والمحفوظات أو إغراقها في نهر دجلة، إضافة إلى قتل العلماء والأدباء والصناع، حيث هاجر من نجا منهم إلى القاهرة التي تحولت إلى مركز جديد للعروبة والإسلام، تمكنت تحت قيادة المماليك من قهر المغول وإنقاذ المشرق العربي الإسلامي.

3 ـ سقوط حلب ودمشق أمام تحالف المغول ـ الفرنج ـ الأرمن (657 ـ 658/ 1259 ـ 1260)

أدرك المغول أن من يسيطر على بلاد الشام ومصر معاً، دان له المشرق العربي بأسره، وانفتحت أمامه أبواب المغرب العربي، فالأندلس التي تمثل بوابة غرب أوروبا.

وكانت بلاد الشام منقسمة بين الأمراء الأيوبيين في الداخل، والفرنج في الساحل حيث حكم بوهمند السادس امارة انطاكية ـ طرابلس في الشمال وكان حليفاً وصهراً لهيثوم الأول ملك قيليقية (أرمينية الصغرى) الذي تحالف مع هولاكو، لذلك اتخذ غزو بلاد الشام صفة التحالف بين المغول والفرنج والأرمن.

واجه الملك الكامل محمد الأيوبي صاحب ميافارقين، المغول والأرمن، ببطولة وشجاعة طيلة خمسة أشهر من الحصار، استولوا خلالها على نصيبين وحران والرها وسروج[1] واستباحوا منبج، قبل أن يضطر الملك الكامل للاستلام[2]، فقتله المغول وقطعوا رأسه.

ثم تقدم هولاكو نحو حلب المعروفة بمناعتها وصمودها أمام البيزنطيين والفرنج، فهرب الناصر يوسف، نحو دمشق تاركاً والي حلب الملك المعظم توران شاه يتولى وحده أمر

---

1 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 199.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 47.

2 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 193، 194.

الدفاع عن المدينة. وكان المؤرخ ابن العبري وهو رئيس أساقفة حلب، قد سارع إلى المغول وقدم طاعته لهولاكو.

شارك المغول والأرمن والفرنج في حصار حلب، ونصبوا حولها عشرين منجنيقاً، إلى أن اضطرت للاستسلام مع قلعتها في صفر 658/ 25 كانون الثاني 1260. واستبيحت حلب سبعة أيام تعرضت خلالها للمذابح التي لم توفر جماعة من الأرثوذكس، فاحترقت الكنيسة اليعقوبية بينما نجا بقية المسيحيين[1]. وعمد هيثوم الأول ملك قيليقية إلى احراق الجامع الكبير.

بعد سقوط حماة والمعرة وحمص، تقدم المغول نحو دمشق، فانسحب الناصر يوسف منها على غرار ما فعله في حلب، وتوجه نحو غزة، تاركاً أمر الدفاع عن دمشق لوزيره نور الدين الحافظي الذي عرف ما حل بمدينة حلب، فسلم المدينة في يوم الاثنين 16 ربيع الأول 658/ أول آذار 1260[2]، ودخلها المغول دون إراقة الدماء.

كان المؤرخ المعروف بأبي شامة، موجوداً في دمشق أثناء غزو المغول والفرنج والأرمن، وقد وصف هذا الغزو[3]، عندما دخل القائد المغولي كتبغا إلى دمشق، وبصحبته بوهمند السادس أمير أنطاكية، وهيثوم الأول ملك قيليقية. فشهد سكان دمشق لأول مرة، منذ الانتشار العربي الإسلامي قبل ستة قرون، ثلاثة أمراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع المدينة.

ثم استولى المغول على بعلبك وبانياس، وتابعوا زحفهم جنوباً حتى غزة، فاستسلمت حامية عجلون، وخربوا حوران ونابلس، وبذلك دانت لهم مدن بلاد الشام التي امتنعت عن الفرنج أكثر من قرن ونصف القرن. وحتى مدينة صيدا، التي كانت تحت سيطرة الفرنج، لم تسلم من الدمار والتخريب وأسروا منها ثلاثمائة أسير. غير أن قوات المغول لم تصل إلى بيت المقدس بل اكتفت بالاحاطة بالفرنج من جميع الجهات.

تمكن المغول من القضاء على سيطرة الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام، ولم يبق من

---

1 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ 3، ص 200، 201. رنسيهان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 3، ص 524. Grousset: L'Empire des Stepps p 436.

2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 394. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 419، 420. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 74.

3 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 204.

الوجود الأيوبي سوى الأشرف موسى الذي تآمر مع المغول، فكافأه هولاكو برد إمارة حمص التي أخذها منه الناصر يوسف[1] الذي فر من حلب ثم دمشق إلى أن وقع في قبضة المغول[2]، فوجد هولاكو في هذا الأمير الأيوبي الضعيف والجبان ضالته المنشودة، فلم يقتله، بل وعده باحياء الدولة الأيوبية بعد أن يسيطر على مصر[3]، شرط الاعتراف بسيادة المغول.

4 ـ أسطورة جيش المغول قوة لا تقهر

تحول جيش المغول إلى أسطورة القوة التي لا تقهر، منذ سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية يوم الأربعاء 7 صفر 656/ 13 شباط 1258، وسقوط حلب في صفر 658/ 25 كانون الثاني 1260، ودمشق يوم الاثنين 16 ربيع الأول 658/ أول آذار 1260، ثم سائر مدن بلاد الشام.

ولم يتحول المغول إلى هذه الأسطورة، لولا سياسة العنف والرعب التي جعلها مؤسس دولتهم جنكيزخان من خصائص نظام الحكم، فاقام من المذابح الجماعية نظاماً ثابتاً مشروعاً ضمن سياسته الحربية. فأنزل المغول عقوبة الموت بالأعداء سواء أظهروا المقاومة أو الاذعان والاستسلام، ولم يحترموا وعودهم بالأمان، بل حققوا النصر بالغدر والخداع، وجمع رؤوس القتلى في أهرامات، بعد تخريب المدن والضياع واحراقها، واستباحة السكان من الشيوخ والنساء والأطفال. ويكفي أن بغداد وحدها استبيحت أربعين يوماً وأحرقت بعد قتل نحو ثمانين ألفاً من سكانها في مذبحة جماعية.

عندما أمر هولاكو بقتل المستعصم بالله، وهو آخر خليفة عباسي في بغداد. جرت عملية القتل دون إراقة دمه جرياً على عادة المغول في قتل الأمراء والملوك والقادة العظام. لذلك وضع المستعصم في غرارة ثم رفس بأرجل الخيل إلى أن مات[4] في يوم الأربعاء 14 صفر 656/ 20 شباط 1258.

---

1 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 208.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ 1، ص 423، 425.

2 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 205. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 2، ص 966.

3 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو)، م 2، جـ 1، ص 308.

4 ـ الجوزجاني: طبقات ناصري، ص 430. ابن القوطي: الحوادث الجامعة، ص 327.
وصاف الحضرة: تاريخ وصاف، ص 40.

بلغ من تعذيب المغول للكامل محمد الأيوبي صاحب ميافارقين التي سقطت في أيديهم سنة 658/ 1260، أنهم اقتطعوا أجزاء من جسمه وأرغموه على تناولها حتى لقي حتفه. ثم رفع المغول رأس الكامل محمد الأيوبي على رمح طافوا به كل أرجاء بلاد الشام من حلب حتى دمشق، وكان يتقدم الموكب المغنون والطبّالون، حتى علق الرأس في شبكة بسور باب الفراديس بدمشق[1]. وبعد استيلاء المغول على الموصل سنة 660/ 1261، وضعوا الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ، في دهن ولباد، وألقوه في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان، فشرعت هذه الديدان تأكل جسده حتى مات بعد شهر. كما شقوا ابنه نصفين على ساحل نهر دجلة، وكان طفلاً في الثالثة[2].

حقق المغول مطامعهم، بسياسة العنف والرعب، حتى أضحت كلمة «تتار» أو «تتري»، وهي الكلمة التي استخدمها المؤرخون المسلمون للدلالة على المغول، تشير حتى يومنا هذا إلى العنف والرعب والهمجية والقسوة. وبهذه السياسة، أذعن بعض الأمراء الأيوبيين غير العرب، وتقربوا من المغول فدخل في طاعة هولاكو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق وحلب، الذي أعلن الولاء للمغول، طالباً مساعدتهم في إحياء السلطنة الأيوبية في مصر والشام وذلك بعد القضاء على المماليك في مصر. وعندما فشلت خطته أخذ يفر أمام المغول من حلب إلى دمشق ثم غزة، حتى وقع في قبضتهم، فعفا عنه هولاكو لحاجته إلى مثل هؤلاء الأمراء الضعاف في دعم حكم المغول، ولم يكتف بذلك بل وعده بتحقيق حلمه الرامي إلى إحياء السلطنة الأيوبية ولكن تحت سيطرة المغول[3]. ومن هؤلاء الأمراء أيضاً، الأشرف موسى الأيوبي، سليل أسد الدين شيركوه، وكان يحكم تل باشر قرب الرها، وبعد سقوط حلب كافأه هولاكو بإعادة ملك حمص التي انتزعها منه الناصر يوسف سنة 646/ 1248[4].

وبسقوط بغداد، أظهر السلطان السلجوقي عز الدين كيكاوس الثاني، الخضوع

---

1 ـ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جـ 2، ص 205، 206.

2 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول، هولاكو)، م 2، جـ 1، ص 388.

3 ـ المصدر نفسه، م 2، جـ 1، ص 308.

4 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 423، 425، 433.

والذلة، فرسم صورته على نعل زوج من الأحذية وقدمها لهولاكو قائلاً: «عبدك يأمل أن يتفضل الخان فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها»[1]. وأثناء حصار حلب سارع رئيس أساقفتها المؤرخ ابن العبري وقدم طاعته لهولاكو.

وهذا يعني أن الخلاف بين قادة المشرق العربي الإسلامي حول السيطرة والحكم، دفع بعضهم للتعاون مع المغول.

وبالمقابل ابدى بعض الأمراء الأيوبيين الآخرين، ضروباً من البطولة والشجاعة أثناء الصدام مع المغول. فأبدى الملك الصالح الأيوبي صاحب الموصل بطولة وشجاعة نادرة، عكس أبيه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الذي هادن المغول. فقد تحالف الصالح الأيوبي مع سلطان المماليك الظاهر بيبرس للوقوف في وجه المغول الذين تحركوا بقيادة «سنداغو»، وأنزل الهزيمة بهم، ثم بادر كل من بيبرس وهولاكو لإرسال قوة عسكرية لنجدة أتباعه. وشاءت الظروف أن يطلع المغول على سير القوة المملوكية، فنصبوا كميناً وقضوا عليها، ثم تزيوا بزي أفرادها وتوجهوا نحو الموصل، وانطلت الحيلة على أهل الموصل فخرجوا لاستقبالهم، لكن المغول قضوا عليهم. ورغم ذلك قاومت قلعة الموصل ستة أشهر، حتى اضطر الملك الصالح للاستسلام سنة 660/ 1261، فعمد المغول إلى قتله بأبشع صورة.

كما أبدى الملك الكامل محمد الأيوبي، صاحب ميافارقين، ضروربا من البطولة والشجاعة في مواجهة حملة المغول بقيادة هولاكو نحو بلاد الشام، بعد سقوط بغداد، حينما خاطب أهل ميافارقين، قائلاً: إنني لن أمنع الفضة والذهب والغلات التي توجد في المخازن، بل سأوثر بها المحتاجين، فلست بحمد الله مثل المستعصم بالله عبداً للدينار والدرهم، فإنه قد أسلم رأسه وملك بغداد إلى الهلاك، بسبب بخله وشحه»[2]. وبذلك، ظهر التلاحم بين الكامل الأيوبي وأهل ميافارقين، ما أدى إلى اطالة حصار ميافارقين مدة خمسة أشهر، ولم يستسلم الكامل محمد[3] إلا بعد انتشار الوباء ونفاد المؤونة وهلاك معظم السكان، فقتله المغول.

أوشك المغول أن يسيطروا تماماً على المشرق العربي الإسلامي، حينما وجد هولاكو،

---

1 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول وهولاكو)، م 2، جـ 1 ص 301.

2 ـ المصدر نفسه، م 2، جـ 1 ص 319، 320.

3 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ 3 ص 193، 194.

بتأثير من زوجته طقز خاتون المسيحية، في التعاون مع المسيحيين خير طريق للقضاء على الإسلام، رغم اعتناقه هو نفسه البوذية. وهذا ما يدل على بعد نظر في السياسة العسكرية بعد أن أدرك هو وقائده كتبغا المسيحي أهمية قيام تحالف بين المغول والأرمن والفرنج سنة 658/ 1260.

وشاءت الظروف التاريخية أن يواجه المماليك وحدهم هذا التحالف الثلاثي، فاتبعوا سياسة المغول أنفسهم في الاعتماد على العنف والرعب حتى تمكنوا من إنزال الضربة الأولى والموجعة التي زعزعت أسطورة «جيش المغول قوة لا تقهر» في عين جالوت سنة 658/ 1260[1]، وتابعوا انتصاراتهم المتواصلة حتى انكفأ المغول سنة 703/ 1303.

5 ـ هزيمة المغول بقيادة كتبغا أمام المماليك بقيادة قطز في عين جالوت (25 رمضان 658/ 3 أيلول 1260)

لم يبق أمام المغول، سوى الاستيلاء على مصر، التي تعتبر آخر معقل للإسلام في المشرق العربي الإسلامي، وبسقوطها تكتمل لهم السيطرة على هذا المشرق.

كان هولاكو يتأهب للزحف نحو مصر بحوالى أربعين ألفاً من العساكر للقضاء على دولة المماليك الناشئة[2]، لكن الصراع بين الأخوين أريق بوكا وقوبيلاي حول عرش المغول بعد وفاة أخيهما مونكو سنة 655/ 1257، جعلت هولاكو مضطراً للعودة إلى تبريز ومعه معظم القوة العسكرية المغولية. وعين قائده كتبغا نائباً عنه في الشام، ومعه قوة لا تزيد عن عشرة آلاف مقاتل[3] لإتمام الخطة الرامية إلى القضاء على دولة المماليك الناشئة في مصر.

كان السلطان قطز، يتولى حكم دولة المماليك، وهو من الخوارزمية الناقمين على المغول، فقيل إن اسمه الأصلي هو محمود بن مودود وأنه ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه،

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 425.

2 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 208.

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 323، 425، 432.

3 ـ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 200.

Lamb: The Crusades The Flam of Islam, p 340.

وقد بيع مع الرقيق في دمشق، فاشتراه السلطان المعز أيبك، لينتقل معه إلى القاهرة، ثم قام قطز بعزل سيده وتولى الحكم ليواجه المغول.

وقبل رحيله إلى تبريز، بعث هولاكو إلى السلطان قطز، بسفارة مغولية في صفر 658/ كانون الثاني 1260، تحمل رسالة فيها الوعيد والتهديد واعتداد المغول بقوّتهم أمام السلطان المملوكي[1].

اجتمع السلطان قطز بأمراء المماليك وجميعهم من الترك، للتشاور في الأمر. وحسم الموقف بعزمه على الجهاد، وتعبيراً عن هذا الموقف الشجاع أمر بقتل رسل الوفد المغولي، وعلّق رؤوسهم على باب زويلة[2]، ونودي في القاهرة وسائر مصر بالخروج إلى الجهاد.

خرج قطز بالجيش المصري ومن انضم إليه من القوات الخوارزمية وعساكر الكرك الأيوبيين[3] في رمضان 658/ آب 1260، وكان الأمير بيبرس البندقداري على رأس فرقة في المقدمة لاستطلاع أخبار المغول، وليخفي عنهم تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز، وقد تمكن من القضاء على الحامية المغولية بقيادة «بايدر» في غزة، وبذلك انفتح الطريق الساحلي أمام قطز الذي كانت خطته تقضي بمواجهة المغول، داخل فلسطين، وكان عليه أن يسير بمحاذاة الساحل نحو عكا، قبل التوجه نحو الداخل. لذلك عسكر بجيشه خارج عكا عدة أيام، بعد أن اتصل بالفرنج في عكا، والذين كانوا في حالة من الضعف لا تسمح لهم بالوقوف إلى جانب المغول أو المماليك. لكن حقدهم على المغول وعدم ثقتهم بهم، أدى إلى فرط التحالف المغولي ـ الصليبي. ذلك إن كتبغا، رغم ميله للمسيحية، اقدم على تدمير مدينة صيدا التابعة للفرنج، رداً على إقدام جوليان صاحب صيدا والشقيف بالاغارة على سهل البقاع وقتل ابن أخ كتبغا. وبذلك تحولت صيدا إلى كومة من تراب، وأسر المغول منها ثلاثمائة أسير. وقد أدت أعمال المغول هذه، إلى قبول بارونات عكا بالاتفاق مع قطز، مما يعني وقوف الفرنج على الحياد في الصراع بين المماليك

---

1 ـ نص كتاب المغول:

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ 1، ص 427 ـ 429.

2 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو)، م 2، جـ 1، ص 313.

3 ـ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 3، ص 533، 534.

والمغول، وسمحوا للجيش المصري باجتياز الأراضي الخاضعة لنفوذهم[1].

أسهم رحيل هولاكو إلى على رأس معظم الجيش المغولي الذي كان يرابط في الشام[2]، في تحقيق التفوق العددي لجيش قطز. وعبر كتبغا نهر الأردن، بجيش المغول الذي لا يزيد عدده عن عشرة آلاف، وتقدم إلى الجليل الشرقي. وعلى الفوز تحرك قطز من جهات عكا، واجتاز الناصرة حتى التقى بالأمير بيبرس في عين جالوت (قرية بين بيسان ونابلس) في يوم الخميس 24 رمضان 658/ 2 أيلول 1260.

عندما اقترب المغول من عين جالوت، كان قطز قد أخفى الجانب الأكبر من الجيش المصري في التلال المجاورة، ولم يظهر إلا مقدمته بقيادة بيبرس الذي أخذ يناوش المغول حتى اكتمل تطويق الجيش المغولي، عندها صرخ السلطان قطز: «وإسلاماه»، وبدأت المعركة التي أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول، وتعرض جيشهم للدمار التام يوم الجمعة في 25 رمضان 658/ 3 أيلول 1260.

وبذلك هزم المغول لأول مرة في تاريخهم على يد المماليك، وانتهت أسطورة «الجيش المغولي قوة لا تقهر»[3]، بعد أن خر قائد المغول كتبغا صريعاً في ميدان المعركة[4]، وفصل رأسه عن جسده وطيف به في البلاد[5]، وذلك على غرار ما كان يفعله المغول أثناء غزوهم بغداد وبلاد الشام.

تعتبر معركة عين جالوت، من المعارك الفاصلة في تاريخ المشرق العربي الإسلامي، فقد كان هدف المغول القضاء على الخلافة العباسية في بغداد وانتزاع ما كان يخضع لسلطانها من الأقاليم في فارس والشام ومصر. وقد تحقق لهم تدمير بغداد سنة 656/ 1258، ودخول الشام سنة 658/ 1260، ولولا هزيمتهم في عين جالوت، لامتد سلطانهم إلى مصر وحكموا العالم العربي الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولو تحقق النصر لكتبغا المسيحي لازداد عطف

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ1، ص 430.

2 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص 78، 79.

3 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 208. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ2، ص 214. المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ1، ص 431.

4 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 207. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص 90، 91.

5 ـ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ الغول ـ هولاكو)، م 2، جـ1، ص 314.

المغول على المسيحيين وتقاسموا مع الفرنج بلاد الشام[1]. وقد شاءت الظروف أن يسحب هولاكو معظم جيشه من بلاد الشام لمواجهة الأوضاع المضطربة في بلاده، كما شاءت أن يسقط تحالف المغول والفرنج، مما ساعد دولة المماليك الأولى في تحقيق النصر الحاسم.

كان انتصار عين جالوت حافزاً لانقلاب أهل الشام على المغول، وبخاصة في دمشق حيث جرت مذبحة كبرى في المغول وأعوانهم من المسيحيين، مما سهل دخول قطز إليها في 27 رمضان 658/ 5 أيلول 1260. وتمكن من اعادة النظام والأمن في جميع المدن الشامية حيث أقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات[2].

6 ـ الظاهر بيبرس وإقامة خلافة عباسية صورية في القاهرة (رجب 659/ حزيران 1261)

استطاعت مصر تحت حكم المماليك انقاذ المشرق العربي الإسلامي من خطر المغول، وأصبحت القاهرة المقر الجديد للخلافة العباسية التي أقامها الظاهر بيبرس بشكل صوري لتكون مجرد سند ديني لسلاطين المماليك، وذلك بعد أن قتل قطز في يوم الجمعة 15 ذي القعدة 658/ 22 تشرين الأول 1260[3]، وتولى سلطنة المماليك.

وجد الظاهر بيبرس في اقامة الخلافة العباسية في القاهرة، ولو بشكل صوري، ما يقوّي دعائم دولته ويزيد من نفوذه، فيظهر أمام العالم العربي الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة العباسية.

تنافس الظاهر بيبرس سلطان المماليك في القاهرة وأميرحلب شمس الدين آقوش البرلي حول استغلال احياء الخلافة العباسية لصالح كل منهما. فاستقبل بيبرس في القاهرة، أميراً أسود اللون مع جماعة من العرب زعموا أنه عم المستعصم بالله آخر خليفة عباسي في بغداد، وأن اسمه أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر، فبايعه بيبرس بالخلافة في احتفال كبير في رجب 659/ حزيران 1261، وتلقب بالمستنصر بالله. في حين بايع أمير حلب شمس الدين

---

1 ـ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 537، 538.

2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 431، 433.

3 ـ المصدر نفسه: جـ 1، ص 435.

آقوش البرلي أميراً آخر هو أبو العباس أحمد حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر العباسي، ليحمل لقب الحاكم بأمر الله. فوحد المستنصر بالله قوته التي لا تزيد عن ثلاثمائة فارس مع قوة الحاكم بأمر الله التي تناهز السبعمائة فارس، لكن المغول أنزلوا هزيمة ساحقة بالجيش العباسي في مواجهة غير متكافئة عند الأنبار في يوم الأحد 2 محرم 660/ 27 تشرين الثاني 1261، انتهت بمقتل المستنصر بالله ومعظم جيشه، وتمكن الحاكم بأمر الله من النجاة مع خمسين فارساً.

سنحت الظروف لبيبرس كي يدعم مركزه، فاستدعى الحاكم بأمر الله إلى القاهرة وأقام له احتفالاً في قلعة الجبل وبايعه بالخلافة في يوم الأربعاء 8 محرم 661/ 22 تشرين الثاني 1262[1]، ثم أنزله في البرج الكبير بقلعة الجبل ليكون مقره الدائم في القاهرة تحت إشراف سلاطين المماليك، وكأنه في إقامة جبرية، فكان الحاكم بأمر الله ثاني الخلفاء العباسيين في القاهرة.

نجح الظاهر بيبرس في تحويل القاهرة إلى مركز للخلافة العباسية، ولو بشكل صوري، انتقل إليها مجد بغداد وشهرتها الدينية والعلمية، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء[2] والتجار[3]. وهرع أمراء المسلمين إلى القاهرة لتقديم الطاعة والخضوع للسلطان الظاهر بيبرس[4].

7 ـ هزائم المغول أمام المماليك (671 ـ 708/ 1272 ـ 1303)

قضت معركة عين جالوت سنة 658/ 1260، على أسطورة جيش المغول «قوة لا تقهر»، وبوفاة هولاكو سنة 664/ 1265، سنحت الفرصة للسلطان الظاهر بيبرس، لانزال أقسى الضربات بالفرنج والمغول معاً. فشرع بتحصين أطراف دولته المواجهة لإيلخانية فارس. فأمر ببناء سلسلة من الحصون تمتد من شرق الأردن إلى نهر العاصي، وأهمها قلعة البيرة التي

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ1، ص 477 ـ 479.

2 ـ السيوطي: حسن المحاضرة، جـ2، ص 66.

3 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ1، ص 427 ـ 429.

4 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ص 397 ـ 399.

زودها بالذخيرة والمؤونة التي تكفي مدة عشرة سنوات[1]. وأقام الأبراج لمراقبة تحركات المغول أو الفرنج، وعرفت هذه الأبراج بالمنائر، فإذا كشف الحراس أمراً أشعلوا النار ليلاً أو أثاروا الدخان نهاراً، فتنتقل الإشارة من منارة إلى أخرى حتى تصل إلى العاصمة[2].

أعد بيبرس حملة لمواجهة المغول داخل إيلخانية فارس، سنة 671/ 1272، وحمل معه عدة مراكب مقسمة الأجزاء على ظهور الجمال، وأنزلها في الفرات وعبر بواسطتها مع جيشه، لينزل الهزيمة بالمغول. فأمن بذلك الحدود الشرقية لدولة المماليك من الخطر المغولي. وفي سنة 673/ 1274 توجه بيبرس نحو قيليقية (أرمينيا الصغرى) حليفة المغول، فهزم الجيش الأرمني وعاد إلى مصر.

تحرك بيبرس سريعاً لتأمين الحدود الشمالية لدولته، وهي تتاخم دولة سلاجقة الروم التي أعلنت تبعيتها للمغول. ثم تقدم نحو آسيا الصغرى وهزم الجيش المغولي عند بلدة أبلستان شرق قيصرية سنة 676/ 1277، وخسر المغول في هذه المعركة حوالى سبعة آلاف جندي مع قائدهم تناون. ويقال إن أبغا أسرع إلى ميدان المعركة بعد معرفته بنبأ الهزيمة وبكى عندما شاهد جثث القتلى، ثم انتقم من أهالي البلاد لترحيبهم ببيبرس الذي دخل قيصرية عاصمة دولة سلاجقة الروم، في احتفال عظيم قبل عودته إلى الشام. لكن بيبرس ما لبث أن توفى في يوم الأربعاء 27 محرم 676/ 30 حزيران 1277، وتولى الحكم السلطان المنصور قلاون، فتابع سياسة محاربة المغول والفرنج معاً.

في سنة 680/ 1281، خرج المغول بقيادة أبغا نحو الرحبة، بينما سار أخوه منغو تيمور نحو حمص، لتحل به الهزيمة على يد السلطان قلاون في يوم الأربعاء 14 رجب 680/ 29 تشرين الثاني 1281، وهرب المغول ليطاردهم قلاون قتلاً وأسراً، فاضطر أبغا لفك حصاره عن الرحبة والعودة.

ارتفع شأن الإسلام، في إيلخانية فارس مع غازان (695 ـ 704/ 1295 ـ 1304)،

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ 1، ص 525.

2 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 177. القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 14، ص 398، 399. ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 200 ـ 202.

الذي لم يكتف باعتناق الإسلام بل جعله الدين الرسمي للبلاد. وبذلك قضى نهائياً على آمال المسيحيين في اجتذاب المغول إلى صفوفهم، واقبل الموظفون ورجال الدين المغول على اعتناق الإسلام، وانقطع ما كان يربط من علاقات بين إيلخانية فارس والوطن الأم «منغوليا». وكان مؤرخ تاريخ المغول، رشيد الدين المعروف بالطبيب، وزيراً لغازان، وظل بعد إسلامه يخفي عقيدته اليهودية. وقد ذاعت شهرته مع كتابه المعروف باسم جامع التواريخ الذي أنهاه سنة 711/ 1311. فلا غرو أن يشن غازان «المسلم» على بلاد الشام سنة 701/ 1301 حملة تعتبر من أعنف غزوات المغول، وذلك زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون في فترة حكمه الثانية (698 ـ 708/ 1298 ـ 1308). وقد حلّت الهزيمة بالمماليك في مجمع المروج بين حمص وحماه، وتمكن المغول من دخول دمشق ونهبها.

وفي الحملة الثانية سنة 703/ 1303، حلّت الهزيمة الساحقة بالمغول في مرج الصفر قرب دمشق، ودخل السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى القاهرة يجر وراءه ألفاً وستمائة أسيراً من المغول وهم مقيدي الأيدي، ورؤوس قتلى المغول معلقة في رقابهم، فضلاً عن ألف رأس معلقة على ألف رمح.

تراجع المغول إلى بلادهم على أثر هذه الهزيمة، وأصبح الطريق مفتوحاً نحو قيليقية (أرمينيا الصغرى) التي زادت متاعبها لما نشب فيها من الحروب الداخلية، حتى تقاسمها الأتراك في آسيا الصغرى مع المماليك، ففقدت استقلالها سنة 777/ 1375.

8 ـ عودة خطر المغول بزعامة تيمورلنك (795 ـ 808/ 1393 ـ 1405)

كان المغول في حالة من الضعف نتيجة الضربات المؤلمة التي تعرضوا لها على يد سلاطين دولة المماليك الأولى، حتى خيّل للمشرق العربي الإسلامي وكأنه تخلص من خطرهم سنة 703/ 1303، لكن ظهور الزعامة التاريخية بينهم من فترة لأخرى، كانت تعيد امتداد امبراطوريتهم عن طريق العنف والرعب. ومع نشأة دولة المماليك الثانية، وفي عهد أول سلاطينها الظاهر برقوق (784 ـ 801/ 1382 ـ 1398)، ظهر الخطر المغولي مجدداً بقيادة تيمورلنك الذي كان يؤسس امبراطورية في وسط وغرب آسيا عاصمتها سمرقند.

يعود أصل تيمورلنك إلى قبيلة كوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التترية، وهو حفيد

قراشور نويان وزير جقطاي الابن الثاني لجنكيزخان، أطلق عليه لقب تيمور كوركان ومعناه صهر الملوك. وأصل اسمه «تمر» ثم أضيف إليه «لنك» ومعناه الأعرج، لإصابته في فخذه حين كوَّن عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج، وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أراضيهم حتى وصل إلى الحكم.

(أ) اجتياح بغداد مرتين (795/ 1393) و (802/ 1400)

اكتسح تيمورلنك فارس سنة 795/ 1393، ثم حاصر بغداد مدة شهرين بدءاً من شعبان 795/ حزيران 1393، قبل أن يدخلها ويقتل معظم سكانها ويخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها. وتمكن حاكم بغداد أحمد بن أويس من النجاة مع ثلاثمائة فارس ليلوذ بالسلطان برقوق الذي أسرع بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمورلنك، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش.

اتجه الظاهر برقوق بالجيش المملوكي نحو البيرة، حيث أحرز انتصاراً في معركة غير فاصلة، مع تيمورلنك الذي اضطر للانسحاب إلى سمرقند بعد أن تعرضت لغزو طقتمش زعيم القبجاق. كما زحف تيمورلنك نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه.

كتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة[1] ببغداد، وزوده «بالأمراء والمماليك والخيل والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه»[2]. ثم بعث به على رأس هذا الجيش إلى بغداد في أواخر جمادي الثاني 796/ نيسان 1394، فتمكن أحمد بن أويس بهذا الجيش المملوكي من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد، وأخذ في بناء سورها وتعميرها .

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها، وبرهنت على قوتها بين دول العالم العربي الإسلامي كله، إذ أصبحت بغداد تابعة لها، ولو على هذه الصورة الشكلية التي أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً عليها من قبل السلطان برقوق الذي ضربت سكتها باسمه.

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 3، ص 731.

2 ـ العسقلاني: أنباء الغمر في أبناء العمر، جـ 1، ص 371.

بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفزعت تيمورلنك، حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلته أنباء وفاة السلطان المملوكي الذي خلفه ابنه الناصر فرج في فترة حكمه الأولى (801 ـ 808/ 1398 ـ 1405).

غادر تيمورلنك الهند في صفر 802/ تشرين الأول 1399، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له، وبدأ يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل أن يتمكن السلطان المملوكي الجديد من ترتيب أموره، أو محاولة الاتصال بالدول المجاورة، وعلى الأخص الدولة العثمانية التي حمل تيمورلنك لها أشد الكراهية، لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بني قلج أرسلان، الذين سبق أن احتموا بتيمورلنك.

وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال في بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده، فتقدم تيمورلنك في 26 ذي القعدة 802/ 19 تموز 1400، واستولى على بغداد للمرة الثانية فاضطر أحمد ابن أويس للالتجاء إلى السلطان العثماني بايزيد الذي أكرمه وعقد معه محالفة، ما أثار حفيظة تيمورلنك ضد بايزيد.

(ب) استباحة حلب (803 ـ 1400)

طلب السلطان العثماني بايزيد الأول (791ـ805/ 1389ـ1402) محالفة السلطان المملوكي فرج للوقوف في وجه تيمورلنك، سنة 803/ 1400، غير أن الذين بيدهم أمور الدولة رفضوا هذا الطلب بسبب تحرك الجيش العثماني عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائه على ملطية سنة 801/ 1398. وهذا الوضع أسهم في انتصار تيمورلنك على الاثنين معاً، بعدما أخطأ المماليك بعدم تحالفهم مع العثمانيين. فزحف تيمورلنك على ملطية في 25 محرم 803/ تشرين الأول 1400، وأبادها على عادته.

استعد تيمورلنك للزحف نحو بلاد الشام كما فعل هولاكو قبل أكثر من قرن وثلث القرن، مما شكل تهديداً فعلياً للحدود الشمالية في السلطنة المملوكية، وللدولة العثمانية الناشئة في آسيا الصغرى.

زحف تيمورلنك في رجب 803/ شباط 1400 على البهسنا (قرب مرعش من أعمال حلب)، فاعترف نائبها «الأمير مقبل» بسلطة تيمورلنك ودعي له في خطبة الجمعة، وفتحت

عينتاب شمال حلب أبوابها ليعين تيمورلنك عليها نائباً من قبله. ثم نزل على بزاغة إحدى قرى حلب، ليزحف نحو حلب، في الوقت الذي شكل فيها نواب بلاد الشام جيشاً ضخماً يضم قوات دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة للدفاع عن حلب، لكن اختلاف هؤلاء النواب وعدم الاستماع إلى نصيحة نائب طرابلس الأمير شيخ المحمودي بضرورة خروجهم جميعاً للقاء المغول خارج حلب[1]، وتأخر السلطان فرج عن الحضور بسبب اختلاف أمراء مصر أيضاً حول الزعامة، سهل استيلاء تيمورلنك على قرية جيلان، خارج حلب في 9 ربيع الأول 803/ 28 تشرين الأول 1400، ثم تقدم لحصار حلب. وبرغم هذا الانقسام الذي ساد النواب بسبب خطة القتال، فإن أهل حلب استماتوا في الدفاع عن مدينتهم، ما أخجل النواب الذين خرجوا بقواتهم خارج المدينة، دون خطة عسكرية واضحة، ما سهل على المغول اكتساحهم ففروا قاصدين داخل حلب للاحتماء باسوارها، فتبعهم المغول داخل المدينة، حيث لجأ تيمورلنك إلى اشعال النار فيها، وأمعن جنده السيف في عامة حلب وأجنادها، فبلغ عدد القتلى حوالى العشرين ألفاً[2].

(جـ) استباحة دمشق (9 ـ 28 رجب 803/ 23 شباط ـ 14 آذار 1401)

أقام تيمورلنك في حلب مدة شهر، ثم تركها خالية من سكانها مظلمة بآثار الحريق، وسار قاصداً دمشق، في حين توجه ابنه ميران شاه إلى حماه وحمص واستولى عليهما، وقام بنفس الدور الذي قام به والده في حلب. ثم احتل تيمورلنك بعلبك وخرب قلعتها، وتوجهت فصائل مغولية نحو الساحل، ولم تعمد إلى تخريب مدنه، بل اكتفت بالحصول على المال الوفير من بيروت وطرابلس وصيدا.

أبدى أهل دمشق تصميماً رائعاً وإيماناً قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، حتى ولو لم يحضر السلطان. وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخداع نائبها الجديد الذي همَّ بالفرار، رده العامة رداً قبيحاً[3].

---

1 ـ ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص 86.

2 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12، ص 223.

3 ـ ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص 95.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12، ص 227.

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق في 6 جمادي الأول 803/ 23 كانون الأول 1400، أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكانها، وعسكر بجيشه في سهل قبة يلبغا على بعد ثلاثة كيلومترات من الأسوار القبلية للمدينة. أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة وهي احدى قرى دمشق، ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي. وظل على هذا الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة.

زحف تيمورلنك على غوطة دمشق بعد ذلك بعشرة أيام، فسلمت له دون قتال. وعُقد مجلس الأمراء للمشاورة في أمر التقدم لمواجهة المغول بدلاً من انتظار وقوع الكارثة، وأبدى معظم الأمراء عدم جدوى التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكي، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقي من قوات من أجل الدفاع فقط[1].

فقد السلطان فرج كل أمل في النصر، بعد أن فوجىء باختفاء جماعة من أمرائه، ومعهم ألف مملوك[2]، وتبعتهم جماعة أخرى، وهرب الجميع إلى القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي، فاضطر السلطان فرج مع بعض الأمراء للعودة إلى القاهرة في 20 جمادي الأول 803/ 6 كانون الثاني 1401. وبعد أن قضى السلطان على المؤامرة، فرض تدابير مالية أرهقت كاهل الأهالي والتجار، تحت ستار تجهيز حملة عسكرية للعودة إلى دمشق والدفاع عنها ضد تيمورلنك، لكنه ما لبث أن عدل عن خطته، وارتأى البقاء في القاهرة، فلم تخرج الحملة إلى حيِّز التنفيذ.

سنحت الفرصة أمام تيمورلنك ليتجه نحو دمشق، وكان يتولى الدفاع عنها جيش مملوكي قليل العدد ودون قائد، يسانده الأهالي الذين لم يعلموا برحيل السلطان. وحاول تيمورلنك استغلال هذا الوضع ومهاجمة دمشق، لكنه مني بالهزيمة أمام صمود الجيش والأهالي[3]، فعمد إلى الحيلة وأظهر رغبته في عقد الصلح، فاضطر الأهالي لإرسال وفد والإذعان لشروط تيمورلنك مقابل الصلح[4]، فدخلت دمشق تحت حماية تيمورلنك فأخذ

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12، ص 235.

2 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12، ص 235. ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 1، ص 230.

3 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 3، ص 154.

4 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12 ص 239.

يجبي الأموال الطائلة من الأهالي بالضرب وبالمصادرة، وعندما أيقن من عجزهم نكث عهده كالعادة.

استبيحت دمشق مدة تسعة عشر يوماً، تعرض الأهالي خلالها لضروب من الوحشية والهمجية، كما تعرضت المدينة لأبشع كارثة في تاريخها لا تزال حتى يومنا هذا مضرباً للأمثال. فبعد أن قسم المدينة على أمرائه، أجرى على أهل دمشق مختلف أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين، وغمَّ أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، وإذا أشرف على الهلاك، يخلي عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو ابنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، ويصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط. وكانت هذه الأعمال الوحشية ترتكب في وضح النهار، وأمام أعين الأهالي الذين شهدوا أنواعاً أخرى من العذاب، إذ أخذ المغول الرجل وشدوا رأسه بحبل، كما وضعوا الحبال بكتفي آخر وأخذوا يلوون بعصاه حتى تنخلع كتفاه. واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم الإثنين 28 رجب 803/ 14 آذار 1401 بعد أن هلك في هذه المدة خلق كثير من أهل دمشق.

حين عزم تيمورلنك على ترك دمشق، دك معالم الحضارة فيها، وأشعل النار بها في يوم عاصف، لتندلع فيها ثلاثة أيام[1]، حتى احترقت بأسرها. فأعاد ظهور تيمورلنك إلى أذهان المشرق العربي الإسلامي صورة الغزو المغولي زمن هولاكو، فلا عجب أن يدب الخوف والرعب داخل مصر.

د ـ انتهاء خطر المغول بوفاة تيمورلنك (808/ 1405)

بعد غزوه بلاد الشام، لم يتجه تيمورلنك نحو مصر، بل اتجه للإنتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثماني. وتشير تحركاته العسكرية، إلى أنه لم يهدف من كل غزواته أن يحتفظ بما احتله، بل كان هدفه الأول من غزو المناطق الواقعة في أطراف بلاده، هو الانتقام من الذين لم

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12، ص 241 ـ 246.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 1، ص 332، 335.

يعلنوا طاعتهم له. ولهذا ما إن انتقم من السلطان المملوكي ودك معالم الحضارة في بلاد الشام، حتى اتجه إلى الشمال ليفاجيء السلطان العثماني بايزيد قبل أن يفاجئه. ولعل هذا هو الذي أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع، إذ وجد تيمورلنك السلطان بايزيد يقظاً لتحركاته، فما إن غزا حلب وماردين وأعاد تخريبهما، اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد[1]. ومن هناك بدأ يلتمس المعاذير للاصطدام بالسلطان العثماني.

أظهر السلطان المملوكي فرج بن برقوق الضعف والتخاذل، فلو بقي في دمشق مدة أطول، لما استبيحت المدينة، ولرحل تيمورلنك إلى بلاده بسبب قلة مؤونته، ولو تحالف مع السلطان العثماني بايزيد الأول، لما حلت الهزيمة بالمماليك والعثمانيين معاً أمام تيمورلنك. وزاد السلطان فرج ضعفاً، بعد أسر بايزيد الأول في أنقرة سنة 805/ 1402، حتى رضخ لشروط تيمورلنك، باطلاق سراح قريبه أطلمش توجين الذي سجنه السلطان برقوق والد فرج في القلعة بالقاهرة منذ سنة 790/ 1388. ويعد أطلمش توجين من أبرع قادة تيمورلنك، وهو صاحب قلعة أونيك في يسيا الصغرى، وحينما أرسل السلطان برقوق حملة استطلاعية إلى بلاد الشام بقيادة الأمير الطنبغا المعلم، فوصلت حلب في رمضان 789/ أيلول 1387، ثم تقدمت إلى ديار بكر، فصادفت في طريقها فلول جيش المغول بقيادة ابن تيمورلنك الذي لقي الهزيمة أمام زعيم القراقونيلو، وأسرت أطلمش، فأرسله الطنبغا إلى القاهرة، في حين عاد بالحملة إلى حلب سنة 790/ 1388[2].

ولم يكتف السلطان برقوق بسجن أطلمش، بل استخف بتيمورلنك بعد دخوله بغداد للمرة الأولى سنة 795/ 1393، وإرساله بعثة مغولية مع هدية من بعض الأسرى من أعيان بغداد وقضاتها، إضافة إلى كتاب من تيمورلنك إلى برقوق يشتمل على نوع من التهديد.

لم ييأس تيمورلنك، فأرسل إلى السلطان برقوق بعثة مغولية أخرى سنة 796/ 1397، مع كتاب فيه نوع من التهديد أيضاً. لكن السلطان برقوق، رد عليه باعدام رسله، وقد تمكن من تحرير بغداد وأصبحت مسألة اعتقال أطلمش ذريعة لتيمورلنك لاجتياح بغداد. للمرة الثانية سنة 802/ 1399 بعدما تسلم الحكم السلطان فرج بن برقوق الذي لم يطلق

---

1 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 12، ص 265.

2 ـ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر في أبناء العمر، جـ 1 ص 538.

سراح أطلمش إلا بعد تهديدات تيمورلنك في كتابه الأول إليه أثناء حصار دمشق سنة 803/ 1401.

لقد تخاذل السلطان فرج في نجدة دمشق أثناء الحصار، ليصل به الأمر إلى إرسال رد على كتاب تيمورلنك الأول أظهر فيه الخضوع والطاعة والوعد باطلاق سراح أطلمش خلال خمسة أيام مقابل فك الحصار عن دمشق. ولما أدرك أن تيمورلنك، بعد استباحته دمشق وانزاله الهزيمة بالسلطان العثماني بايزيد الأول وأسره سنة 805/ 1402، سيزحف نحو مصر للقضاء على الدولة المملوكية كما جاء في كتابه الثاني إليه سنة 805/ 1402، أطلق سراح أطلمش مصحوباً ببعثة من أمرائه بعدما أنعم عليه بخمسة آلاف درهم[1]. وقيل إن السلطان فرج سك عملة في القاهرة تحمل اسم تيمورلنك.

كان تيمورلنك يحلم بدخول مصر بعد الشام، لكن وفاته سنة 808/ 1405، بددت أحلامه وأعادت الهدوء والطمأنينة إلى بلاد الشام، وأنقذت مصر من اجتياح مغولي قد لا تجد سلطاناً يتصدى له.

وهذا ما يشير إلى الفارق الكبير بين دولة المماليك الأولى التي بدت متماسكة وقت الحروب، مما سهل انتصارها على المغول في عين جالوت سنة 658/ 1260، وفي مرج الصفر سنة 702/ 1303، وبين دولة المماليك الثانية التي تعرضت للهزيمة، أمام المغول بسبب انقسام أمرائها.

9 ـ سقوط دولة المماليك في بلاد الشام ومصر (922 ـ 923/ 1516 ـ 1517)

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة أرتغرل التركية التي احتلت الأناضول بعد اشتداد الخطر المغولي على آسيا الوسطى. وعرفوا بالعثمانيين نسبة إلى عثمان (687 ـ 726/ 1288 ـ 1326) مؤسس دولتهم وعاصمتها بروسا التي ما لبثت أن حل أدرنة مكانها، قبل أن يتمكن محمد الثاني بعد سنتين من تسلمه الحكم، من السيطرة على آسيا الصغرى وفتح القسطنطينية يوم الثلاثاء 20 جمادي الأولى 857/ 29 أيار 1453، بعد حصار استمر ثمانية وأربعين يوماً، استخدم فيه سلاح المدفعية الذي يعد أقوى مدفعية في ذلك الوقت، لأنه يضم 130 مدفعاً ضخماً و 65 مدفعاً كبيراً،

1 ـ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر في أبناء العمر، جـ 1، ص 538.

إضافة إلى مدفع عملاق فوهته أكثر من متر وطوله حوالى الثمانية أمتار، كان يطلق منه سبع طلقات يومياً على اسوار القسطنطينية طيلة أيام الحصار، ووزن كل كرة يقذفها 543 كيلو غراماً. وكان يجر هذا المدفع العملاق حوالى مائتي رجل مستعينين بستين ثوراً.

كان محمد الثاني أول زعيم من آل عثمان اتخذ لنفسه لقب سلطان، وبدأ على الأقل يدعي مساواة نفسه بسلاطين المماليك حكام مصر وبلاد الشام. وجعل القسطنطينية ثالث وآخر عاصمة للعثمانيين، بعد أن أطلق عليها اسم إسلامبول أي عاصمة الإسلام، وتلفظ أيضاً استامبول وإستانبول.

لا يمكن نكران الدور الجهادي الذي قام به السلطان العثماني محمد الثاني الذي لقب بالفاتح، لتمكنه من فتح القسطنطينية فتحاً مبيناً سنة 857/ 1453، وهذا حدث تاريخي عجز عنه الفتح العربي الإسلامي زمن الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية وجميع الدويلات غير العربية التي نشأت تحت رايتها بما فيها السلاجقة والأيوبيين والمماليك. لكن هذا الدور الجهادي في آسيا الصغرى وشرق أوروبا انتهى مع وفاة السلطان محمد الثاني الفاتح، ليتحول إلى دور توسعي وسلطوي.

(أ) الصراع بين المماليك والعثمانيين والصفويين حول الزعامة

تحكمت ثلاث قوى كبرى غير عربية في مصير المشرق العربي الإسلامي في مطلع القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، وتمثلت هذه القوى بالدولة الصفوية «الشيعية» في إيران، والدولة العثمانية «السنية» في آسيا الصغرى وجنوب شرق أوروبا، فضلاً عن الدولة المملوكية «السنية» في مصر والشام وسلطانها حامي «مكة والمدينة».

وكان لا بدّ من الصراع بين هذه القوى الثلاث التي يجمعها الإسلام وتفرقها جميعاً القومية التي تختلف أيضاً عن القومية العربية التي باتت مغلوبة على أمرها. وانتهى هذا الصراع، بانتصار العثمانيين على الدولة الصفوية سنة 920/ 1514، بعدما كان الخلاف المذهبي هو الأداة التي استغلها كل منهما في سبيل تأسيس الامبراطورية الكبرى التي يحلم بها. فلم يتورع اسماعيل الصفوي شاه إيران عن دخول بغداد سنة 914/ 1508، لينقض على علماء السنّة قتلاً وتشريداً، ويرفع من مكانة علماء الشيعة، فشهدت بغداد وسائر مدن العراق موجات من الفرس انتشرت معها اللغة الفارسية.

وما إن تسلم السلطان سليم الأول حكم الدولة العثمانية في 8 صفر 918/ 24

نيسان 1512، حتى رد على مذبحة السنّة في بغداد، بمذبحة الشيعة في الأناضول حيث قبض على سبعين ألفاً منهم، فقتل أربعين ألفاً وأودع الباقين في السجون. ثم أنزل الهزيمة باسماعيل الصفوي في معركة جالديران يوم الخميس 3 رجب 920/ 23 آب 1514، ودخل العاصمة تبريز ثم انسحب منها وعاد إلى بلاده[1].

إنه الصراع حول زعامة العالم الإسلامي، متستراً بلواء المذهبية، حيث برزت الدولة الصفوية في إيران وكأنها حامية للشيعة، والدولة العثمانية في استانبول وكأنها حامية للسنّة. وتأكد هذا الصراع حول الزعامة بمواجهة الدولة العثمانية «السنية» لدولة المماليك «السنّية» أيضاً.

(ب) موقعة مرج دابق ودخول العثمانيين إلى بلاد الشام (24 رجب 922/ 24 آب 1516)

تمكن السلطان سليم الأول من استمالة أمراء المماليك في بلاد الشام وفي مقدمتهم خايربك نائب حلب ضد السلطان المملوكي الأشرف قانصوه الغوري وحاول الأمير سيباي نائب دمشق أن يكشف خيانة خايربك نائب حلب، لكن نائب حماه جان بردى الغزالي، وكان أيضاً من أعوان العثمانيين، أقنع السلطان المملوكي بعدم الإصغاء بحجة الحفاظ على وحدة الجيش.

تحرك السلطان قانصوه الغوري على رأس حملة كبيرة إلى الشام تضم ستين ألف رجل بينهم خمسة عشر ألفاً من الفرسان المماليك «سلاح الخيالة»، ووصل إلى حلب في يوم الجمعة 10 جمادي الثانية 922/ 11 تموز 1516، ثم انتقل منها إلى مرج دابق شمال حلب حيث رابط في مواقع تبعد عن المدينة مسيرة يوم واحد.

أما السلطان سليم الأول فكان يعتمد على «سلاح المدفعية»، وهو أفضل مدفعية في العالم ذلك الوقت، كان يضم أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران. وأعد «سلاح القلاع المتحركة» الذي يشكل عربات مربوطة بعضها بالبعض

---

1 ـ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ 5 ص 361.

الآخر حتى يمنع فرسان المماليك من اختراق صفوف جيشه، فقد كان أكثر ما يخشاه هو فرسان المماليك.

حلت الهزيمة بجيش المماليك، في مرج دابق، يوم الأحد 25 رجب 922/ 24 آب 1516، وقتل السلطان قانصوه الغوري في المعركة، وقيل أنه انتحر، وذلك بعد انحياز قسم من المماليك بقيادة خاير بك إلى جانب العثمانيين أثناء المعركة، واستسلام عدد من أمراء المماليك[1].

دخل السلطان سليم الأول إلى مدينة حلب في 29 رجب 922/ 28 آب 1516، وفي خطبة الجمعة نودي به «خادماً للحرمين الشريفين»، فاتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله سلاطين مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، وأصبح يعرف بسلطان المسلمين أو «بادي شاهي إسلام».

استقبلت مدن بلاد الشام السلطان سليم الأول كمنقذ لها من المماليك، فلم تبد أي مقاومة، بالعكس فإنها أحدثت انتفاضات للقضاء على الحاميات المملوكية، فتم فتح أبواب القلاع والمدن أمام السلطان سليم الأول الذي دخل حماه في 22 شعبان/ 20 أيلول، وحمص في 24 شعبان/ 22 أيلول، ثم دخل دمشق في 11 رمضان/ 9 تشرين الأول وسار في شوارعها وسط احتفالات عظيمة. وفي دمشق استقبل السلطان سليم الأول وفود بيروت وطرابلس وصيدا، وأمراء جبل لبنان الذين انحازوا إليه، وذلك بعد أن وصل إلى المصطبة السلطانية بأرض «يرزة» حيث استعرض جيشه الذي قيل إنه بلغ مائة وثلاثين ألفاً[2].

وفي 3 شوال/ 30 تشرين الثاني، وصل الجيش العثماني إلى غزة فاكتمل ضم بلاد الشام، وبدأ الاستعداد لدخول مصر.

(جـ) موقعة الريدانية ودخول العثمانيين إلى مصر
(27 ذو الحجة 922/ 22 كانون الثاني 1517)

تسلم طومان باي السلطنة المملوكية في 12 ذي القعدة 922/ 11 كانون الأول 1516، وهو ابن شقيقة قانصوه الغوري، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، وبعد طومان باي مقاتلاً

---

1 ـ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 5 ص 73.

2 ـ ابن طولون: أعلام الورى، ص 319.

مقداماً، فبعد استقباله البعثة العثمانية التي قدمت القاهرة لتعرض عقد اتفاق سلام مع المماليك شرط الاعتراف بالسلطان سليم الأول كخليفة للمسلمين وخادم للحرمين الشريفين، كان رده قتل أفراد البعثة مما يعني استئناف الحرب. أخذ طومان باي يستعد للمواجهة فأمر بإنتاج المدفعية المثبتة على عربات على غرار المدفعية العثمانية. وهذا يعني سرعة إدراكه لأهمية المدفعية في ميادين القتال، فوجه اهتمامه إلى سلاح المدفعية وحملة البنادق[1].

زحف السلطان سليم الأول بجيشه من دمشق في 17 ذي القعدة 922/ 16 كانون الأول 1516، وعبر صحراء سيناء خلال عشرة أيام ليصل إلى دلتا النيل معلناً إنه قادم لقتال المماليك وحدهم، وكان بصحبته الخليفة المتوكل، فاستقبل بحفاوة من الشعب المصري الذي يتمثل بغالبيته من الفلاحين العرب، فأخذوا يقدمون له المساعدة ضد المماليك. وهذا ما جعل طومان باي يسحب قواته إلى القاهرة حيث جمع حوالى أربعين ألفاً منهم عشرون ألف فارس مملوكي[2]. وبالقرب من الريدانية، الضاحية الشمالية للقاهرة، بدأت المعركة في 27 ذي الحجة 922/ 22 كانون الثاني 1517. ورغم بطولة طومان باي وفرسانه، فإنه لم يستطع قهر الجيش العثماني، فتراجع مخلفاً وراءه حوالى خمس وعشرين ألف جثة.

وبعد ثلاثة أيام على معركة الريدانية، تقدمت قوة صغيرة من العثمانيين ودخلت القاهرة، لكن طومان باي تمكن من إبادة هذه القوة، عندما اندفع على رأس مجموعة من المماليك في ليل 4 محرم 923/ 29 كانون الثاني 1517، لتشهد القاهرة حرب شوارع استمرت ثلاثة أيام. وانتقم السلطان سليم الأول عندما استباحت القاهرة، وقتل خمسين ألفاً من أهلها في مذبحة رهيبة، وتمكن من القبض على ثمانمائة فارس مملوكي ليتم إعدامهم بصورة علنية[1]، ثم نودي بالأمان بعد أن استتب الأمن في القاهرة.

(د) شنق طومان باي آخر سلاطين دولة المماليك
(الثلاثاء 22 ربيع الأول 923/ 13 نيسان 1517)

وقع آخر سلاطين دولة المماليك طومان باي في الأسر وهو في الرابعة والأربعين،

---

1 ـ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ 5، ص 121.

2 ـ المصدر نفسه، ص 5، ص 142.

فشنقه العثمانيون تحت قنطرة باب زويلة بالقاهرة، وذلك يوم الثلاثاء 22 ربيع الأول 923/ 13 نيسان 1517، وبمقتله انتهت دولة المماليك.

دخل المشرق العربي الإسلامي، باستثناء نجد ومعها ساحل الخليج العربي، تحت حكم الدولة العثمانية سنة 923/ 1517، ليتبعه المغرب العربي الإسلامي باستثناء مراكش (الجزائر سنة 940/ 1533، تونس سنة 941/ 1534، وطرابلس الغرب سنة 958/ 1551)، وكذلك ساحل البحر الأحمر وشمال السودان سنة 965/ 1557.

عاش المشرق العربي الإسلامي مدة أربعة قرون متتالية تحت حكم الدولة العثمانية (923 ـ 1337/ 1517 ـ 1918)، لتستمر سيطرة السلاطين غير العرب، بعد أن تحولت العاصمة لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي إلى مدينة غير عربية هي استانبول.

الفصل السابع

مدخل إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي

أو

التاريخ الحضاري عند الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك

ما كان تأسيس الخلافة الفاطمية في المغرب، وانتقالها إلى مصر، ليتم، وما كانت الانتصارات الزنكية ثم الأيوبية ضد الفرنج، ونجاح المماليك في اقصاء الفرنج عن المشرق العربي الإسلامي، ليتم لولا وجود بعض النظم الحضارية، التي أصبحت تمثل التاريخ الحضاري عند الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك، وهو التاريخ الحضاري الذي يعد مدخلاً إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وكان ملازماً للتاريخ السياسي الذي عاشه المشرق العربي، منذ تأسيس القاهرة سنة 358/ 969، وانتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إليها سنة 362/ 973، لتتحول القاهرة إلى مركز المشرق العربي، سواء عهد الدولة الفاطمية (362 ـ 567/ 973 ـ 1171)، أو الدولة الأيوبية (569 ـ 648/ 1174 ـ 1250) أو دولة المماليك الأولى (648 ـ 784/ 1250 ـ 1382)، ثم دولة المماليك الثانية (784 ـ 923/ 1382 ـ 1517).

ولم يكن هذا التاريخ الحضاري، بعيداً عن الحضارة العربية الإسلامية التي نشأت مع العرب الذين كانوا أصحاب رسالة خالدة، وبناة حضارة هي باعتراف جميع المؤرخين والباحثين، أعظم حضارة شهدها العالم أجمع، بمشرقه ومغربه، طوال العصور الوسطى.

ففي مرحلة الحروب الصليبية على امتداد قرنين من الزمان، هما القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد وتحديداً (490 ـ 690/ 1097 ـ 1291)، أفاق الفرنج أهل الغرب الأوروبي من ظلمة العصور الوسطى لديهم، حينما شاهدوا

في المشرق العربي الإسلامي، حضارة عربية إسلامية لم تترك فناً ولا علماً ولا ضرباً من ضروب المعرفة الانسانية إلا أسهمت فيه بجديد، فنشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ليتتلمذ الفرنج على أيدي مؤلفي الكتب العربية المترجمة من أعلام الفكر العربي. حتى القرآن الكريم ترجم إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. وبذلك قامت النهضة الأوروبية في الغرب في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، لتستمر في تطورها وازدهارها حتى اليوم، بفضل الحضارة العربية الإسلامية التي نهلوا منها في الشرق.

1 ـ مفهوم السلطة والتركيب الإداري

يختلف مفهوم السلطة عند الفاطميين عنه عند الزنكيين أو الأيوبيين والمماليك. فرأس السلطة الفاطمية، يحمل لقب الخليفة، حيث قامت الخلافة الفاطمية اساساً على الدعوة الشيعية الاسماعيلية، لمناهضة الخلافة العباسية «السنيّة» في بغداد، وكان تأسيس القاهرة في مصر سنة 358/ 969، لتكون العاصمة الجديدة للخلافة الفاطمية، واختير لها هذا الاسم من فعل قهر حتى تقهر الخلافة، العباسية.

أما رأس السلطة في الدولة الزنكية، فحمل لقب «أتابك»، وهي كلمة تركية مشتقة من لفظين هما: «أتا» بمعنى أب و «بك» بمعنى شيخ أو نبيل، وقد أطلق السلاجقة هذه الكلمة على بعض الأمراء البارزين الذين يعهد إليهم تربية أولادهم، ثم أصبحت ترمز إلى الأمراء الأقوياء الذين تمكن بعضهم من تأسيس أتابكيات ما لبثت أن استقلت عن السلاجقة، لكنها اعترفت بالتبعية للخليفة العباسي في بغداد، وساندته في الوقوف ضد الخليفة الفاطمي في القاهرة. وأصبح الأتابك يحمل أيضاً لقب الملك.

وقد عرف لقب السلطان مع الدولة الأيوبية ثم الدولة المملوكية، للدلالة على رأس السلطة. ويقال إن صلاح الدين الأيوبي لم يتخذ هذا اللقب، وإنما اتخذه خلفاؤه من بعده. وحمل السلاطين الأيوبيون لقب «الملك» أيضاً على غرار الزنكيين، مع اعترافهم بالتبعية للخليفة العباسي في بغداد، وإن كان السلطان الأيوبي يتمتع بنفوذ عسكري وسياسي أقوى من نفوذ الخليفة العباسي.

وكان يضاف إلى اسم «السلطان» الأيوبي لقب آخر بجانب كلمة «الملك»، يعرف به،

مثل: الناصر، العزيز، المنصور، العادل، الكامل، الصالح، المعظم، والأشرف. وكانت هذه الألقاب تضاف إلى أسماء الأمراء الأيوبيين في دمشق وحلب وحمص وحماه واليمن وبعلبك والجزيرة والكرك، ومعها ألقاب أخرى، مثل: الأفضل، الظاهر، الأوحد، المظفر، القاهر، المغيث، المسعود، الأمجد، والموحد.

كانت الخلافة الفاطمية وراثية، هذا المفهوم الوراثي الذي سنّه معاوية بن أبي سفيان منذ تأسيسه الدولة الأموية، لينتقل إلى الدولة العباسية، وسائر الدويلات التي نشأت في ظلها، على الرغم من أن السلطة في الإسلام، ينبغي أن تقوم على أساس الشورى واختيار صاحب الكفاءة والجدارة لتولي منصب الخليفة.

لذلك، لم تكن الدولة الزنكية، بعيدة عن هذا المفهوم الوراثي، في حين اتبع مؤسس الدولة الأيوبية الناصر صلاح الدين أسلوباً جديداً في تسليمه الحكم لأبنائه وأخوته، حينما أعلن وصيته السياسية سنة 580/ 1184، أي قبل تسع سنوات من وفاته، وتقضي بتقسيم القسم الأكبر من دولته بين أبنائه الثلاثة: العزيز عثمان في مصر، والأفضل نور الدين في دمشق، والظاهر غازي في حلب، في حين حصل أخوته وأبناء أخوته على اقطاعات صغيرة كانت تابعة لسلطة هؤلاء الثلاثة. وهذا ما فعله أخوه العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، حينما تمكن من السيطرة وحدة مصر وبلاد الشام سنة 597/ 1200، فمهد لحصر الحكم في أبنائه من بعده، فجعل ابنه الكامل محمد على مصر، وابنه المعظم عيسى على دمشق التي كانت تمتد من العريش إلى حمص، كما تولى ابنه الأشرف موسى البلاد الشرقية، وخضع الأمراء الأيوبيون في حلب وحمص وحماه لسلطة العادل حتى وفاته سنة 615/ 1218.

أما بالنسبة لدولة المماليك، فلم يكن مفهوم الوراثة راسخاً في أذهان المماليك عند قيام دولتهم الأولى سنة 648/ 1250، لذلك لم يرث المنصور نور الدين علي والده المعز الدين أيبك أول سلاطين دولة المماليك، أكثر من ثلاث سنوات (655_657/ 1257_1259) منذ أن تولى السلطنة وهو في الخامسة عشرة، حيث كانت السلطة الفعلية بيد سيف الدين قطز نائب السلطان قبل أن يتولى السلطنة بنفسه سنة 657/ 1259 مع لقب «المظفر»، وما لبث قطز أن قتل على يد بيبرس الذي تولى السلطنة سنة 658/ 1260 مع لقب «الظاهر». ثم استطاع سيف الدين قلاون أن ينقل السلطنة إلى بيته، منذ توليه السلطنة سنة 678/ 1279، ليرثه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل سنة 689/ 1290، ثم ابنه الآخر الناصر ناصر الدين محمد سنة 692/ 1293.

ثم خرجت السلطنة من البيت القلاوني طيلة خمس سنوات (694 ـ 698/ 1294 ـ 1298)، حينما أعلن كتبغا نفسه سلطاناً تحت لقب العادل زين الدين وتمكن حسام الدين لاجين من خلعه ليتولى السلطنة تحت لقب المنصور. ثم عادت السلطنة إلى البيت القلاوني مع الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون الذي تولاها للمرة الثانية (698 ـ 708/ 1298 ـ 1308) لتخرج منه مدة سنة واحدة حكم فيها ركن الدين بيبرس الجاشنكير تحت لقب المظفر، قبل أن يتولاها للمرة الثالثة طيلة ثلاث وثلاثين سنة (709 ـ 742/ 1309 ـ 1341)، تمكن خلالها من حصر السلطنة في أولاده وأحفاده حتى سنة 784/ 1382 التي تعتبر بداية دولة المماليك الثانية، حيث أصبح الصراع والتنافس بين أمراء المماليك، هو المبدأ للوصول إلى السلطنة.

لم يعترف سلطان المماليك، في القاهرة، بالتبعية الفعلية للخليفة العباسي في بغداد أكثر من ثماني سنوات، فقد انتهت الخلافة العباسية مع دخول المغول بغداد سنة 656/ 1258، وما فعله سلطان المماليك الظاهر بيبرس هو اقامة خلافة عباسية صورية في القاهرة، لا حول ولا قوة للخليفة العباسي معها، بل كانت مجرد سند ديني لسلطة المماليك الذين دانت لهم مصر وبلاد الشام، والذين حملوا أيضاً لقب «الملك» على غرار السلاطين الأيوبيين، وذلك إلى جانب لقب آخر يعرفون به، مثل: المعز، المنصور، المظفر، الظاهر، السعيد، العادل، المنصور، الأشرف، الناصر، الصالح، الكامل، والمؤيد.

اعتمد الأيوبيون مجموعة من الدواوين يتولى كل منها ناظر وعدد من الموظفين، وأهمها وأكبرها ديوان الجيش الذي يشرف على الجند وتوزيع الاقطاعات عليهم. ويليه في الأهمية ديوان الانشاء الذي يرسم المراسيم السلطانية[1]. ويختص ديوان المرتجع باسترجاع الاقطاعات التي يتخلى عنها أصحابها بسبب الوفاة أو الحصول على اقطاعات جديدة، في حين يهتم ديوان الاحباس بأراضي الأوقاف التي وقفت على جوانب الخير. أما ديوان النظر فيهتم بموارد الدولة ومصاريفها، ومنه تصرف مرتبات الموظفين في مختلف الدواوين، ومرتبات الجند والصناعة الحربية والمشاريع العامة.

واستمرت هذه الدواوين زمن الدولة المماليك، وحينما تطرق الفساد إلى دولة المماليك، استحدثت دواوين جديدة لتحقيق مطامع بعض الأمراء المماليك، مثل الديوان الخاص الذي

---

1 ـ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص 100.

أنشأه الناصر محمد، وديوان الأملاك والمفرد عهد الظاهر برقوق، اضافة إلى ديوان التنازل والبدل وديوان الحمايات، فكانت هذه الدواوين الجديدة سبباً من أسباب سقوط دولة المماليك.

2 ـ النظام القضائي

يعد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (ت 182/ 798) أول من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام[1]، وذلك على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد. وكان يوجد قاضي قضاة واحد في بغداد زمن الدولة العباسية.

ومع انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر سنة 362/ 973، حضر الخليفة المعز لدين الله[2]، وكان بصحبته النعمان بن محمد (ت 363/ 974)، وهو قاضي قضاته ومؤسس النظام الفاطمي. وبذلك أصبح هناك قاضي قضاة آخر في القاهرة على المذهب الاسماعيلي الفاطمي، اضافة إلى قاضي قضاة بغداد على المذهبي الحنفي، فظهر الانقسام في الخلافة الإسلامية، بوجود خليفتين في المشرق العربي الإسلامي، ولكل منهما قاضي قضاة أحدهما على المذهب الحنفي والثاني على المذهب الاسماعيلي.

تولى منصب قاضي القضاة في القاهرة، بعد وفاة النعمان بن محمد، ابنه علي بن النعمان (ت 374/ 985)، ثم ابنه الآخر محمد بن النعمان (ت 389/ 999)، ثم حفيده الحسين بن علي (ت 395/ 1005)، ثم حفيده الآخر عبد العزيز بن محمد. وكأن منصب قاضي القضاة، بدأ في القاهرة، محصوراً في أسرة النعمان محمد أول قاضي قضاة في الدولة الفاطمية بمصر.

ومع قيام الدولة الزنكية، كان كمال الدين الشهرزوري (ت 572/ 1176) أول من تقلد منصب قاضي قضاة دمشق، زمن نور الدين محمود بن زنكي.

ومع الدولة الأيوبية، اصبح قاضي القضاة في القاهرة، على المذهب الشافعي، يعاونه نائب قاضي قضاة على المذهب الحنبلي. وكان علي بن يوسف (ت 622/ 1225) أول من تقلد منصب قاضي القضاة في القاهرة على المذهب الشافعي.

كان أهم تطور حدث في النظام القضائي، مطلع عهد دولة المماليك، وتحديداً في

---

1 ـ التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، جـ 1 ص 253.

2 ـ إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص 737.

سنة 663/ 1265، عندما رأى السلطان الظاهر بيبرس تعيين قاضي قضاة لكل مذهب من مذاهب الأئمة الأربعة عند أهل السنّة: الشافعي، مالك، أبو حنيفة، وابن حنبل[1]. وقد طبق هذا الإجراء في القاهرة، حتى لا تضطرب الأمور بسبب اختلاف المذاهب، وكتب لكل قاضي قضاة «تقليد» بذلك، وهم: تاج الدين عبد الوهاب بن سيف الأعز في منصب قاضي قضاة الشافعية، شرف الدين السبكي (ت 668/ 1269) في منصب قاضي قضاة المالكية، شمس الدين محمد المقدسي (ت 676/ 1277) في منصب قاضي قضاة الحنابلة، وشمس الدين سليمان في منصب قاضي قضاة الحنفية.

مع تطبيق هذا الاجراء نفسه في دمشق، سنة 664/ 1266، تقلد ابن خلكان (ت 681/ 1282) قضاء قضاة الشافعية، وزين الدين عبد السلام الزواوي (ت 681/ 1282) قضاء قضاة المالكية، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر قضاء قضاة الحنابلة، وشمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء قضاء قضاة الحنفية.

واضطر المماليك للتهديد باستعمال القوة العسكرية للقضاء على المذاهب الأخرى، وبخاصة رواسب المذهب الاسماعيلي الفاطمي[2]، حيث لم يعد يسمح بالترشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو التدريس، إلا إذا كان المرشح من أتباع أحد هذه المذاهب الأربعة عند أهل السنّة.

3 ـ النظام الاقطاعي

ارتبطت نشأة الإقطاع الذي عرفته العصور الوسطى، في الشرق والغرب، بفكرة واحدة هي اشتداد تيار الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاطت بالحكام، ورغبة هؤلاء الحكام في بناء قوة عسكرية لدفع تلك الأخطار مع معرفتهم بعدم توفر المال اللازم لبناء هذه القوة العسكرية، لذلك وجدوا الحل في توزيع الأراضي على هيئة إقطاعات على الأتباع والمقربين، يستغلونها ويستفيدون من خيراتها، مقابل تعهدهم بالطاعة للحاكم وتلبية ندائه والخروج خلفه بالعدة والعدد وقت الخطر.

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 4 ص 35، 36.

2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 195.

ومن الثابت أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه هو الذي عمم نظام الإقطاع الحربي في الدولة السلجوقية سنة 480/ 1087، بعد أن أدرك أن البلاد لا تدر الأموال الكافية للصرف على الأجناد بسبب الخلل في النظام المالي، ففرق الإقطاعات على الأجناد وجعل لهم متحصلها لقاء ما يقدمونه من أجناد للسلطان[1].

سارت الأتابكية الزنكية على خطى السلاجقة، وما لبثت الإقطاعات أن أصبحت وراثية وذلك تشجيعاً لأصحابها في البقاء على الجندية. ففي سنة 558/ 1162، شرع نور الدين محمود في تنظيم عسكره، فأقرّ أولاد الجندي المتوفى على إقطاع أبيهم، فإن لم يكن له ولد، جعله لبعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد. وأصبح هذا الأمر مبدأ وتحول الإقطاع الحربي إلى أملاك يرثها الولد عن الوالد لأنه يقاتل عليها. وقد ساعد هذا الوضع نور الدين محمود في حروبه الكثيرة بعد أن شجع المسلمين على احتمال النفير في أي وقت يشاء[2].

ازدادت جذور النظام الاقطاعي رسوخاً في مصر وبلاد الشام زمن الدولة الأيوبية، عندما شعر صلاح الدين بالحاجة الماسة إلى قوة عسكرية تحمي سلطته في مصر، فطبق نفس النظام الذي رأى سيده نور الدين محمود يطبقه في بلاد الشام قبل أن يرسله إلى مصر، ووزع أرض مصر على هيئة اقطاعات، منح بعضها لإخوته وأبناء عمومته، والبعض الآخر وزعه بين قادة الجيش ورجاله، وبقي القليل من هذه الأرض على شكل ملكية حرّة أو أوقاف يشرف عليها العلماء.

كانت معظم التنظيمات التي طبقت في دولة المماليك، مأخوذة عن النظم التي كانت سائدة في الدولة الأيوبية، وفي طليعتها النظام الاقطاعي الذي بلغ ذروته زمن المماليك[3].

وقد ارتبط النظام العسكري في مصر وبلاد الشام، سواء زمن الدولة الأيوبية أو دولة المماليك، بالنظام الاقطاعي، وعلى أساسه تمكن الأيوبيون ثم المماليك من تأسيس جيش قوي تصدو به للفرنج ثم المغول، دون اغفال البحرية لمساندة هذا الجيش الذي يعتمد على الفرسان والمشاة. علماً أن الأسطول الفاطمي تحول إلى أقوى أسطول بحري في شرقي البحر المتوسط

1 ـ عماد الدين الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص 255.

2 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 8.

3 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1 ص 45.

زمن المعز لدين الله، حيث كان يضم حوالى مئتي سفينة، مما أدى إلى خشية الدولة البيزنطية التي كانت تمثل قوة بحرية كبيرة، فأصبحت مصر زمن الدولة الفاطمية تمثل مع بيزنطة أقوى دولتين بحريتين في البحر المتوسط. ثم تطرق الاهمال إلى البحرية الفاطمية، مع مجيء الحملة الصليبية الأولى، فلم يستطع الأسطول المصري الفاطمي الحفاظ على المدن الساحلية في بلاد الشام، ففقدت مصر قواعدها البحرية مثل عسقلان وصور وعكا. وعندما أسس صلاح الدين الأيوبي الدولة الأيوبية في مصر، اهتم بالبحرية، وأنشأ ديواناً خاصاً بها أطلق عليه اسم ديوان الأسطول وعهد به لأخيه العادل أيوب، ورفع رواتب البحارة نحو عشرين في المئة، لتشجيع الناس على الخدمة بالأسطول الذي أصبح يضم ثمانين سفينة من مختلف الأنواع. وأهملت البحرية بعد وفاة صلاح الدين، ولم يهتم بها زمن المماليك سوى السلطان الظاهر بيبرس الذي اعتمد عليها في مواجهة الفرنج، ثم أهملت من بعده، لاعتماد المماليك على الفروسية في المرتبة الأولى.

أما الفروسية، فهي نظام طبيعي في المجتمع العربي الإسلامي، تطور عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية، وأخذ يترسخ في المشرق العربي الإسلامي مع السلاجقة والفاطميين ثم الأيوبيين، حتى أصبح نظاماً عسكرياً خاصاً زمن الدولة المماليك في مصر وبلاد الشام.

تبدأ الفروسية المملوكية، بعد شراء السلطان مماليكه حيث يرسلهم إلى الطباق بالقلعة لتلقي التربية العسكرية. ويشتمل الطباق على عدة مساكن تتسع لألف مملوك[1]، ينزلون فيها وهم صغار السن ليتعلموا القرآن الكريم والصلاة والشريعة والخط. وعندما يبلغ المملوك سن البلوغ، ينتقل من التعليم الديني إلى التعليم الحربي من رمي السهام واللعب والرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل[2].

بعد تخرج المملوك من الطباق جندياً، يعتقه السلطان المملوكي من الرق ويقدم له الخيل والقماش والأسلحة، ليبدأ بمرحلة جديدة يتدرج معها في الوظائف من رتبة إلى أخرى

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 3، ص 375، 376.
الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص 277.
2 ـ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ 1، ص 234 ـ 236، 296.

حتى يبلغ منصب أميرة عشرة ثم أمير عشرينات ثم أمير طبلخاناه (لا يقل عن أربعين فارساً). وإذا واتاه الحظ، بلغ أمير مائة ومقدم ألف. ومن هؤلاء الأمراء يكون أكابر الوظائف، مثل نائب السلطنة وأتابك العسكر (قائد الجيش)، وأمير سلاح (يشرف على سلاح السلطان في المواكب العامة). لذلك تميز الفارس المملوكي، عن غيره من الفرسان الذين سبقوه سواء زمن الفاطميين أو الأيوبيين، واشتهر بالشجاعة والاقدام، وإن كان الضعف قد تطرق إلى الفروسية المملوكية أواخر حكم دولة المماليك.

وكان المماليك أول من استعمل سلاح المدفعية في المشرق العربي الإسلامي، في سنة 743/ 1342، أي بعد سبع عشرة سنة على استخدامه في أوروبا. وسنة 895/ 1490، استعمل المماليك البندقية لأول مرة، وتم انشاء وحدات خاصة بها لمساندة سلاح المدفعية أثناء الحصار. لكن المماليك تمسكوا بالفروسية وأهملوا المدفعية والبنادق، لذلك حلت بهم الهزيمة أمام الجيش العثماني الذي انتصر لاعتماده بصورة رئيسية على سلاح المدفعية وحملة البنادق سواء في معركة مرج دابق أو معركة الريدانية حيث سقطت دولة المماليك في بلاد الشام ومصر سنة 923/ 1517.

4 ـ المجتمع وعزلة العنصر العربي

لم تعتمد الدولة الفاطمية في القاهرة، على العنصر العربي في الجيش والبحرية، فاستمر هذا العنصر بعيداً عن الجندية، يتعاطى الزراعة والتجارة والحرف المختلفة، في حين أكثر الفاطميون من الاعتماد على الجنود المرتزقة. وبذلك تحول الجيش الفاطمي إلى خليط من الترك والسودان والمغاربة والصقالبة والروم والأرمن، وهم جميعاً من المرتزقة الذين يعتاشون من الحرب والقتال. ولا غرو بعد ذلك أن تبدأ مرحلة الضعف التي مرت بها الدولة الفاطمية طيلة حوالى القرن (468 ـ 567/ 1075 ـ 1171) حيث آلت فيها السيطرة للوزراء الفاطميين، ومعظمهم من أصل أرمني غير عربي، وأولهم بدر الجمالي الأرمني الذي تولى الوزارة مدة عشرين سنة (468 ـ 487/ 1075 ـ 1094)، ليخلفه ابنه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مدة ثمان وعشرين سنة (487 ـ 515/ 1094 ـ 1121)، كما تولاها حفيده الوزير الأكمل بن الأفضل مدة سنتين (524 ـ 526/ 1130 ـ 1132)، ومن بعده الوزير يانس الأرمني ثم الوزير بهرام الأرمني.

استمرت الخلافة الفاطمية في القاهرة طيلة قرنين من الزمان (361 ـ 567/ 972

ـ 1171)، اتبعت خلالها سياسة التسامح مع الطوائف والمذاهب الأخرى، فلم يفرض الفاطميون المذهب الاسماعيلي «الشيعي» بالقوة، بل تفاعلوا مع الشعب المصري، المتمسك في غالبيته بالمذهب السني، مذهب الخلافة العباسية في بغداد، وابتدعوا أعياداً جديدة لم تكن معروفة من قبل لادخال الفرح إلى قلوب المصريين مثل: المولد النبوي الشريف، مولد الحسين ومولد السيدة زينب عليهما السلام. كما ابتدعوا الاحتفالات، بليلة الإسراء والمعراج، وليلة نصف شعبان، ورؤيا هلال رمضان، إضافة إلى ليالي رمضان حيث يكثر بيع الحلوى واللعب.

وعلى الرغم من طول حكم الفاطميين الذي استمر نحو قرنين في مصر، فقد تمسك الشعب المصري بالمذهب السنّي. ومع ذلك فإن هذا الشعب المصري، وغالبيته من المسلمين السنّة، لا يزال، على غرار معظم مدن الوطن العربي، متمسكاً بالأعياد والاحتفالات التي ابتدعها الفاطميون، ويزور مشهد الحسين ومقام الست زينب عليهما السلام، تبركاً، في الحي الذي يحمل اسم كل منهما في القاهرة.

ومع الدولة الزنكية ثم الدولة الأيوبية، دخلت الكثير من العناصر غير العربية إلى بلاد الشام، بقصد الجهاد ضد الفرنج، أو بحثاً عن حياة اقتصادية أرفع شأناً من المناطق التي نزحت منها، مثل الأتراك والأكراد والتركمان، وقد غدت ركناً أساسياً في الجيش وفي مجتمع بلاد الشام فتركت آثاراً بصماتها واضحة في البناء الحضاري للمجتمع العربي الكبير في بلاد الشام، وخاصة في ما يتعلق بالنظم واللغة والعادات والتقاليد، فاتخذ هذا المجتمع طابعاً جديداً مميزاً في تلك المرحلة.

وحفلت المدن الكبرى في بلاد الشام مثل: دمشق وحلب وحمص وحماه وشيزر، بحياة اجتماعية نشطة، ساعد عليها توافر الثروة والمال، على الرغم من الظروف القاسية التي مرت بها معظم هذه المدن مع الحملات الصليبية المتتابعة. وبدا هذا النشاط الاجتماعي في الأعياد الدينية التي يشارك فيها جميع المسلمين، مثل عيد الفطر وعيد الأضحى ومولد النبي ﷺ. وفي يوم عرفة، كان أهل دمشق يتوضأون ليقفوا داخل المساجد بعد صلاة العصر حتى غروب الشمس، سائلين الله تعالى ببركة الساعة[1]. وأجمل تظاهراتهم، نساءً ورجالاً، تبدو في استقبال

---

1 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 278.

الحجاج بعد أداء الفريضة[1].

أما الاحتفالات الخاصة في مناسبات معينة، فأشهرها الاحتفال الذي أقامه نور الدين محمود بختان ابنه الصالح اسماعيل في عيد الفطر سنة 569/ 1183، حينما زينت مدينة حلب، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء[2]. وكانت الحمامات، مركزاً للنشاط الاجتماعي، في ذلك الوقت. ففي الحمام، تتم معاينة العروس المرشحة للزواج، وفيه تتم لقاءات نساء المدينة الواحدة لتبادل الأخبار والتباهي بالجمال وما يتوافر من الحلى. وبعض هذه الحمامات بني على آبار الماء، في حين كان الماء يساق إلى البعض الآخر. وبلغ عدد حمامات دمشق سبعة وخمسين حماماً[3]. وعندما زار ابن جبير مدينة دمشق في رحلته الأولى (578 ـ 581/ 1183 ـ 1185) ارتفع عدد الحمامات إلى مائة حمام[4].

وأقام نور الدي محمود بن زنكي حماماً بجانب دار المسرة التي أنشأها في دمشق، كما أنشأ صهاريج للمياه داخل مدينة حلب ليشرب منها الأهالي[5].

ومع سيطرة العناصر غير العربية التي تداخلت في المجتمع العربي الإسلامي، سواء في بلاد الشام أو مصر، برزت ظاهرة جديدة لم يعرفها هذا المجتمع من قبل، وهي التصوف الذي يعني من حيث الشكل ظاهرة دينية، ولكنه في جوهره يعني هروب العربي المسلم من الواقع الجديد الذي عرفه مع ضعف الخلافة العباسية «العربية» وسيطرة العناصر الإسلامية غير العربية على السلطتين السياسية والعسكرية مع إدراك هذه العناصر أهمية السلطة الروحية التي تتمتع بها الخلافة العباسية على الرغم من ضعفها، فتسابقت لنيل رضاها الروحي لسبغ الشرعية حول السيطرة والنفوذ.

أكثر العنصر العربي من انشاء الخانقاوات والزوايا في بلاد الشام، ملتمساً العودة للتمسك بالدين عن طريق الزهد والعبادة، أي التصوف بدل الجهاد في سبيل الله تعالى. فكان نورالدين محمود بن زنكي يقرب مشايخ الصوفية منه، ويقدم لهم المساعدة من بيت المال، وكأنه

1 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 275.

2 ـ ابن العديم: زبدة الحلب، حـ 2 ص 340.

3 ـ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ 2، ص 162.

4 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 277.

5 ـ ابن شحنة: الدر المنتخب، ص 133، 134.

راضٍ عن ابتعاد العنصر العربي وعدم تزعمه حركة الجهاد ضد الفرنج. وكان صلاح الدين الأيوبي أول من أقام الخانقاوات في مصر، على غرار ما فعله قبله نور الدين محمود في بلاد الشام، ليسكنها المتصوفة. وبذلك انتشرت الصوفية، حيث بلغت ذروتها مع كثرة الخانقاوات والزوايا التي اهتم بها سلاطين الأيوبيين، ثم سلاطين المماليك من بعدهم. وكأن الهدف هو تشجيع العنصر العربي على التصوف والتبرك بشيوخ الصوفية، لالهائه عن التفكير باستعادة السلطة التي آلت إلى العناصر غير العربية.

وقد حظي الفلاح المصري، أبن أرض النيل، بقدر من الرعاية والعناية المحدودة في ظل الدولة الأيوبية، في حين تعرض للاهمال والاحتقار في ظل دولة المماليك. ولعل ذلك، يعود إلى أن الأيوبيين هم من الأكراد الأحرار، وليسوا من الرقيق على غرار المماليك الذين أكثر الأيوبيون من شرائهم وتدريبهم ليكونوا دعامة الجيش، فنفر المماليك من العنصر العربي الذي أصبح في غالبيته من الفلاحين.

وحينما آلت السلطة إلى المماليك وزعت أرض مصر بين سلاطين المماليك وأمرائهم وأجنادهم دون أن يكون للمصريين العرب، وهم أصحاب الأرض، نصيب فيها. وكان على المقطع أن يؤدي خدمات اقطاعية للسلطان، أهمها الخدمة العسكرية، وهي أساس فكرة الاقطاع. وبذلك تحول ابن مصر الحقيقي، الفلاح المصري، إلى العمل في خدمة السلاطين والأمراء، يفلح الأرض وليس له من خيراتها إلا القليل. ولم تكن حياة الفلاح في بلاد الشام أحسن منها في مصر.

عاش المماليك في عزلة عن عامة الشعب في مصر وبلاد الشام، وهي العامة التي يغلب عليها العنصر العربي، فشكلوا طبقة داخل مجتمع مغلق خاص بها، لأنها تشكل الطبقة الحاكمة، التي تتحدث باللغة التركية. ونادراً ما تزوج المماليك من بنات مصر، فقد انحصرت عملية الزواج ببنات الأمراء من أصل تركي أو جركسي، في حين أصبح العنصر العربي يمثل أدنى الطبقات في المجتمع، وزادت الهوة بينه وبين المماليك غير العرب.

احتقر المماليك الفلاح المصري، وأصبحت كلمة فلاح تعني الشتيمة، فإذا تجرأ أحد العوام على بعض المماليك، صاحوا فيه: اخرس يا فلاح يا كلب. وقد أدى موقف المماليك المتشددين من الفلاح المصري، إلى إصابة أهل الريف المصري، بمركب الشعور بالنقص.

فعاش الفلاح، يفني حياته في خدمة أرض مصر الزراعية، وليس له من خيراتها إلا القليل، فظلت هذه الخيرات نهباً موزعاً بين سلاطين المماليك وأمرائهم ومماليكهم. لا يأكل الفلاح في أفخر مأكوله إلا الشعير والجبن القريش والبصل. وقد قضى ابن خلدون فترة من حياته في مصر والشام زمن دولة المماليك، فذكر أن الفلاحة معاش المستضعفين ويختص أهلها بالذلة. فقد تعرض الفلاح لاستغلال أمواله ونسائه وأولاده، وكثيراً ما تعرضت قرى الصعيد لنهب الغلال، وسلب النساء حليهن وكسوتهن. ولعل هذه المظالم، هي التي دفعت الكثيرين إلى ترك قراهم والنزوح إلى القاهرة.

وكان الفلاح المصري أحد أركان العنصر العربي صاحب أرض مصر، لذلك لم يسمح له بحمل السلاح، وحرم من شرف الخدمة في الجيش للدفاع عن أرضه اثناء الصدام مع الفرنج والمغول.

وهكذا بدأت عزلة العنصر العربي في المشرق العربي الإسلامي مع سيطرة العناصر غير العربية على السلطتين السياسية والعسكرية، منذ بدء «عصر الوزراء» في الدولة الفاطمية، سنة 468/ 1075 ومعظم هؤلاء الوزراء من أصل أرمني غير عربي، ومع سيطرة الدولة الزنكية على الموصل وبلاد الشام، وأتابكة هذه الدولة من الأتراك غير العرب. لتزداد عزلة العنصر العربي، مع قيام الدولة الأيوبية «الكردية» غير العربية سنة 569/ 1174، مرور بدولة المماليك «الأتراك» الأولى غير العربية (648-784/ 1250-1382) ودولة المماليك «الجراكسة» الثانية غير العربية (784-923/ 1382-1517)، حتى نهاية دولة العثمانيين «الأتراك» غير العربية التي حكمت المشرق العربي الإسلامي طيلة أربعة قرون متتالية (923-1337/ 1517-1918).

5 - العمران

عندما دخل القائد جوهر الصقلي إلى مصر سنة 358/ 969، واستولى على الاسكندرية ثم الجيزة، اتخذ من السهل الرملي الخالي من البناء والعمران شمال شرق الفسطاط معسكراً للجيش الفاطمي، ويبعد هذا السهل حوالى 1600 متر عن نهر النيل ويحده شرقاً جبل المقطم.

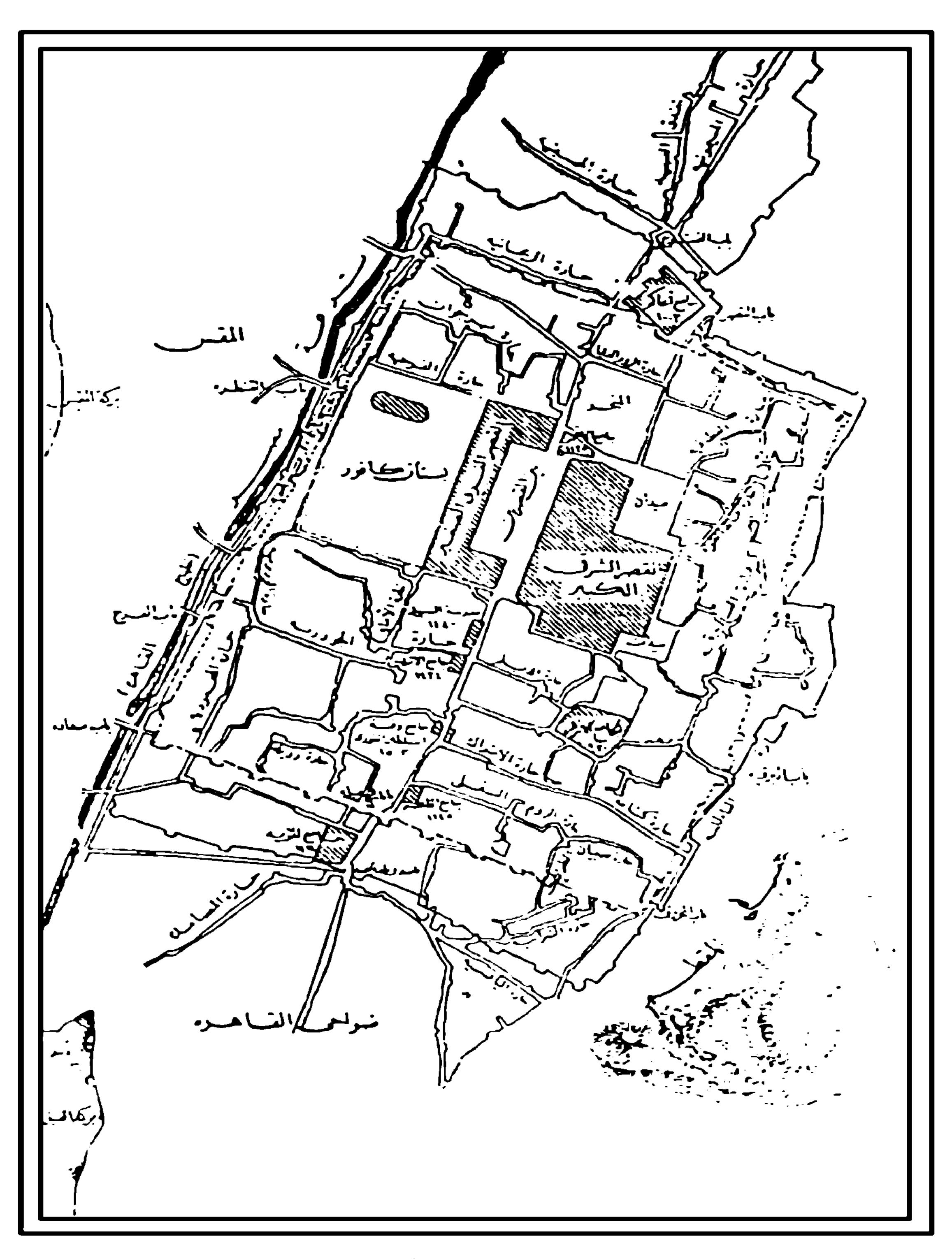
اقتطع جوهر حوالى 340 فداناً من السهل، اقام بداخلها «القصر المعزي» الذي يحتوي على أربعة آلاف حجرة، ليستقبل فيه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله. فكان هذا القصر بمثابة النواة التي تأسست معها مدينة القاهرة، قبل أن يعرف باسم «القصر الشرقي الكبير»

تمييزاً له عن القصر الغربي الصغير الذي بناه الخليفة العزيز بن المعز، كما عرفت الساحة التي تتوسطهما باسم «بين القصرين». ثم أحاط القصر بسور سميك على شكل مربع طول ضلعه حوالى 1100 متر، ومبني من الطوب اللبن[1]. وكان يتخلل السور سبعة أبواب، هي: باب زويلة المزدوج الأقواس، باب سعادة، باب الفرج، باب الفتوح، باب النصر، باب البرقية نسبة إلى أهل برقة (باب الدراسة الآن)، وباب القراطين (باب المحروق زمن المماليك).

سكن الخلفاء الفاطميون القاهرة، إلى جانب الدواوين وثكنات الجيش. بعيداً عن عامة الناس الذين يسكنون في الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص سنة 20/ 641، وفي العسكر التي بناها صالح بن علي العباس سنة 132/ 749، وفي القطائع التي بناها أحمد بن طولون سنة 256/ 870. وبذلك أصبحت القاهرة عبارة عن مدينة حربية منعزلة عن المناطق الثلاث التي يسكنها عامة المصريين، ثم أصبح اسمها في ما بعد يشير إلى جميع المناطق المحيطة بها والتي تحولت إلى أحياء داخل القاهرة.

---

1 ـ المقريزي: الخطط، جـ 2 ص 205.



القاهرة داخل السور والأبواب السبعة

ثم بدأ العمل لانشاء جامع الأزهر الذي افتتح رسمياً يوم الجمعة 7 رمضان 361/ 21 حزيران 972، ولعله سمي كذلك تيمناً باسم فاطمة الزهراء ابنة النبي العربي محمد ﷺ التي ينتسب إليها الفاطميون، وأصبح هذا الجامع مركزاً لنشر الدعوة الاسماعيلية الفاطمية.

كانت القاهرة زمن الفاطميين مقراً لبلاط الخلفاء وما يتعلق به من المواكب والاحتفالات ومظاهر الأبهة والعظمة، ومع ذلك لم تبلغ المركز الاقتصادي والعمراني الذي بلغته زمن الأيوبيين ثم المماليك.

يرجع الفضل في نمو القاهرة وازدهارها إلى صلاح الدين الأيوبي الذي امر بهاء الدين الأسدي ببناء سور القاهرة والفسطاط (مصر القديمة) وذلك سنة 567/ 1171. وقام السور يجمع في داخله المدينتين بعد أن كان لكل منهما سور زمن الفاطميين، واضطر بهاء الدين لهدم جوامع وبيوت كثيرة كانت قائمة مكان السور الجديد.

وزيادة في تحصين القاهرة، وتفادياً لما حدث من الثورات الداخلية على يد الفاطميين، أخذ صلاح الدين يفكر ببناء قلعة القاهرة داخل نطاق السور، واستغرق بناؤها حوالى سبع سنوات (572 ـ 579/ 1176 ـ 1183). وتقوم القلعة فوق جبل المقطم وتشرف على القاهرة، لذلك عرفت بقلعة الجبل أو قلعة القاهرة[1]. التي تحولت إلى حصن منيع يتصل بالقاهرة عبر أبوابها الثلاثة، وهي: الباب المدرج الشمالي، الباب الجنوبي، والباب الشرقي. وبداخلها بئر يؤمن حاجة الحامية من الماء، عرف ببئر يوسف نسبة إلى صلاح الدين الذي يدعى «يوسف». ثم ارتفعت العمائر والدور الضخمة والمنازل والأسواق والجوامع والمدارس حتى نمت القاهرة واتصلت بالفسطاط[2] التي تحولت إلى جزء من العاصمة.

ازدهرت القاهرة زمن الدولة الأيوبية، وارتفع بعض الدور فيها إلى طبقتين وأربع طبقات، جرى تبييض جدرانها بالكلس الأبيض[3]. وانتشرت فيها الحمامات العامة التي تحتوي على مقاصير بأبواب وأحواض تجري فيها المياه الساخنة والباردة حيث يعهد الناطور بحفظ ثياب الناس[4].

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 51: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 3، ص 368.

2 ـ المقريزي: الخطط، جـ 1، ص 378.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 3، ص 353.

4 ـ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 87، 88.

لم يقتصر العمران على القاهرة وحدها، فقد شهدت دمشق وشيزر وطرابلس وحلب وسائر مدن بلاد الشام نهضة عمرانية أيضاً. فعندما زار ناصر خسرو مدينة طرابلس، أعجب بجمال عمائر المدينة وارتفاع بعضها ست طبقات[1]. وفي شيزر، اهتم أمراء بنو منقذ باقامة العمائر والقصور الشامخة، لتمتد هذه النهضة العمرانية إلى كفرطاب التابعة لها[2].

وكانت أسواق مدينة دمشق تتركز قرب المسجد الجامع والقلعة[3]، وتتفق في تنظيمها وترتيبها والطابع العربي الإسلامي العام للأسواق في بقية المدن، حيث يوجد سوق خاص لكل سلعة أو صنف، مثل: سوق الصاغة، سوق الحدادين، سوق النحاسين، سوق الزجاج، سوق القمح، سوق البطيخ أو الفاكهة...

بسقوط بغداد ومعها الخلافة العباسية على يد المغول سنة 656/ 1258، ارتفعت مكانة القاهرة التي أضحت مركزاً لخلافة عباسية «شكلية» أو «صورية» أقامها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، ليقيم معها الخليفة العباسي في أحد أبراج القلعة، وكأنه في إقامة جبرية، تحت اشراف وسيطرة المماليك. فتحولت الشهرة التي تمتعت بها بغداد قروناً طويلة إلى القاهرة الحاضرة الجديدة للمشرق العربي الإسلامي[4].

نظم المماليك البريد البري والجوي، داخل مصر، وفي بلاد الشام. وكان مركز البريد في قلعة الجبل في القاهرة التي يتفرع منها أربعة طرق برية نحو الوجه القبلي جنوباً، والبحر الأحمر شرقاً، والاسكندرية وبرقة غرباً، ودمياط وغزة شمالاً. ومن غزة يتفرع البريد إلى سائر بلاد الشام. أما البريد الجوي، فيعتمد على الحمام الزاجل في أبراج خاصة به في القلعة بالقاهرة. وفي بلاد الشام، أنشأ المماليك البريد بين بيروت ودمشق، وبين بيروت وصيدا[5].

---

1 ـ ناصر خسرو: سفر نامة، ص 13، 14.

2 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 4، ص 357، 358.

3 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 287.

4 ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، جـ 2، ص 66.

5 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 35.

6 ـ الفكر والآداب والعلوم

(أ) دار الحكمة (395/ 1005)

كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386 ـ 411/ 996 ـ 1020) يميل إلى حرية الفكر والمعتقد، فأنشأ دار الحكمة التي افتتحت سنة 395/ 1005، وألحق بها مكتبة ضخمة أطلق عليها اسم «دار العلم».

وكان الهدف من افتتاح دار الحكمة ومعها دار العلم، أن تكون مركزاً للفقه الشيعي، واعداد المتخصصين في هذا الفقه ليصبحوا دعاة للمذهب الاسماعيلي الفاطمي. لكن هذه الدار ما لبثت أن تحولت إلى أكاديمية علمية بكل معاني الكلمة، تقوم فيها الندوات العلمية والدينية تحت اشراف الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله نفسه الذي نقل إليها كثيراً من الكتب التي تتعلق بأهل السنّة أيضاً، حتى أصبحت مكتبة دار العلم تحتوي على ما يقارب ستمائة ألف كتاب في شتى العلوم والآداب، يقبل عليها العلماء والطلبة، والناس على اختلاف طبقاتهم، من مختلف مناطق مصر وبلاد الشام، دون تفرقة بين مذهب وآخر. ووفر الخليفة لدار الحكمة، امكانيات ضخمة، فجعل فيها ما يحتاج إليه الزائر من الأقلام والورق والمحابر[1]، ما يسهل عملية النسخ أو التعلم.

وحتى الجامع الأزهر الذي افتتحه الفاطميون رسمياً يوم الجمعة 7 رمضان 361/ 21 حزيران 972، فكان الهدف منه أن يكون مركزاً لعلوم الشيعة وتدريس الفقه الشيعي على المذهب الاسماعيلي الفاطمي. ومع ذلك، كان تيار الفكر في الإسلام أقوى بكثير من هذا الهدف المحدد، فلم يلبث الأزهر أن خفف بسرعة من صفته المذهبية، ولم تمض سنوات على انشائه حتى جلس فيه بعض علماء السنّة لتدريس الفلسفة والمنطق والرياضيات وغيرها[1] أثناء حكم الدولة الفاطمية نفسها.

ومما يؤخذ على صلاح الدين الأيوبي، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية في القاهرة سنة 567/ 1171، وتأسيسه الدولة الأيوبية أنه لم يحافظ على مكتبة دار العلم، بحجة أن دار الحكمة، ما لبثت أن اقتصرت أواخر عهد الدولة الفاطمية على العلوم المتعلقة بالمذهب

---

1 ـ المقريزي: الخطط، جـ 1 ص 457، 458.

الاسماعيلي الفاطمي فقط. فقد بيعت هذه المكتبة العظيمة سنة 572/ 1176، واشترى العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل بعض الكتب.

إنه قدر العلم والمعرفة، في صراع حول السلطة وتداولها، ودخول العنصر المذهبي في هذا الصراع، لتضيع معارف كثيرة ومئات آلاف الكتب، عبر التاريخ، دون أن يتعلم المنتصر الذي تؤول إليه السلطة، أن الحفاظ على تراث المهزوم، يضيف نصراً آخر لتراث المنتصر، والعلم يسمو بالخروج من الدوائر المذهبية الضيقة. ومع ذلك، فإن بيع المكتبة الفاطمية أمر بسيط أمام قضاء المغول على الخلافة العباسية في بغداد سنة 656/ 1258، وعلى مكتبتها الكبرى باحراق مئات ألوف الكتب والمحفوظات أو اغراقها في نهر دجلة الذي يقال أن مياهه اصطبغت بلون حبر الكتب الذي نسخت به، دون اغفال قتل العلماء والأدباء.

(ب) المدارس

كان المسجد المكان الطبيعي الذي شكل المدرسة الأولى في الإسلام، لأن أبوابه كانت مفتوحة أمام الجميع، ولم يقتصر التدريس فيه على العلوم الدينية، بل تعداه يوماً بعد يوم لتدريس شتى ألوان المعارف والعلوم. ففي رحاب المساجد انتشر الصحابة فالتابعون ثم شيوخ العلم، والتف حولهم طلاب العلم والمعرفة على هيئة حلقات، حتى إذا ما أخذ الطالب كفايته عن شيخ انتقل إلى شيخ آخر.

ومع اتساع النشاط الفكري والثقافي، وازدياد تنوع الدراسات والعلوم، لم تعد المساجد قادرة على استيعاب هذا النشاط العلمي المتزايد الكم والمتعدد الاتجاهات، بعد أن أدرك العلماء بأن المعرفة لا تحصل إلا بالعمل واجراء التجارب. وبذلك ظهرت فكرة المدرسة في الإسلام، وهي نوع جديد من المؤسسات، يمكن أن يعيش بين جنباتها العلماء وطلاب العلم، وأن تستوعب العلوم المتعددة.

ولا يجوز أبداً، اسناد فكرة تأسيس أول مدرسة في الإسلام إلى عهد معين أو حاكم معين، لأن المدرسة نشأت بصورة تدريجية، انطلاقاً من المسجد، وتطورت حتى اكتملت معالمها عهد السلاجقة الذين دخلوا بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة 447/ 1055، فتأسست فيها المدرسة النظامية التي حملت اسم أحد علماء الفرس نظام الملك (ت 485/ 1092) وكان وزيراً للسلطان السلجوقي ملكشاه (465 ـ 485/ 1073 ـ 1092).

لذلك، لا يمكن اغفال أهمية دار العلم في القاهرة التي افتتحها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 395/ 1005، أي قبل تأسيس المدرسة النظامية في بغداد بأكثر من ثلاثة أرباع القرن. وكذلك المدرسة البيهقية التي بناها أهل نيسابور[1]، ليبني لهم الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة أخرى، ويسير أخوه السلطان محمود بن سبكتكين (388 ـ 421/ 998 ـ 1030) على منواله ويبني المدرسة السعيدية. فتكون نيسابور سبقت الفاطميين والسلاجقة معاً في تأسيس المدرسة التي اكتملت معالمها، دون أدنى شك، مع المدرسة النظامية في بغداد.

وهكذا أقبل الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء على انشاء المدارس والعناية بها، حتى غدت هذه المدارس جامعات بالمعنى الحديث الذي نعرفه اليوم، دون أن تضع هذه المدارس حداً لرسالة المساجد في التدريس، وإن كان دور المسجد قد تراجع أمامها بالنسبة للتدريس، فغلبت على المسجد صفة العبادة، وغلبت على المدرسة صفة التدريس.

أدرك نور الدين محمود أهمية المؤسسات التعليمية، فأنشأ المدارس الجديدة وأصلح المدارس القديمة، وأشهرها في دمشق المدرسة النورية التي تحمل اسمه، والمدرسة العمادية التي اشتهرت باسم مدرسها العماد الأصفهاني، والمدرسة الصلاحية التي نسبت خطأ إلى صلاح الدين الأيوبي، ومدرسة جامع القلعة. وفي حلب اشتهرت المدرسة الحلاّوية والمدرسة النفرية النورية. واقتدت به زوجته عصمة خاتون، فأنشأت مدرسة حملت اسمها هي المدرسة الخاتونية.

وفي القاهرة، أنشأ صلاح الدين الأيوبي المدرسة الناصرية التي حملت لقبه الناصر، وذلك بجوار جامع عمرو بن العاص ثم أصبحت تعرف باسم المدرسة الشريفية. ثم أنشأ المدرسة القمحية والمدرسة الصلاحية الناصرية بجوار قبة الإمام الشافعي، والمدرسة السيوفية. كما أنشأ القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية التي حملت اسمه.

وجرت العادة، بعد انشاء المدرسة، أن يوقف مؤسسها الأوقاف الواسعة لينفق من ريعها على المدرسة حتى تقوم بأداء رسالتها، وهذا لا يمنع أن يقدم أحدهم على وقف الأوقاف على مدرسة سبق أن شيدها غيره. حتى بلغت الأوقاف على المدارس والمساجد والزوايا في مصر منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، مائة وثلاثين ألف فدان من أجود

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 2، ص 361، 362.

الأراضي الزراعية[1]، هذا فضلاً عن البيوت والمتاجر.

فقد استمر تأسيس المدارس عهد المماليك، لتشهد المدرسة، قيام وظيفة جديدة هي «المعيد»، لمعاونة المدرس، وسمي معيداً لأن وظيفته الأساسية أن يعيد الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ويشرح لهم ما يحتاجون إليه من الشرح[2]. وهذه الوظيفة الجديدة أخذتها الجامعات الأوروبية الحديثة عن المسلمين.

وألحقت بكل مدرسة خزانة كتب باشراف خازن الكتب لتسهيل البحث والاستقصاء أمام المدرسين والمعيدين والطلاب[3].

وهذه النظم التي عرفتها المدارس في المشرق العربي الإسلامي، والتي وفرت للمدرسين والمعيدين والموظفين والطلبة كل امكانيات الراحة من مسكن ومأكل وملبس مجاني، ومطبخ، وحمام، وطبيب خاص يحضر كل يوم للاطمئنان على صحة الطلبة، لم تعرفها الجامعات الأوروبية إلا بعد قرون طويلة.

(جـ) البيمارستانات والأطباء

تبقى أهم منجزات نور الدين محمود بن زنكي، البيمارستان النوري الذي وقفه على الفقراء دون الأغنياء، وولى أمره للطبيب أبي المجد[4]، وارتفع شأن هذا البيمارستان زمن صلاح الدين الأيوبي[5].

إنّ ازدهار البيمارستانات سواء في القاهرة[6] أو دمشق وغيرها من المدن، إضافة إلى كثرة الأطباء، يشير إلى رواج صناعة الطب زمن صلاح الدين بخاصة، وزمن الحروب الصليبية بشكل عام، هذه الحروب التي استدعت ويلاتها ومصائبها اهتماماً زائداً بمهنة الطب التي أظهرت مدى تفوقها في المشرق العربي الإسلامي على مثيلتها في غرب أوروبا، حتى وصل الأمر إلى إرسال صلاح الدين الأيوبي طبيبه الخاص ليعالج ملك انكلترة رتشارد قلب الأسد.

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 4 ص 84، 85.

2 ـ الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ 33 ص 164.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 1 ص 467.

4 ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جـ 2 ص 155.

5 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 274.

6 ـ المصدر نفسه، ص 24.

وقد اشتهر موسى بن ميمون (ت 601/ 1204) وهو الطبيب الخاص لصلاح الدين وابنه الأفضل[1]. كما حظي بعض الأطباء بمنزلة لدى السلطان مثل الموفق ابن شرعة (ت 579/ 1182)[2]، والشيخ السديد (ت 580/ 1184)[3]، وموفق الدين ابن المطران (ت 587/ 1191) الذي وضع مقالة طبية تحمل لقب السلطان الناصر، وهي «المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية»[4].

وهذا النشاط في علم الطب، لم يقتصر على الرجال، فقد اشتهر من النساء عدد غير قليل، مثل أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، وكانتا عالمتين بصناعة الطب، وبمداواة النساء.

د ـ المؤرخون

عرف المشرق العربي الإسلامي، منذ انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة 362/ 973 حتى سقوط دولة المماليك الثانية سنة 923/ 1517، العديد من كبار المؤرخين الذين تحولت مؤلفاتهم إلى أهم المصادر لتغطية الأحداث الكثيرة في تلك المرحلة الطويلة، بعد أن عاصر بعضهم الدولة الفاطمية، ليعاصر البعض الآخر الدولة الزنكية أو الدولة الأيوبية أو الدولة المملوكية، وأحياناً يعاصر البعض أواخر عهد دولة ومطلع عهد الدولة التي حلت مكانها. لذلك، فإن المؤرخ، كشاهد عيان في عصره، هو المؤرخ الحقيقي، لأنه كان مقرباً من صانعي الأحداث التاريخية.

برز بعض المؤرخين عهد نور الدين محمود زنكي الذي عرف بعهد الدولة النورية، وعهد صلاح الدين الأيوبي الذي عرف بعهد الدولة الصلاحية، فقد عايش هذين العهدين: الأمير أسامة بن منقذ، عماد الدين الأصفهاني، ابن الأثير، وابن شداد، فكتبوا عن عهد هاتين

---

1 ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 582، 583.

2 ـ المصدر نفسه، ص 581، 582.

3 ـ المصدر نفسه، ص 579، 580.

4 ـ المصدر نفسه، ص 651 ـ 659.

الدولتين أو فترة معينة منهما، وحده أبو شامة (ت 665/ 1267) وضع كتاباً يحمل اسم الدولتين، وهو «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، قبل أن يضع كتابه الآخر «الذيل على الروضتين» أو «تراجم رجال القرنين السادس والسابع للهجرة».

شهد الأمير أسامة بن منقذ (ت 584/ 1188) أحداث عصره، وأسهم بنفسه في تلك الأحداث، فهو ينتمي إلى أمراء بني منقذ ومركزهم شيزر وضواحيها وهم من الأمراء العرب في بلاد الشام، حيث عاش، قبل أن ينتقل إلى مصر، أواخر عهد الدولة الفاطمية، وأثناء الصراع حول الوزارة، ليشارك في أحداثها داخل قصورها. وما لبث أن وضع كتاب الاعتبار ليؤرخ لأمراء بني منقذ في شيزر، فإذا به يؤرخ لتلك الفترة التي عاشها في بلاد الشام ومصر.

وعماد الدين الأصفهاني (ت 597/ 1201)، هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الذي خدم نور الدين محمود بن زنكي حتى وفاته سنة 569/ 1174، ليتصل بصلاح الدين الأيوبي عن طريق القاضي الفاضل أبو علي مجير الدين (ت 596 / 1200). وقد وضع كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» وهو تاريخ لصلاح الدين الأيوبي منذ انتصاره في معركة حطين ودخوله بيت المقدس سنة 583 / 1187 حتى وفاته سنة 589/ 1193. كما وضع كتاب «البرق الشامي» الذي يبدأ منذ وصول العماد الأصفهاني إلى بلاد الشام سنة 562/ 1167، حيث عمل سبع سنوات في خدمة نور الدين، وينتهي ايضاً بوفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 589/ 1193. وله أيضاً كتاب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» الذي يتضمن تراجم شعراء عصره حسب مناطقهم الجغرافية.

أما ابن الأثير (ت 630/ 1234)، فهو عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني. ولد سنة 555/ 1160 في جزيرة ابن عمر التي يحيط نهر دجلة من ثلاث جهات، وهي قريبة من الموصل، ونسب إليها فعرف بابن الأثير «الجزري»، ثم انتقل إلى الموصل مع والده واخوته ليستقر فيها. وكان يتردد على بغداد، وزار حلب سنة 620/ 1224، ثم دمشق سنة 627/ 1231، ثم عاد إلى حلب سنة 628/ 1232، ثم توجه إلى الموصل، حيث توفى سنة 630/ 1234.

كان ابن الأثير محصلاً للعلم ومدرساً، ومؤلفاً نشيطاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين. فقد وضع كتاب «اللباب» وهو مختصر كتاب «الأنساب» لأبي سعد عبد الكريم السمعاني. وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» وهو عبارة عن معجم مرتب على حروف الهجاء في تاريخ الصحابة.

أما كتبه التي تتعلق بالفترة التي عاشها كشاهد عيان على أحداثها، فأولها كتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» وهو تاريخ الموصل عهد أسرة عماد الدين زنكي، بدأه بسرد أخبار قسيم الدولة أقسنقر ـ والد عماد الدين زنكي ـ سنة 477/ 1084. ثم عالج فيه تاريخ الزنكيين وامتداد نفوذهم إلى بلاد الشام. ويعد كتابه هذا من أهم مصادر الحروب الصليبية، وبخاصة عهد عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود، وهو أيضاً يشكل اعترافاً من ابن الأثير بفضل الزنكيين عليه وعلى بيته وأسرته. واختتم الكتاب بالملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة 607/ 1211. وهذا الاعتراف بفضل الزنكيين، تجلى بصورة أوضح في كتابه الآخر «الكامل في التاريخ» الذي يعد من المصادر الخالدة التي تعتمد الدقة وتحري الحقيقة.

يعد كتاب «الكامل في التاريخ» أشهر تصانيف ابن الأثير، وأعظم مؤلفاته التي تدخل جميعها في دائرة التاريخ. فقد اعتمد ابن الأثير في جمع مادة هذا الكتاب على أدق المصادر وأوثق الكتب، فأخذ عن المصادر الأصلية أو المعاصرة، وتحرى الحقيقة في ما يكتب، وتحمل هو عناء مقارنة الروايات والأسانيد حتى توصل إلى الحقيقة في كل من الحوادث، ثم ذكر الخلاصة الأقرب إلى الصواب، فكفى القارىء مؤونة الحيرة بين عدد كبير من الروايات حيث لا يدري أيها أقرب إلى الصواب. وكانت كتب التاريخ قبله، تهتم إما بأحداث العالم الإسلامي في المشرق وإما بأحداثه في المغرب، فجاء الكامل في التاريخ مصدراً شاملاً وافياً لأكبر قدر ممكن من أخبار العالم الإسلامي في المشرق والمغرب.

اتبع ابن الأثير «الطريقة الحولية» في معالجته الحوادث، وتعني هذه الطريقة معالجة التاريخ على شكل سنوات، فيتناول المؤرخ الحوادث التي حدثت في سنة واحدة حتى إذا ما انتهى من سردها والتعليق عليها انتقل إلى السنة التالية. وإذا ما استغرق الحادث الواحد بضع سنوات، فيجده القارىء موزعاً بين عدة سنوات. وقد انتقد ابن الأثير هذه «الطريقة الحولية» التي كانت متبعة في عصره، لأنها تشتت الحادث الواحد بين عدة سنوات في عدة أجزاء لا تربطها رابطة من الكتاب. وحيث أنه لم يكن في وسعه أن يتخلى عن طريقة السنوات أو «الطريقة الحولية»، لكنه

نجح في معالجة العيب الرئيسي الناجم عن هذه الطريقة، حينما حاول قدر الامكان أن يذكر الحادث الواحد في مكان واحد حتى لو كان حدوثه قد استغرق بضع سنوات.

وتتعلق الأجزاء التسعة الأولى من كتاب الكامل في التاريخ، بنشأة التاريخ منذ خلق آدم حتى انحلال الخلافة العباسية سنة 450/ 1057 مروراً بالسيرة النبوية وعهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية والعصر الذهبي للدولة العباسية. وقد اعتمد ابن الأثير في ما كتبه في هذه الأجزاء التسعة على ما استمده من الطبري وغيره من المؤرخين السابقين، وأحداثها بعيدة جداً عن العصر الذي عاش فيه. أما الأجزاء الثلاثة الأخيرة (العاشر، الحادي عشر، الثاني عشر)، والتي تبدأ بسنة 451/ 1058 وتنتهي بسنة 628/ 1232، اي قبل وفاة ابن الأثير بسنتين فقط، فإنها تؤرخ لحوادث قريبة سمع بعضها عن قرب ولمس بعضها عن قرب، بل وشارك في بعضها عن قرب أيضاً. وأهم ما في هذه الأجزاء الثلاثة الأخيرة، معالجة ابن الأثير لمرحلة حاسمة ونشيطة من الحروب الصليبية في عصر يعد من أخطر عصور التاريخ العربي الإسلامي بوجه عام والمشرق العربي الإسلامي بوجه خاص.

يبدأ الجزء العاشر سنة 451/ 1058 وينتهي سنة 527/ 1133، ويتعلق بأحوال بلاد الشام قبل قدوم الحملة الصليبية الأولى وبعده، وتأسيس الفرنج امارتي الرها وانطاكية وكونتية طرابلس ومملكة بيت المقدس اللاتينية في المشرق العربي الإسلامي، مع مقارنة بما فعله الفرنج في الوقت نفسه في المغرب العربي الإسلامي في الأندلس وصقلية. وهذا الربط بين أطراف الحركة الصليبية في المغرب والمشرق، لم يتوصل إليه أحد من المؤرخين المعاصرين لهذه الحركة غير ابن الأثير الذي وان لم يشهد أحداث الجزء العاشر، لأنه ولد سنة 555/ 1160، أي بعد 28 سنة من انتهاء هذه الأحداث، إلا أنه لم يكن بعيداً، فسمع هذه الأحداث عن قرب.

وتبدأ أحداث الجزء الحادي عشر بتتمة سنة 527/ 1133، وكان في الثامنة والعشرين، عندما انتهت هذه الأحداث سنة 583/ 1187. أي أنه أصبح بمثابة شاهد عيان على بعض الحوادث الهامة، من نجاح نور الدين محمود بن زنكي في اتمام الوحدة بين العراق وبلاد الشام ومصر، من الفرات إلى النيل، ونجاح صلاح الدين الأيوبي في أن يرث سيده نور الدين في دولته الواسعة محافظاً على تلك الوحدة حتى تم له النصر في حطين واسترداد بيت المقدس من الفرنج.

وتحول ابن الأثير إلى شاهد عيان بالكامل للجزء الثاني عشر والأخير، الذي يبدأ سنة 584/ 1188 وينتهي سنة 628/ 1232، اي قبل وفاته بسنتين، حيث عايش هذه الفترة

على امتداد 44 سنة، وهو يتتبع أخبار صلاح الدين الأيوبي وانتصاراته على الفرنج، ومواجهته الحملة الصليبية الثالثة، وصدامه مع رتشارد الأول «قلب الأسد» ملك انكلترة وعلاقاته معه، وقد شهد وفاة صلاح الدين، وقيام خطر المغول الذين وصفهم بالعدو الكافر «التتر» إلى جانب خطر الفرنج.

وبذلك، يعتبر كتاب الكامل في التاريخ، دائرة معارف ضخمة في التاريخ العربي الإسلامي، حتى سنة 628/ 1232، ومصدراً أصيلاً من مصادر الحروب الصليبية في أجزائه الثلاثة الأخيرة.

أما ابن شداد (ت 632/ 1235)، فهو أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع، بدأ خدمة صلاح الدين الأيوبي سنة 584/ 1188، وخصّه بسيرة عنوانها «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وهي المعروفة بسيرة صلاح الدين، أفرغ فيها خلاصة انطباعاته ومشاهداته ابتداء من اتصاله بصلاح الدين الأيوبي.

ثم نشطت كتابة التاريخ عهد المماليك التي اهتم سلاطينها بالمؤرخين، فظهر العديد منهم، مطلع دولة المماليك الأولى، مثل: ابن ميسر (ت 677/ 1278) الذي وضع كتاب «أخبار مصر»، وابن خلكان (ت 681/ 1281) الذي وضع «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، وابن شداد عز الدين محمد (ت 684/ 1285) الذي وضع «تاريخ الملك الظاهر»، وابن عبد الظاهر (ت 692/ 1292) الذي وضع كتاب «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور» وكتاب «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، وابن واصل (ت 697/ 1298) الذي وضع «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»، وأبو الفدا (ت 732/ 1332) الذي وضع كتاب «المختصر في أخبار البشر، ليضع ابن الوردي (ت 750/ 1349) تمة له في كتاب «تتمة المختصر في أخبار البشر»، أما الذهبي (ت 748/ 1347) فوضع كتاب «دول الإسلام».

وبلغت فلسفة التاريخ ذروتها عهد دولة المماليك الثانية، وتحديداً في القرن التاسع الهجري/ الخامش عشر الميلادي، وذلك على يد ابن خلدون، فشهد هذا القرن تتابع سلسلة من أبرز المؤرخين أمثال: المقريزي (ت 845/ 1441) الذي وضع كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك»، وكتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وكتاب «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا». وصالح بن يحي (ت 850/ 1446) الذي وضع «تاريخ بيروت»، وابن حجر العسقلاني (ت 853/ 1449) الذي وضع «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة و«كتاب» رفع الأصر عن قضاة مصر»، وابن شحنة (ت 890/ 1485) وله «الدر المنتخب في

تاريخ مملكة حلب»، والسيوطي (ت 911/ 1505) الذي وضع كتاب «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، وكتاب «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة».

ولم يكن المماليك أنفسهم، وهم أرباب السيف الطبقة الحاكمة، بعيدين عن الكتابة التاريخية، فقد ظهر منهم، بيبرس الدوادار (ت 725/ 1325) وقد نشأ مملوكاً فعلاً، بمعنى أنه جلب إلى مصر مع الرقيق، ومر بمختلف الأدوار التي يمر بها المملوك في عصره. وعلى غراره برز المؤرخ ابن أيبك الدواداري (ت 736/ 1336) الذي وضع «كنز الدرر وجامع الغرر» أو الدولة الزنكية في أخبار الدولة التركية».

أما المؤرخ ابن تغري بردي (ت 875/ 1470) والمؤرخ ابن إياس (ت 930/ 1523)، فهما من «أبناء الناس» وهو المصطلح الذي أطلق في عهد المماليك على أبناء سلاطين المماليك وأمرائهم، وهؤلاء الأبناء ولدوا أحراراً على أرض عربية من آباء مماليك تم عتقهم، فلم ينشأوا نشأة آبائهم، وإن كانوا ينتمون بحكم السلالة والأصل إلى طبقة المماليك.

ولد أبو المحاسن بن تغري بردي سنة 812/ 1409، وكان عمره ثلاث سنوات حينما توفى والده الأمير تغري بردي سنة 815/ 1412. وكان والده رومي الأصل، من المماليك الذين جلبهم تجار الرقيق إلى مصر، وما لبث أن أصبح مقدماً ثم تولى نيابة حلب سنة 796/ 1394، ثم نيابه الشام سنة 803/ 1400. لذلك ورث ابن تغري بردي عن والده اسماً ذائع الصيت، وثروة طائلة ضمنت له حياة مستقرة، عكف فيها على الدرس والتحصيل والكتابة والتأليف إلى جانب تعاليم الفروسية، وكان مقرباً من سلاطين المماليك الذين عاصرهم، وبخاصة برسباي وجقمق وخشقدم، فاطلع على أسرار وخفايا الحوادث المعاصرة له، وهو ما لم يتح لكثير غيره من المؤرخين المعاصرين، فأصبح علماً من أعلام فن كتابة التاريخ.

ويعد كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، حولية من أشهر الحوليات التاريخية التي عرفها تاريخ مصر في العصر الوسيط، ويبدأ هذا الكتاب بالفتح العربي الإسلامي لمصر حتى أيامه، على أساس الحديث عن حكامها وتداولهم السلطة واحداً بعد آخر، حيث تناول عهد كل منهم سنة بعد أخرى كل على حدة، أي على أساس حولي.

وكتابه الثاني «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي»، عبارة عن كتاب في التراجم والسير، يجمع حوالى ثلاثة آلاف ترجمة لمشاهير السلاطين والأمراء والعلماء في مصر وبلاد الشام عهد دولة المماليك، إضافة إلى من عاصرهم من مشاهير المشرق والمغرب، من المسلمين

وغير المسلمين على السواء.

ثم وضع كتابه الثالث «منتخبات من حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور» ليبدأه بحوادث سنة 845/ 1441، حتى يكون تكملة لكتاب المقريزي «السلوك لمعرفة دول الملوك» الذي توقف في حوادثه عند سنة 844/ 1440 وهي السنة التي توفى المقريزي فيها. ومع ذلك لم يصل ابن تغري بردي في كتابه هذا إلى المستوى العملاق الذي كان عليه المقريزي شيخ المؤرخين في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

والمؤرخ ابن إياس (ت 930/ 1523) في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» يصف بدقة التدهور الاقتصادي أواخر عهد دولة المماليك وتحديداً في الفترة (872 ـ 923/ 1468 ـ 1517) التي عايشها بنفسه.

7 ـ العلاقة بين الشرق العربي والغرب الأوروبي

إن أطرف ما في دراسة التاريخ، هو معالجة موضوع يجمع بين الشرق والغرب، وهذا الجمع ليس بالأمر السهل، لأنه يتطلب الماماً واسعاً بالمصادر الشرقية والغربية على السواء، ودقة متناهية في مقارنة ما يرد في المصادر الشرقية بما يرد في المصادر الغربية، مع مراعاة ظروف الشرق وحضارته، وظروف الغرب وحضارته.

فقد شهد عصر الحروب الصليبية (489 ـ 690/ 1096 ـ 1291) الاتصال القوي الشديد بين الشرق والغرب، وهو الاتصال الذي اتخذ طابعاً حربياً عنيفاً في صورة الحملات الصليبية المتتالية، مثلما اتخذ طابعاً فكرياً سلمياً في صورة ازدياد الحركة التجارية بين الشرق والغرب، إضافة إلى اقبال الغرب الأوروبي على الحضارة العربية والتزود بمعالمها عن طريق الترجمة والنقل والمحاكاة. وكانت العلاقة بين الامبراطور فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (ألمانيا، إيطاليا، صقلية) وبين السلطان الكامل محمد الأيوبي، خير دليل على الصداقة الفريدة من نوعها التي نمت بين أحد ملوك الغرب الأوروبي وبين أحد سلاطين المشرق العربي، في عصر الحروب والعداوة والكره بين الغرب والشرق.

(أ) العلاقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل محمد بن العادل الأيوبي (625 ـ 636/ 1228 ـ 1238)

اعتلى الامبراطور فردريك الثاني عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة (ألمانيا، إيطاليا، صقلية) سنة 617/ 1220، كما اعتلى السلطان الكامل محمد عرش مصر سنة 615/

1218، أي في فترة واحدة مليئة بالأحداث سواء في الغرب الأوروبي أو الشرق العربي. فشهد غرب أوروبا، أعنف دور من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطوية، أي بين السلطتين الدينية والعلمانية حول تزعم العالم. كما شهد الشرق العربي، أعنف دور من أدوار النزاع داخل البيت الأيوبي الواحد حول السلطة والنفوذ، بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي.

ولد فردريك الثاني من أب ألماني هو هنري السادس وأم إيطالية هي الأميرة كونستانس وريثة صقلية. نشأ وتربى وتعلم في جزيرة صقلية التي كانت بحكم موقعها ملتقى الحضارات العربية الإسلامية والبيزنطية اليونانية والرومانية اللاتينية، فكان فيلسوفاً عالماً متبحراً في الهندسة والحساب والرياضيات، ماهراً في السياسة والقانون والعلوم الطبيعية[1]، يجيد ست لغات منها اللغة العربية حيث تذوق الشعر العربي وغير العربي، مما جعل المؤرخين يطلقون عليه لقب واحد مشترك هو «أعجوبة الدنيا»[2].

وإذا كان الامبراطور فردريك الثاني، يختلف عن جميع أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة بتلك النشأة الحضارة الفريدة من نوعها، إلا أنه يتفق معهم جميعاً في الصراع بين البابوية والامبراطوية، بل إنه يعتبر الامبراطور الذي اختتم هذا الصراع. فعلى الرغم من أن البابوية ساعدت فردريك الثاني حتى توجته امبراطوراً في روما سنة 617/ 1220، مقابل الوعد بالقيام بحملة صليبية إلى الشرق حتى تحقق البابوية ما عجزت عن تحقيقه في الحملة الصليبية الخامسة على مصر، إلا أن الامبراطور فردريك الثاني أخذ يماطل في القيام بمثل هذه الحملة الصليبية، لعدم رغبته في تحقيق هدف البابوية. ولعل كراهيته للبابوية والكنيسة الغربية، هي التي دفعته إلى حب الإسلام والمسلمين، في زمن طفح بروح التعصب الديني واشتدت فيه كراهية الغرب الأوروبي للشرق العربي والاسلام.

ولكن الظروف التي طرأت في الشرق والغرب في آن معاً، جعلت الامبراطور فردريك الثاني يحدد سنة 624/ 1227 موعداً للقيام بحملته الصليبية. ففي الغرب الأوروبي، سعى البابا هونوريوس الثالث إلى اتمام زواج فردريك الثاني من الأميرة يولاند ابنة حنابرين ووريثة مملكة بيت المقدس، سنة 622/ 1225، ما دفعه للقيام بمثل هذه الحملة ليتوج مع

---

1 ـ Kantorowicz: Frederick The Second, P 293 – 295.

2 ـ Bryce: The Holy Roman Empire, p 203, 204.

زوجته داخل مملكة بيت المقدس. وفي الشرق العربي، أرسل إليه السلطان الكامل محمد الأيوبي صاحب مصر، يستعين به في صراعه ضد أخيه المعظم صاحب دمشق، ووقف الأخ الثالث الأشرف إلى جانب السلطان الكامل، في حين استعان المعظم بالخوارزمية.

أدى الصراع بين الأخوة الثلاثة، أبناء العادل الأيوبي، إلى الاستعانة بقوتين خارجيتين، لكل منها أطماع في مصر وبلاد الشام. فقد أسرع السلطان جلال الدين منكبرتي الخوارزمي بتلبية نداء المعظم وقطع الخطبة للسلطان الكامل الذي أرسل مبعوثاً خاصاً إلى صقلية هو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه، ليطلب من الامبراطور فردريك الثاني أن يحضر إلى ساحل بلاد الشام ليعطيه بيت المقدس وبعض المناطق التي حررها عمه صلاح الدين الأيوبي.

استمر الامبراطور فردريك الثاني في المماطلة، فقد توفي البابا هونوريوس الثالث سنة 624/ 1227، فخلفه البابا غريغوريوس التاسع الذي لم يعجبه هذا الموقف، فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور، ففتح باب الصراع من جديد بين البابوية والامبراطورية، ولم يجد الامبراطور فردريك الثاني بداً سوى القيام بالحملة الصليبية السادسة نحو الشرق سنة 625/ 1228.

تعد الحملة الصليبية السادسة (625 ـ 626/ 1228 ـ 1229) أغرب الحملات الصليبية وأشدها طرافة، ففي حين كان ملوك وامراء الحملات الخمس السابقة ينعمون برضى البابوية وعطف الكنيسة فحشدوا الجموع الغفيرة عند خروجهم من الغرب الأوروبي، وهي تفيض بروح الكراهية والتعصب ضد المسلمين في المشرق العربي والرغبة في الثأر والانتقام منهم، فإن الحملة الصليبية السادسة خرجت بقيادة الامبراطور فردريك الثاني الذي لا ينعم برضى البابوية والمحروم من عطف الكنيسة، فانفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده. لذلك لم يصطحب معه سوى خمسمائة أو ستمائة فارس، وهي قوة عسكرية صغيرة، يمكن سحقها سريعاً في أي مواجهة ضد المسلمين في بلاد الشام. ومع ذلك فإن هذه الحملة التي تعتبر أصغر حملة في تاريخ الحروب الصليبية، امتازت بمسحة فريدة من التسامح الديني، وشعور الود والمجاملة تجاه المسلمين.

ما إن وصل الامبراطور فردريك الثاني إلى عكا، حتى ساء موقفه في بلاد الشام، في حين قوي موقف السلطان الكامل محمد بعد وفاة أخيه المعظم صاحب دمشق سنة 624/ 1227، واقتسام أملاكه مع أخيه الأشرف بعد اعطاء الناصر داود ابن أخيهما المعظم بعض المناطق الثانوية مثل الكرك والشوبك، ولم يعد بحاجة إلى مساعدة فردريك الثاني، بعد أن هدأ

الصراع داخل البيت الأيوبي. وفي الوقت نفسه، فإن البابا غريغوريوس التاسع، للمرة الأولى والأخيرة في تاريخ البابوية، أخذ يرسل الرسل إلى السلطان الكامل محمد والأمراء الأيوبيين، محرضاً إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور، لأن هذا التسلم يعني هزيمة للبابوية في صراعها ضد الامبراطورية، كما يعني انتصاراً كبيراً لفردريك الثاني على البابوية.

وجد الامبراطور فردريك الثاني نفسه عاجزاً، لا يملك سلاحاً سوى المفاوضة واستعطاف السلطان الكامل محمد الأيوبي، حتى قيل أنه كان يبكي بكاءً مراً في مراحل المفاوضات، لا سيما بعد أن جاءته الأخبار من ايطاليا بأن البابا غريغوريوس التاسع استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته. لذلك لم يتورع الامبراطور العظيم عن التذلل للسلطان الكامل، طالباً القدس صدقة منه حتى يرفع من شأنه، فوجه إليه رسالة، قائلاً:

«أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم. وهذه القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر».

نجح الامبراطور فردريك الثاني في التأثير على السلطان الكامل للتنازل عن بيت المقدس، لأن هذا الأخير خشي من اتفاق الامبراطور مع قوى الفرنج في ساحل بلاد الشام، في الوقت الذي خشي فيه من تحالف ابن أخيه الناصر داود مع سلطان الخوارزمية جلال الدين منكبرتي. لذلك عمل السلطان الكامل محمد الأيوبي بنصيحة مستشارة الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه الذي نشأت صداقة بينه وبين الامبراطور منذ أن أرسله إليه في صقلية. وبذلك عقدت اتفاقية يافا في ربيع الأول 626/ شباط 1229، بمقتضاها تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن يتنازل السلطان للامبراطور عن بيت المقدس، ما عدا الشريف حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وعن بيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا، كما اتفقا على اطلاق الأسرى من كلا الطرفين[1].

لقد حقق السلطان الكامل محمد الأيوبي، للامبراطور فردريك الثاني الذي يقود أصغر حملة في تاريخ الحروب الصليبية، ما عجز عن تحقيقه أقوى ملوك الغرب الأوروبي، وفي

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1 ص 230.

طليعتهم رتشارد الأول «قلب الأسد» ملك انكلترة إبان الحملة الصليبية الثالثة، وذلك دون أن يدخل فردريك الثاني معركة واحدة أو يخسر رجلاً واحداً. وهذا ما أدى إلى استياء المسلمين وغضب الفرنج في آن معاً. فتعرض السلطان الكامل لتأنيب العلماء والفقهاء، وأقيمت المآتم والجنازات في دمشق وسائر مدن بلاد الشام، بسبب تسليمه المدينة المقدسة التي حررها عمه صلاح الدين الأيوبي سنة 583/ 1187، أي قبل اثنتين وأربعين سنة. كما تعرض فردريك الثاني لغضب الفرنج الذين رفضوا الحصول على بيت المقدس عن طريق الاستجداء والاستعطاف، معتبرين أن كرامتهم تتطلب أخذه بحد السيف، دون أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة بيد المسلمين[1].

لقد تم تسليم بيت المقدس، صلحاً، دون إراقة قطرة دم واحدة، بسبب التوافق الشديد بين السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثاني في الطباع والميول العقلية والحرص على مجالسة العلماء، وبسبب التسامح الديني وعدم التعصب والبعد عن التزمت، وهو التسامح الذي بلغ بالسلطان الكامل حد التفريط في بيت المقدس واصدار أوامره المشددة إلى المؤذنين في المسجد الأقصى الذي بقي بيد المسلمين، بعدم احياء آذان الصلاة طيلة مدة بقاء الامبراطور في بيت المقدس حرصاً على شعوره واعظاماً له واحتراماً. في حين أن بطريرك بيت المقدس غيرولد، وقّع قرار الحرمان على كل مسيحي يستقبل الامبراطور في بيت المقدس، ومع ذلك شق الامبراطور فردريك الثاني طريقه وتسلم المدينة من مندوب السلطان. وحينما رفض رجال الكنيسة تتويجه في كنيسة القيامة لأنه محروم، أمسك التاج بيده ووضعه على رأسه، ليؤكد أنه تسلم سلطانه من الله مباشرة، ودون وساطة البابوية[2].

أثار الامبراطور فردريك الثاني دهشة المسلمين والفرنج معاً، أثناء اقامته في بيت المقدس. فعندما رأى الامبراطور قسيساً بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى، زجره، وهدد كل من يدخل هذا المسجد من الفرنج بغير إذن، قائلاً: «نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره»[3].

1 ـ Stevenson: The Crusades, P 313.

2 ـ Kantorowicz: Frederick The Seconde, P 199

3 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1 ص 231.

حرص الامبراطور فردريك الثاني أثناء وجوده في بيت المقدس على زيارة المسجد الأقصى، وأطال البقاء حتى يسمع آذان الصلاة، وحينما لم يسمع شيئاً، استفسر عن السبب من مرافقه شمس الدين قاضي نابلس الذي أجابه أن السلطان الكامل أصدر أوامره بعدم اقامة الآذان طيلة وجود الامبراطور في بيت المقدس، فاستاء فردريك الثاني من هذا الجواب، والتفت إلى القاضي، قائلاً: أخطأت في ما فعلت، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل[1].

وهذا كله، يشير إلى أن مصالح الامبراطور فردريك الثاني في الغرب الأوروبي، هي أهم بكثير في نظره من مصالح الفرنج في الشرق العربي. حيث انفرد هو نفسه بموقف مميز في كرهه للبابوية وللحروب الصليبية، وفي ميله للاسلام والمسلمين، في عصر اشتدت فيه كراهية الفرنج في الغرب الأوروبي للمسلمين في المشرق العربي.

لذلك لم تطل اقامة الامبراطور فردريك الثاني في بلاد الشام، فأبحر من عكا يوم الاثنين 4 جمادي الثانية 626/ أول أيار 1229، ليصل ايطاليا في رحلة استغرقت 41 يوماً، ولتستمر علاقته بالسلطان الكامل محمد الأيوبي، وتتحول إلى نوع من الصداقة بسبب التقارب الفكري والنفسي بينهما. وكان من ألقابه التي يعتز بها دائماً «فردريك هوهنشتاوفن صديق الملك المسلم». وقد أرسل عدة هدايا إلى السلطان سنة 631/ 1233[2].

استمرت الصداقة قائمة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الصالح نجم الدين أيوب ابن صديقه السلطان الكامل. فقد تولى السلطان العادل الثاني حكم مصر، بعد وفاة أبيه السلطان الكامل في رجب 636/ آذار 1238، وما لبث أن انتهى أجل اتفاقية يافا سنة 637/ 1239، فتمكن الناصر داود أمير الكرك من محاصرة بيت المقدس وطرد الفرنج سنة 638/ 1240، معترفاً بالصالح نجم الدين أيوب سلطاناً على مصر، في الوقت الذي تمكن فيه المماليك الأتراك من أسر أخيه السلطان العادل الثاني في 8 شوال 637/ 3 أيار 1240، ليتولى الصالح سلطنة مصر.

وتجلت الصداقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الصالح أيوب الذي آل بيت المقدس إليه منذ سنة 642/ 1244، مع ابحار الحملة الصليبية السابعة من مرسيليا سنة

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ1 ص 231.

2 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ6 ص 283.

646/ 1248، متجهة نحو مصر باعتبارها مفتاح المشرق العربي لدخول بيت المقدس. فقد حذّر الامبراطور فردريك الثاني صديقه السلطان الصالح نجم الدين أيوب من نية لويس التاسع ملك فرنسا في مهاجمة مصر، حينما أرسل رسولاً في هيئة تاجر إلى قلعة دمشق حيث كان ينزل السلطان، وأخبره سراً بقدوم ملك فرنسا، فسار السلطان الصالح من دمشق نحو مصر ليصل أشمون طناح شرق فرع دمياط ليواجه الحملة الفرنسية التي وصلت دمياط يوم السبت 21 صفر 647/ 4 حزيران 1249.

(ب) ازدياد الحركة التجارية

لم تغفل الدولة الزنكية الاهتمام بالتجارة، لذلك أنشأ نور الدين محمود بن زنكي الخانات للتجار، وأقام الأبراج لحماية طرق القوافل التجارية، وشجع التجار على المجيء إلى بلاد الشام بعد أن أزال الضرائب المفروضة على التجارة[1].

ازدهرت التجارة بين الدولة الفاطمية في القاهرة وبين الدولة الزنكية في دمشق، كما ازدهرت بين دمشق وعكا التي يسيطر عليها الفرنج، في الوقت الذي ازدهرت فيه التجارة بين المشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي، عن طريق الموانىء البحرية التي يسيطر عليها الفرنج في ساحل بلاد الشام، حيث تم التقاء المسلمين والفرنج.

فعلى الرغم من الحملات الصليبية المتابعة، والحروب التي استمرت نحو قرنين من الزمان (489 ـ 690/ 1096 ـ 1291)، فإن النشاط التجاري لم يتوقف داخل بلاد الشام التي كان يتقاسم النفوذ فيها المسلمون في الداخل والفرنج في الساحل.

وفي زمن صلاح الدين الأيوبي، وصف ابن جبير هذا النشاط، عندما رافق قافلة للتجار تحمل مختلف السلع وهي متجهة من دمشق التابعة للأيوبيين نحو عكا التي يحتلها الفرنج. ثم اشار إلى القوافل التجارية الآتية من مصر إلى دمشق ومرورها في المناطق التي يسيطر عليها الفرنج[2]، و إلى كثرة الخانات على طول الطرق، مما يسهل أمور المسافرين والتجار وبخاصة

---

1 ـ المقريزي: الخطط، جـ1 ص 219.

2 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 288.

في الشتاء[1]، ومنها خان السلطان الذي بناه صلاح الدين الأيوبي بين حمص ودمشق[2]، كما وصف توافد المسلمين من دمشق إلى عكا[3].

فلا غرو أن تزدهر أسواق دمشق على اختلاف أنواعها[4]، ومنها ما يخص المسلمين قرب المسجد الجامع والقلعة، ومنها ما يخص النصارى في الزاوية الشمالية الشرقية، في حين تركز اليهود في المنطقة الجنوبية. ومع ذلك كانت جميع الطوائف تختلط داخل هذه الأسواق، مما يوضح أن جميع الأطراف عاشت بهدوء داخل أسوار المدن العربية الإسلامية، رغم ما بدا أحياناً من مشاحنات وخلافات بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك بدافع من الظروف المستجدة التي أحدثتها الحروب الصليبية وانسياب عناصر جديدة من الفرنج من الغرب الأوروبي للاستيطان في سواحل بلاد الشام. وبذلك استمرت الكنائس والأديرة، تمارس نشاطها الروحي، وخاصة كنيسة الروم (كنيسة مريم) داخل دمشق[5]، كما أن أحد أبواب قلعة حلب حمل اسم اليهود[6].

كانت بلاد الشام، حلقة الوصل بين تجارة الشرق القادمة من العراق وآسيا الصغرى وشبه الجزيرة العربية ومصر، وبين تجارة الغرب الأوروبي، عبر الموانىء البحرية التي يسيطر عليها الفرنج في ساحل بلاد الشام. فرغم الحروب الصليبية، لم تتوقف العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، وقد جرى من العمليات التجارية بينهما ما أفاد الأحوال الاقتصادية لدى الطرفين.

مع سيطرة صلاح الدين الأيوبي على البحر الأحمر، بعد تحرير أيلة عند المدخل الشمالي، وفتح عدن عند المدخل الجنوبي، ازدهرت تجارة الكارم عبر البحر الأحمر. وترتبط هذه التجارة بالتوابل والبهار، وقد احتكرها طائفة من كبار التجار أطلق عليهم اسم الكارمية. وتبدو أهمية هذه التجارة التي تنتجها أسواق الشرق الأقصى، في الحاجة الملحة إليها في أسواق أوروبا،

---

1 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 284، 285.

2 ـ المصدر نفسه، ص 247.

3 ـ المصدر نفسه، ص 276، 277.

4 ـ المصدر نفسه، ص 287.

5 ـ المصدر نفسه، ص 272.

6 ـ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص 44، 45.

حيث برزت فائدة التوابل والبهار والبخور والأعشاب الطبية في حفظ الأطعمة وصنع النبيذ والعقاقير الطبية، مما أدى إلى ارتفاع أسعارها، وبذلك تحكم البحر الأحمر بتجارة الترانزيت بين أوروبا والشرق الأقصى. فكانت السفن الآتية من الهند والصين، محملة بالتوابل والأفاوية والعطور والبخور والأحجار الكريمة، نحو البحر الأحمر الذي يبدأ طريقه التجاري في مرفأ عدن، حيث يتم تبادل السلع التجارية، فتفرغ سفن الشرق الأقصى حمولتها، لتعود محملة بالسلع الآتية من مصر مثل السكر والتمور والقطن والكتان والبلسم. بينما تفرغ السفن المصرية حمولتها لتعود محملة بالسلع الآتية من الشرق الأقصى، لتنقل من ميناء عدن، عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة، ثم نحو عيذاب[1] والقصير في الساحل السوداني ـ المصري. ومن عيذاب والقصير تنقل البضائع براً نحو قوص ومنها بحراً عن طريق نهر النيل نحو الاسكندرية ودمياط اللتين تعتبران بوابة مصر التجارية نحو أوروبا.

أسهمت تجارة البحر الأحمر، في توفير المزيد من الأموال لدعم المجهود العسكري لدى صلاح الدين الأيوبي، وذلك عن طريق الرسوم والضرائب المفروضة على السلع الشرقية التي يحتاجها الغرب الأوروبي.

قامت العلاقات التجارية بين صلاح الدين الأيوبي والمدن الإيطالية (البندقية ـ بيزا ـ جنوى)[2]، وجاءت إلى الاسكندرية مئات السفن التجارية القادمة من هذه المدن وغيرها من المدن الأوروبية. وجرت العادة ألا تبرح سفينة الميناء إلا إذا دفعت ما هو مقرر عليها من الرسوم. وقد عقدت البندقية وبيزا معاهدات تجارية مع السلطان العادل الأيوبي بعد تسلمه الحكم في القاهرة سنة 597/ 1200، وكانت البضائع تنقل من مينائي عكا وبيروت إلى أوروبا. وكانت للبندقية امتيازات وفيرة في جبيل واللاذقية، ثم حصلت على امتيازات في حلب من فندق وحمام وكنيسة.

تدخلت البابوية لمنع التجارة مع المسلمين، بخاصة بعد أن أحرز صلاح الدين انتصاراته العظيمة، وبعد أن رسخ في ذهن الفرنج أنه ليس بالإمكان استرداد الأراضي المقدسة إلا بالسيطرة على مصر. لذلك عمد البابا أنوسنت الثالث إلى تحريم جميع أنواع التجارة مع

---

1 ـ ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص 41.

2 ـ أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 243.

المسلمين، وأمام ضغط التجار البنادقة، اقتصر التحريم على المواد التي تخدم مباشرة القوة الحربية في مصر. ومع ذلك استمر ألوف التجار يفدون من غرب أوروبا إلى الاسكندرية. وعاد فردريك الثاني يوطد علاقاته مع السلطان الكامل، فكان أول من أدخل صناعة السكر إلى أوروبا حين جاء بالصناع من الشرق وأنزلهم في صقلية. وكذلك عاد البنادقة يسعون للحصول على معاهدات تجارية لتجديد الامتيازات السابقة وذلك في سنتي 363/ 1238، و 642/ 1244، حتى ازدهرت التجارة مع قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر سنة 648/ 1250.

لقد أدى ازدهار طريق البحر الأحمر، خدمة عظيمة لدولة المماليك الأولى في بداية نشأتها، حيث أتاح لها فرصة القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب. فدولة المماليك تقع على طريق البحر الأحمر، وهو أقصر الطرق المؤدية إلى الهند مصدر البخور والبهارات والتوابل، وهي السلع الأشد طلباً في أوروبا. وأصبحت الخطوط التجارية المنتظمة بين الشرق والغرب، تمر في الموانىء المملوكية على البحر المتوسط، وفي طليعتها الاسكندرية التي ازداد فيها عدد التجار الأوروبيين، فذاعت شهرتها بالحي التجاري الذي تنتشر فيه مؤسسات الفرنج التجارية ومراكز قنصلياتهم. أما دمياط، فهي أشهر الموانىء البحرية النهرية، لأنها تقع على جانب نهر النيل، وتعتبر مخرج التجارة المصرية، وكان يؤمها التجار الأوروبيون، على غرار بيروت وطرابلس وصيدا في ساحل بلاد الشام.

ومع اقصاء المماليك للفرنج عن المشرق العربي الإسلامي سنة 690/ 1291، أصدر البابا نقولا الرابع قراره بتوقيع عقوبة الحرمان على القوى التجارية في غرب أوروبا التي تتعامل مع دولة المماليك في ما يختص بالرقيق والخيول والحديد والأخشاب والكبريت، ثم أضاف إليها البابا يونيفاس الثامن سنة 699/ 1299، القمح والزيوت والنبيذ، وكانت مصر المملوكية تستوردها جميعاً في ذلك الوقت، مما يعني مقاطعة مصر اقتصادياً.

لم تفلح الجهود البابوية في مقاطعة مصر اقتصادياً، لأن القوى التجارية في غرب أوروبا، أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة حرمانها من التجارة مع مصر، فأخذت تتحايل لاستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط.

فرق المماليك بين الدين والتجارة، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الأوروبيين داخل الفنادق الخاصة بهم في الاسكندرية وبيروت وطرابلس وصيدا وحلب واللاذقية. فأصبح

الفندق، يوفر للتاجر الأوروبي، كل ما يحتاجه من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام، حتى سمح له بشرب الخمر في داخله. لكن المماليك منعوا التجار من مغادرة الفندق ليلاً، أو في أوقات الصلاة عند المسلمين كي لا تتعدى أعمال التجار حدود التجارة، وللمحافظة أيضاً على سلامتهم. وتنوعت الفنادق، حيث كانت تعقد الاتفاقات التجارية وتحزم البضائع لتنقل إلى السفن، لجاليات البندقية وجنوى ونابولي ومرسيليا وجزيرتي قبرص وكريت. وكان يحق لكل جالية فندق أو أكثر، ولكل فندق مشرف من الجمارك يعرف باسم الفنداقي. وبالمقابل، أنشأ المماليك الوكالات والخانات، ووضعوها بتصرف التجار الشرقيين المسلمين. والوكالات هي أماكن واسعة وسطها بهو، وعلى سطحها غرف لمنامة التجار، وفيها تتم الصفقات التجارية[1]. والخانات هي مجموعة من المستودعات التجارية لحفظ البضائع، وزرب الدواب.

وطبق المماليك نظام جوازات المرور، ومن لا يحمل جوازاً يوضع في السجن[2]. ولم يسمح المماليك للتجار الاوروبيين بدخول القاهرة حتى لا يزاحموا التجار المحليين في اسواقهم الدائمة، في حين كان بامكان التجار الشرقيين المسلمين دخول القاهرة، فاستوطنها البعض منهم.

ازدهرت تجارة الرقيق زمن الأيوبيين ثم المماليك على نطاق واسع، والحقيقة أن هذه التجارة بدأت منذ الفتح العربي على أساس أن الإسلام، شأنه في ذلك شأن اليهودية والمسيحية لم يحرّم الرق. وكانت الحروب المتواصلة دافعاً للإكثار من الرقيق من مختلف الأجناس، فمنه الأسود ومنه الأبيض، وأشهر الرقيق الأبيض كان من الصقالبة والأتراك.

والصقالبة هم الرقيق الأوروبي، كانوا في الأصل من الشعوب السلافية سكان بلغاريا العظمى التي امتدت من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتيكي، وقد تعرضوا للسبي على يد الجرمان، حيث تم بيعهم إلى عرب اسبانيا وبلاد الهند والسند. علماً أن كلمة صقالبة هي جمع صقلب Esclave ومعناها بالفرنسية «عبد» أو «رقيق».

أما الأتراك فهم الرقيق الآسيوي، اعتمد عليهم المشرق العربي الإسلامي بصورة كبيرة، وكثر استخدامهم أول الأمر كغلمان وخدم في القصور[3]. ومعظم الرقيق الأتراك من

---

1 ـ المقريزي: الخطط، جـ 2، ص 91، 92.

2 ـ ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ 1 ص 43.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ 4، ص 458.

أسرى الحروب منذ أن فتح العرب بلاد تركستان وما وراء نهري سيحون وجيحون[1] في أواخر القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد.

ثم تحولت بلاد القبجاق في حوض نهر الغولغا، شمال البحر الأسود والقوقاز، إلى مصدر هام حصل منه الأيوبيون ثم خلفاؤهم المماليك على أعداد كبيرة من المماليك الأتراك والجراكسة، فضلاً عن بعض المماليك من المغول والأكراد والروس.

تطلبت تجارة الرقيق قيام أسواق خاصة بها في المدن الكبرى في المشرق العربي الإسلامي، مثل سوق الرقيق في بغداد[2]، وسوق سامراء، وسوق الرقيق بدمشق[3]. وكان أشهر هذه الأسواق بركة الرقيق في الفسطاط، ثم سوق الرقيق في خان مسرور في القاهرة. وعرفت هذه الأسواق باسم أسواق «النخاسة» وعرف التاجر بـ«النخاس».

كان الخلفاء والسلاطين والأمراء المسلمون يجلبون المماليك لتدعيم قوتهم العسكرية، بعد تربيتهم وتنشئتهم على الإسلام والفروسية والطاعة، حتى أصبح المماليك هم الأداة الحربية الوحيدة في دولة المماليك في مصر والشام.

شجع هذا الأمر التجار الغربيين على الاهتمام بتجارة الرقيق، وخالفوا أوامر البابوية بتحريم التجارة مع المسلمين، فاشتروا الرقيق لسلاطين المماليك من أسواق القسطنطينية وكفا وشبه جزيرة القرم. وأصل هؤلاء الرقيق من بلاد القوقاز ومن القبائل التترية في روسيا الشرقية، وكانوا ينقلونهم إلى مينائي دمياط والاسكندرية، ومنهما إلى القاهرة، حيث تهافت التجار المسلمون على جلب الرقيق من آسيا الوسطى وأرمينيا.

وفي عهد دولة المماليك الثانية، اتجه السلاطين والأمراء الكبار إلى سياسة احتكار تجارة البخور والتوابل والبهارات الآتية من الشرق الأقصى، فحولوا تجارتها عن ميناء عدن في اليمن إلى ميناء جدة الخاضع لنفوذهم المباشر، وذلك سنة 828/ 1424، وقد اضطر المماليك إلى اتباع هذه السياسة، طمعاً في الحصول على المال بعدما اتضحت معالم التدهور الاقتصادي. وبذلك ارتفعت أثمان البخور والتوابل والبهارات، ما أنزل الضرر بالتجار الأوروبيين وبالمستهلك

---

1 ـ ابن حوقل: صورة الأرض، ص 476.

2 ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 2، ص 519.

3 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 182.

الأوروبي، في الوقت الذي لا يستطيع فيه الغرب الأوروبي الاستغناء عن هذه المواد لعدم توافرها في بلاده، فهو يستخدم البخور في الكنائس والأديرة، والتوابل لحفظ الطعام من الفساد.

دفعت سياسة الاحتكار والتضييق، القوى التجارية في غرب أوروبا، للبحث عن طريق جديد للوصول إلى الهند والصين لجلب البخور والتوابل والبهارات، فنجح فاسكو دي غاما البرتغالي في كشف طريق رأس الرجاء الصالح في رحلته من لشبونة عبر المحيط الأطلسي والدوران حول قارة أفريقيا للوصول إلى الهند (903 ـ 905/ 1497 ـ 1499). وعلى الرغم من طول طريق رأس الرجاء الصالح وكثرة تكاليفه، إلا أن البخور والتوابل والبهارات كانت تصل إلى غرب أوروبا بسعر أرخص مما كان عليه عن طريق مصر.

وبذلك حرمت دولة المماليك الثانية من مصدر رئيسي لثروتها وقوتها، مع ضياع تجارة الشرق الأقصى التي كانت الدعامة الاقتصادية الكبرى لمنع العجز الاقتصادي الكبير. وفقد المماليك دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، فعجل ذلك بسقوط دولتهم النهائي على يد الدولة العثمانية، ليدخل السلطان سليم الأول إلى بلاد الشام بعد انتصاره في معركة مرج دابق في 25 رجب 922/ 24 آب 1516، و إلى مصر بعد انتصاره في موقعة الريدانية في 27 ذي الحجة 922/ 22 كانون الثاني 1517، وقتل طومان باي آخر سلاطين دولة المماليك في 22 ربيع الأول 923/ 23 نيسان 1517). وفقدت القاهرة عظمتها، بعد أن دخلها العثمانيون الذين أجروا مذبحة رهيبة بداخلها راح ضحيتها حوالى الخمسين الفاً، وأصبحت استانبول هي المركز الجديد لخلافة عثمانية جديدة غير عربية، أقيمت لأول وآخر مرة خارج المشرق العربي الإسلامي، طيلة أربعة قرون متتالية (923 ـ 1337/ 1517 ـ 1918)، بعد أن كانت المدينة المنورة، ثم دمشق وبغداد والقاهرة، داخل هذا المشرق مركزاً للخلافة العربية الإسلامية.

الخاتمة

أثبت تاريخ المشرق العربي الإسلامي، منذ انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر سنة 362/ 972، مروراً بالدولتين الزنكية والأيوبية، حتى سقوط دولة المماليك الثانية سنة 923/ 1517، مدى حدة الصراع الدموي العنيف، سواء داخل الخلافة العباسية في بغداد أو داخل الخلافة الفاطمية في القاهرة، أو بين الخلافتين معاً حينما وقف السلاجقة إلى جانب العباسيين في صراعهم مع الفاطميين حول بلاد الشام، ليتحول هذا الصراع بين الزنكيين والوزراء الفاطميين، وبين الأيوبيين والفاطميين، وبين الأيوبيين والزنكيين، ثم بين الأيوبيين والمماليك، حيث تلطخ تاريخ هؤلاء جميعاً بالدماء التي سفكت لتكريس السلطة ودعم نفوذها. فلا غرو أن تؤول السلطة الفعلية في المشرق العربي الإسلامي، إلى أربع دول اسلامية، في مرحلة لم تتجاوز الخمسة قرون ونصف القرن، كانت السلطة الروحية فيها للخلافة العباسية التي لم يعد لها شيء من السلطة الزمنية السياسية والعسكرية التي آلت إلى الفاطميين ثم الزنكيين ثم الأيوبيين ثم المماليك، على الرغم من محاولة الخلافة الفاطمية في القاهرة قهر الخلافة العباسية ونزع السلطة الروحية منها.

كان الصراع حول السلطة والنفوذ، وتداول تلك السلطة في المشرق العربي الإسلامي، وتحديداً في مصر وبلاد الشام، مرتبطاً بالعناصر غير العربية، التي أعدت لتكون الأداة العسكرية في الدفاع عن السلطة العربية، فإذا بهذه العناصر العربية من الأتراك والأكراد والجراكسة، والتي حملت اسم «الزنكيين» الأتراك أو «الأيوبيين» الأكراد أو «المماليك» الأتراك والجراكسة، تتنازع السلطة والحكم، فينقلب التابع على سيده ليؤسس دولة خاصة به. ومع ذلك، ظلت الخلافة العباسية في بغداد، حتى سقوطها سنة 656/ 1258، قبلة أنظار أتابكة الدولة الزنكية

وسلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية «غير العرب»، يحاول كل منهم أن يتخذ من الخليفة العباسي «العربي» درعاً يحتمي به ضد خصومه في الصراع حول السلطة، لما توفره هذه الخلافة العباسية من سند شرعي يستند إليه في حكم المناطق التي تقع تحت سيطرته، أو المناطق التي يطمع في ضمها.

لذلك، ما كادت الحملة الصليبية الأولى، تصل شمال بلاد الشام سنة 490/ 1097، حتى كانت معظم الامارات العربية المستقلة في بلاد الشام قد انزاحت عن السلطة السياسية، باستثناء امارة بني منقذ في شيزر (474 ـ 552/ 1081 ـ 1157)، في حين سقطت امارة بني عمار في طرابلس على يد الفرنج سنة 503/ 1109. وكانت الامارة الحمدانية «العربية في حلب قد سقطت سنة 415/ 1024 على يد امارة عربية أخرى هي امارة بني مرداس التي استمرت حتى سنة 472/ 1079، كما انتهت امارة بني عقيل في صور سنة 482/ 1089. وهذا الأمر يبرر انعدام الفرصة التاريخية أمام العنصر العربي لمواجهة الفرنج، فكانت هذه الفرصة من نصيب العناصر غير العربية، وفي مقدمها السلاجقة والأتابكة «الأتراك» والأيوبيون «الأكراد» والمماليك «الأتراك والجراكسة».

وفي ظل هذه الظروف المستجدة التي فقد معها العنصر العربي نفوذه السياسي والعسكري أمام العناصر غير العربية، التجأت غالبية العنصر العربي نحو التصوف الذي يعتبر رد فعل اجتماعي يعبر عن عجز العربي الذي وجد في الزهد والعبادة ما يملأ الفراغ السياسي والعسكري.

ومع ذلك لم يجرؤ أحد من العناصر الإسلامية غير العربية، سواء من الأتراك والجراكسة والأكراد، أن يقضي على الخلافة العباسية أو يحمل لقب خليفة، بل كان كل عنصر يحرص على نيل موافقة الخليفة العباسي «العربي» على ملكه وسلطانه. وإذا كان المغول وهم من العناصر غير الإسلامية وغير العربية، قد قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة 656/ 1258، لتتحول إلى خلافة شكلية وصورية مع المماليك، فإن العثمانيين وحدهم، وهم من الأتراك غير العرب، تجرأوا وقضوا نهائياً على ما تبقى من الخلافة العباسية «العربية»، ليقيموا الخلافة العثمانية غير العربية، لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي، وهي الخلافة التي استمرت حتى سنة 1343/ 1924، أي بعد ست سنوات من سقوط الدولة العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1337/ 1918.

تميز تداول السلطة داخل الدولة الفاطمية، بسيطرة العناصر غير العربية حينما اضطر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، حفاظاً على حكمه، للاستعانة بوالي عكا أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، فوصل مصر على رأس جيش كبير من الأرمن سنة 466/ 1073، فأعاد الهدوء إلى مصر، وخلع عليه المستنصر بالله بالوزارة سنة 468/ 1075، ليبدأ معه عصر «الوزراء»، حيث أصبح الوزير هو الآمر الناهي دون الرجوع إلى الخليفة الفاطمي في مرحلة جديدة استمرت حوالى القرن (468 ـ 567/ 1075 ـ 1171)، ومعظم هؤلاء الوزراء من الأرمن غير العرب. وقد بلغ التنافس حول منصب الوزارة إلى حد التطاحن الدموي العنيف والاستعانة بالقوتين المتصارعتين في بلاد الشام، وهما الفرنج من جهة والدولة الزنكية من جهة أخرى. علماً أن جميع الوزراء الفاطميين في عصر الوزراء، قد انتهوا قتلاً باستثناء أولهم الوزير بدر الجمالي، حتى وصلت عملية القتل إلى الخلفاء الفاطميين أنفسهم، فقتل المستعلي بالله سنة 495/ 1101، ثم ابنه الآمر بأحكام الله سنة 524/ 1130، ثم الظافر بالله سنة 549/ 1154، وأصبح «مذهب القوم ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم»[1]. إنه الصراع حول تداول السلطة داخل الدولة الفاطمية، والذي بلغ ذروته مع توجه بعض الخلفاء والوزراء الفاطميين لمسالمة «الفرنج» للبقاء في السلطة، مثل الخليفة الحافظ لدين الله والوزير بهرام الأرمني اللذين أخذا يدعوان لمسالمة الفرنج. ولم يتورع الوزير شاور عن الاستعانة تارة بدولة نور الدين محمود الزنكية في صراعه مع ضرغام حول الوزارة، ثم الاستعانة تارة أخرى بالفرنج لدخول القاهرة حماية لسلطته ووزارته من خطر نور الدين محمود الذي أرسل أسد الدين شيركوه مع ابن أخيه صلاح الدين لتوحيد مصر مع بلاد الشام قبل المواجهة الكبرى مع الفرنج.

وإذا كان بعض الخلفاء والوزراء الفاطميين، قد آثر التعاون مع الفرنج، فإن مثل هذه السياسة لم تكن محصورة بالدولة الفاطمية في آخر عهدها الذي اتسم بالضعف. فقد تحالف مع الفرنج مجير الدين آبق، آخر أتابكة الدولة البورية في دمشق، من أجل الحفاظ على سلطته، ومع ذلك زالت سلطته مع سقوط دولته على يد الدولة الزنكية سنة 549/ 1154 حينما استسلم بعد أن حصل على الأمان، فرحل إلى حمص ومنها إلى بغداد التي استقر فيها إلى حين وفاته.

وإذا كان الصراع بين الوزراء الفاطميين، توقف مع قضاء صلاح الدين الأيوبي على

---

1 ـ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 19.

الخلافة الفاطمية سنة 1171/567، فإن الصراع كان خفياً بين صلاح الدين الأيوبي وسيده نور الدين محمود بن زنكي الذي امتدت الدولة الزنكية معه من الفرات إلى النيل، موحدة العراق وبلاد الشام مع مصر التي طمع صلاح الدين الأيوبي في الانفراد بحكمها وجعلها وراثية في أسرته الأيوبية. لذلك، لم يرض صلاح الدين أن يكون مجرد نائب عن سيده نور الدين في مصر، فأخذ يماطل في تسليم مصر، كما ماطل قبلاً في اسقاط الخلافة الفاطمية والدعوة للخليفة العباسي. كما لم يشعر نور الدين محمود، خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته، أنه ضم مصر عملياً إلى دولته، لأن صلاح الدين لم يعد ينفذ أوامره، بل أخذ يماطل ويراوغ، لتحقيق مطامعه، حتى سنحت له الفرصة، بوفاة سيده نور الدين في دمشق يوم الثلاثاء 11 شوال 569/ 15 أيار 1174، قبل أن ينفجر الموقف بينهما في صراع عسكري عنيف، فإذا بهذا الصراع ينفجر بين صلاح الدين وآل زنكي.

كان الملك الصالح اسماعيل صبياً في الحادية عشرة من عمره، ومن حقه الشرعي أن يرث أباه نور الدين محمود في ملكه العريض لا في الشام فحسب بل في مصر أيضاً. وكان البيت الزنكي بالموصل ممثلاً في سيف الدين غازي بن زنكي، أخو نور الدين، غير راض أن ينتزع صلاح الدين الأيوبي، وهو أحد أتباع آل زنكي، ملك مصر وبلاد الشام.

تحرك صلاح الدين الأيوبي، بسرعة، وتوجه من مصر إلى بلاد الشام لضمها فعلياً، قبل أن يؤول حكمها إلى الوصي على الملك الصالح اسماعيل، فتمكن من دخول دمشق في أول ربيع الثاني 570/ 30 تشرين الأول 1174، ثم دخل حماه وحمص وبعلبك، لينزل الهزيمة بآل زنكي مجتمعين قرب حماه سنة 571/ 1175، وكشف النقاب، عندها، عن حقيقة موقفه ونواياه، بقطع الخطبة للملك الصالح اسماعيل ابن سيده نور الدين محمود، وباعلان سلطانه على مصر وبلاد الشام، حيث أسرع الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ليعترف به سلطاناً، قبل أن يتابع زحفه، ويدخل بزاغة ومنبج وعزاز. ثم عاد إلى القاهرة، بعد أن امتنعت عليه حلب والموصل معقل آل زنكي.

لقد عرف صلاح الدين الأيوبي، كيف يوطد علاقته بالخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، بحيث فاقت بكثير علاقة سيده نور الدين محمود بالخلافة العباسية. فقد كان الخليفة العباسي، بعد وفاة نور الدين محمود، يبحث عن رجل قوي في مصر وبلاد الشام، يدين له بالتبعية الروحية على الأقل، ويدعو له على منابر المساجد، دون الاهتمام إن كان هذا الرجل

صاحب حق شرعي في الحكم أو لم يكن، فقد أضفى عليه الخليفة هذا الحق الشرعي، بعدما تأكد من قوته بانتصاره على آل زنكي مجتمعين في المعركة قرب حماه سنة 571/ 1175، فأرسل إليه الخلع فوصلته وهو بحماه.

كان على صلاح الدين الأيوبي، أن ينتظر ثمان سنوات للقضاء على نفوذ آل زنكي وضم بلاد الشام بأسرها بعد أن فشل في دخول حلب. فسنحت له الفرصة مجدداً، مع وفاة الملك الصالح اسماعيل صاحب حلب سنة 578/ 1182. في حين آلت الموصل بعد وفاة سيف الدين غازي بن زنكي سنة 576/ 1180 إلى أخيه عز الدين مسعود الذي تنازل عن حلب لابن عمه عماد الدين زنكي الثاني الذي استقر بها سنة 578/ 1182، وأصبح عز الدين مصدر خطر على نفوذ صلاح الدين في بلاد الشام.

لذلك، عاد صلاح الدين الأيوبي، مرة ثانية، إلى بلاد الشام فدخل دمشق في يوم الثلاثاء 17 صفر 578/ 22 حزيران 1182، ثم الرقة ونصيبين والرها وسنجار وحران وآمد، ليحاصر حلب ويتسلمها يوم الأحد 18 صفر 579/ 12 حزيران 1183، ونصب ابنه الظاهر غازي حاكماً عليها. ثم حاصر الموصل، فاضطر صاحبها عز الدين مسعود لطلب الصلح سنة 581/ 1185 شرط أن تبقى الموصل بيده على أن يخطب فيها لصلاح الدين وبذلك دخلت الموصل في طاعة صلاح الدين الذي أعاد توحيد بلاد الشام ومصر.

لو سلم صلاح الدين الأيوبي، مصر، إلى سيده نور الدين محمود بن زنكي، لكانت وحدة بلاد الشام ومصر، قد تحققت عملياً سنة 567/ 1171، ولأصبحت هذه الوحدة مع الموصل التي يسيطر عليها آل زنكي، تمتد من نهر الفرات إلى نهر النيل.

فهل كان الصراع بين صلاح الدين الأيوبي وآل زنكي، ضرورياً حتى تمر أربع عشرة سنة، توفي خلالها نور الدين محمود سنة 569/ 1174، ثم أخوه سيف الدين غازي صاحب الموصل سنة 576/ 1180، ثم ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب سنة 578/ 1182، وقتل خلالها آلاف المجاهدين ضد الفرنج سواء من آل زنكي الأتراك أو من الأيوبيين الأكراد؟ إنه الصراع بين العناصر غير العربية حول السلطة، دون نكران الدور الذي قامت به جميع هذه العناصر غير العربية في مواجهة الفرنج، ودون نكران سرعة تحرك صلاح الدين بضم بلاد الشام بعد وفاة سيده نور الدين، قبل أن تضيع الوحدة التي أرادها سيده.

إنه الصراع حول السلطة التي انتهت معها الدولة الزنكية في بلاد الشام، بعد انتهاء

الدولة الفاطمية في مصر، لتقوم الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام على يد صلاح الدين الأيوبي.

فإذا كان صلاح الدين الأيوبي، وحّد مصر وبلاد الشام، من أجل مواجهة الفرنج، فلماذا عمد إلى تقسيم دولته الكبيرة بين أخوته وأبنائه، ليبلغ الصراع حول السلطة ذروته، بعد وفاته سنة 589/ 1193، حيث انتقل هذا الصراع إلى داخل البيت الأيوبي الواحد؟

بدأ الصراع داخل البيت الأيوبي الواحد، بين ولدي صلاح الدين الأيوبي، وهما الأفضل ملك دمشق والعزيز ملك مصر، ليشجع العادل سيف الدين أخو صلاح الدين، هذا الصراع، فتمكن من السيطرة على دمشق بعد عزل الأفضل. وبوفاة العزيز، تحالف الأخوان الأفضل والظاهر ضد عمهما العادل، وأوشكا أن ينتصرا عليه، لولا أن دب الخلاف بينهما، فنجح العادل سيف الدين في دخول دمشق والقاهرة، وتوحيد مصر وبلاد الشام، كما كانت زمن أخيه صلاح الدين، وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام خاضعين لسلطته. وما لبث العادل سيف الدين، أن حذا حذو أخيه صلاح الدين، فقسم الدولة الأيوبية مجدداً بين أبنائه، فجعل ابنه الكامل محمد سلطاناً على مصر وابنه المعظم عيسى على دمشق التي كانت تمتد من العريش إلى حمص، والأشرف موسى على حلب.

وإذا كان الصراع داخل البيت الأيوبي، هدأ لثلاث سنوات بعد وفاة العادل سنة 615/ 1218، وكان قبل وفاته يواجه الحملة الصليبية الخامسة على مصر (614 ـ 618/ 1217 ـ 1221) ليتابع ابنه السلطان الكامل محمد مواجهة هذه الحملة التي ما إن انسحبت إلى بلادها حتى انفجر الصراع مجدداً بين الكامل وأخويه المعظم والأشرف، ليستمر طيلة سبع سنوات (618 ـ 625/ 1221 ـ 1228)، حيث بلغ الصراع داخل البيت الأيوبي ذروته، لينتهي بتحالف المعظم والأشرف مع جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية، للوقوف في وجه أخيهما الكامل الذي لم يتورع عن التحالف مع الفرنج وتسليم بيت المقدس إلى الامبراطور فردريك الثاني الذي قاد الحملة الصليبية السادسة (625 ـ 626)/ 1228 ـ 1229)، وهي أصغر حملة في تاريخ الحروب الصليبية.

عمد السلطان الكامل محمد الأيوبي، إلى تسليم بيت المقدس صلحاً الامبراطور فردريك الثاني بموجب اتفاقية يافا سنة 626/ 1229، متغافلاً عن أهمية هذه المدينة المقدسة

التي حررها عمه صلاح الدين الأيوبي سنة 583/ 1187، وعجز عن استردادها أقوى ملوك غرب أوروبا وفي طليعتهم ملك انكلترة رتشارد قلب الأسد.

استمر الصراع، بعد وفاة السلطان الكامل محمد سنة 636/ 1238، ليتحول هذه المرة إلى ولديه العادل الثاني الذي حكم مصر والصالح نجم الدين أيوب الذي سيطر على دمشق، وما لبث أن سيطر على مصر بعد خلع أخيه العادل الثاني سنة 637/ 1240، ليقع الصراع بينه وبين ثلاثة أمراء أيوبيين يتزعمهم عمه الصالح اسماعيل أمير دمشق ومعه الناصر داود أمير الكرك وصلاح الدين شيركوه الثاني أمير حمص. وقد تحالف هؤلاء الأمراء الأيوبيين الثلاثة مع الفرنج، حتى أن الصالح اسماعيل أمير دمشق لم يتورع عن معاقبة أفراد حامية شقيف أرنون، لأنهم تصدو للفرنج حلفائه، فبادر إلى تسليم القلعة مع صفد إلى هؤلاء الفرنج سنة 638/ 1240، ثم سلمهم طبرية وعسقلان سنة 641/ 1243، وكأنه يحذو حذو شقيقه الكامل محمد الذي سلم بيت المقدس صلحاً إلى الامبراطور فردريك الثاني، وهذا ما لم يعهد له مثيل، لا في الحروب الصليبية، ولا في تاريخ الدولة الأيوبية. وقد نجح الصالح نجم الدين أيوب في الانتصار على التحالف الأيوبي ـ الفرنجي، بعد تحالفه مع الخوارزمية، فاعترف الأمراء الأيوبيون في الشام بسلطانه.

لم يقتصر التعاون مع الفرنج، ضمن سياق الصراع حول السلطة، على بعض الخلفاء والوزراء الفاطميين، أو آخر أتابكة الدولة البورية، أو بعض سلاطين وأمراء الدولة الأيوبية، بل تعداه إلى عامة الناس، حينما استطاع الفرنج مع قدوم الحملة الصليبية الأولى أن يجندوا من المسيحيين الموارنة بعض الأدلاء لارشادهم في المسير نحو الاتجاه الصحيح. كما استطاع الفرنج، بعد تأسيس مملكة بيت المقدس، أن يجندوا بعض شيعة جبل عامل المناهضين للخلافة العباسية، دون اغفال أن شيعة جبل عامل، عندما أدركو خطر الفرنج وهم يحاصرون صور سنة 805/ 1111، اندفعوا من قراهم للدفاع عن هذه المدينة. وهذا أمر طبيعي مع قدوم أي قوة عسكرية أجنبية إلى أي مكان وفي أي زمان، حيث لا يعود القرار للسكان المحليين، فيظهر من بينهم بعض المتعاونين مع العدو طمعاً في المال والسلطة والحكم، وهؤلاء قلة قليلة موجودة في مختلف المجتمعات، وليست محصورة بطائفة معينة أو مذهب معين، ولا تمثل أبداً الطائفة التي تنتمي إليها.

لذلك، لا يمكن نكران بعض الوزراء العباسيين وبعض الأمراء الأيوبيين، في التعاون مع المغول الذين اجتاحوا المشرق العربي الإسلامي. فقد أعمى التعصب المذهبي الوزير ابن العلقمي الشيعي، فخان الخليفة العباسي المستعصم بالله، وهو من أهل دينه، رغم الخلاف في المذهب، ووقف إلى جانب هولاكو الوثني الكافر، حتى تمكن من دخول بغداد سنة 656/ 1258، فإذا بالمسلمين سنَّة وشيعة على السواء يتعرضون لأبشع صفحة مأسوية في تاريخهم، على يد المغول الذين اختاروا الوزير ابن العلقمي لحكم بغداد تحت اشرافهم، فشعر بالندم، وتوفي سريعاً في السنة التي سقطت فيها بغداد.

بسقوط بغداد، اتضحت أيضاً الصورة المخزية لبعض الأمراء والسلاطين المسلمين الذين هرعوا إلى معسكر هولاكو، وفي مقدمهم أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ الأيوبي، والناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق وحلب، والسلطان السلجوقي عز الدين كيكاوس الثاني. إنه الجبن والتخاذل من أجل الحفاظ على السلطة. إنه الصراع بين العناصر الإسلامية غير العربية حول السلطة، فهذه الدول الإسلامية الأربع الفاطمية والزنكية والأيوبية والمملوكية التي آل فيها النفوذ إلى عنصر غير عربي، تمثل بمعظم الوزراء من أصل أرمني الذين آلت إليهم السلطة في العصر الثاني من حكم الدولة الفاطمية في مصر والذي عرف بعضر الوزراء، كما تمثل بالزنكيين الأتراك والأيوبيين الأكراد والمماليك الأتراك والجراكسة الذين غاب معهم العنصر العربي عن مقاليد السلطة والحكم، ليستمر هذا الغياب، عندما آلت السلطة إلى الدولة العثمانية التي أسقطت دولة المماليك سنة 923/ 1517. والعثمانيون بدورهم هم من الأتراك غير العرب الذين حكموا المشرق العربي الإسلامي طيلة أربعة قرون متتالية، انتهت بهزيمتهم في الحرب العالمية الأولى سنة 1337/ 1918، فظن العنصر العربي الابن الحقيقي لأرض المشرق العربي الإسلامي، أن الأوان قد آن لعودته إلى السلطة والحكم في أرضه، فإذا به يخضع مجدداً لسلطة أجنبية أوروبية غير إسلامية وغير عربية، هي نفسها التي انتهزت الفرصة، قبل أكثر من ثمانية قرون، حينما جاء الفرنج من غرب أوروبا وفي طليعتهم الفرنسيون والإنكليز، تحت راية الصليب، وأقاموا مملكة بيت المقدس اللاتينية في قلب فلسطين، مع الحملة الصليبية الأولى (490ـ492/ 1097ـ1099)، لتواجه العناصر غير العربية هذه المملكة، حتى تمكن

صلاح الدين الأيوبي من تحريرها سنة 583/ 1187. فإذا بانكلترا، هذه المرة، تجذب العنصر العربي إلى جانبها ليقف ضد العثمانيين غير العرب، وهي تتبع سياسة الغدر مع فرنسا ليتقاسما المشرق العربي بموجب اتفاقية سايكس، بيكو (16 أيار 1916)، دون أن تنسى هزيمة ملكها رتشارد الأول «قلب الأسد» الذي عاد إلى بلاده خائباً دون دخول بيت المقدس، فإذا بها مع وعد بلفور (2 تشرين الثاني 1917) وهو الوعد باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، تعيد تأسيس مملكة جديدة في قلب فلسطين، تحت ستار نجمة داود هذه المرة، وليست تحت راية الصليب التي أثبتت فشلها في الحروب الصليبية. وبذلك قامت دولة اسرائيل في جزء من فلسطين سنة 1948، بما فيه القدس الغربية، لتكتمل حدود هذه الدولة مع اغتصاب فلسطين بأسرها في حرب 5 حزيران 1967، عندما ضمت إليها غزة والضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، فأصبحت القدس بكاملها تحت سيطرة اسرائيل. وبذلك استعاد الفرنج في الغرب الأوروبي مملكة بيت المقدس، ولكن تحت ستار دولة اسرائيل التي اعترفوا بها لتكون شوكتهم، ثم شوكة الولايات المتحدة الأميركية من بعدهم، داخل الوطن العربي الكبير.

وغاب عن بال العنصر العربي، أن الغرب الأوروبي لم يغفل سائر الأقاليم العربية، التي طمع بها أثناء الحروب الصليبية، فكما استهدفت مصر الحملة الصليبية الخامسة (614 ـ 618/ 1217 ـ 1221) والحملة الصليبية السابعة (646 ـ 648/ 1248 ـ 1250) بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذي استهدف أيضاً تونس في الحملة الصليبية الثامنة (667 ـ 669/ 1268 ـ 1270)، فقد تمكنت فرنسا من احتلال تونس سنة 1299/ 1881، دون أن تحتل مصر، لأن انكلترة سبقتها واحتلت مصر سنة 1300/ 1882.

فماذا تغير بعد ثمانية قرون؟ إذا كان الفرنج أقاموا مملكة وثلاث امارات عن طريق الحروب الصليبية، واستقروا في بلاد الشام طيلة قرنين، عجزوا معها عن مد نفوذهم إلى مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ناهيك عن العراق وشبه الجزيرة العربية بما فيها اليمن ودول الخليج، فإنهم هذه المرة سيطروا، لا على ساحل بلاد الشام أو ساحل المشرق العربي، بل على الوطن العربي الكبير بأسره من مشرقه إلى مغربه.

وأصبح العنصر العربي، وحده هذه المرة، هو الذي يواجه على أرضه المستعمر الجديد

بشتى أشكاله وألوانه، في مسيرته للتحرر والاستقلال، حيث عادت السلطة في جميع الأقطار العربية، للعنصر العربي، ابن الأرض، دون أن يترك الغرب الأوروبي ثم الغرب الأميركي، هذا العنصر العربي وشأنه، فما أن يخرج هذا المستعمر من باب دولة عربية معلناً استقلالها حتى يدخل من النافذة بصورة مختلفة بهدف احكام سيطرته، مع بقاء فلسطين وحدها خارج هذه المعادلة، وهي تنتظر توحيد الوطن العربي، وعلى الأقل توحيد مصر وبلاد الشام كما فعل صلاح الدين الأيوبي، حتى تعود فلسطين وعاصمتها القدس إلى أهلها العرب مسلمين ومسيحيين.

الملاحق

ملحق رقم 1

الخلفاء العباسيون في العصرين الثالث والرابع
(334 ـ 656/ 945 ـ 1258)

المستكفي بالله	334/ 946
المطيع لله	334/ 946
الطائع لله	363/ 974
القادر بالله	381/ 991
القائم بأمر الله	467/ 1074
المستظهر بالله	485/ 1092
المسترشد بالله بن المستظهر	512/ 1118
الراشد بالله بن المسترشد	529/ 1134
المقتفي لأمر الله بن المستظهر	532/ 1137
المستنجد بالله بن المقتفي	555/ 1160
المستضيء بالله	566 / 1170
الناصر لدين الله بن المستنجد	575/ 1179
الظاهر بن الناصر	622/ 1225
المستنصر بن الظاهر	629/ 1232
المستعصم بالله	640/ 1242

ملحق رقم 2

الخلفاء الفاطميون

أ ـ في المغرب

(297ـ362/ 909ـ973)

المهدي بالله	297/ 909
القائم بأمر الله	322/ 934
المنصور بالله	334/ 946
المعز لدين الله	341/ 953

ب ـ في مصر

(362ـ567/ 973ـ1171)

المعز لدين الله	362/ 973
العزيز بالله	365/ 976
الحاكم بأمر الله	386/ 996
الظاهر لإعزاز دين الله	411/ 1020
المستنصر بالله	427/ 1035
المستعلي بالله بن المستنصر	487/ 1094
الآمر بأحكام الله بن المستعلي	495/ 1101
الحافظ لدين الله بن محمد بن المستنصر	524/ 1130
الظافر بالله بن الحافظ	544/ 1149
الفائز بنصر الله بن الظافر	549/ 1154
العاضد لدين الله بن يوسف بن الحافظ	555/ 1160

ملحق رقم 3

أتابك «ملوك» بلاد الشام والموصل

أ ـ أتابكية دمشق (الدولة البورية)

(497 ـ 549/ 1104 ـ 1154)

ظهير الدين طغتكين	497/ 1104
تاج الملوك بوري	523/ 1129
شمس الملوك اسماعيل بن بوري	526/ 1131
محمود بن بوري	529/ 1134
محمد بن بوري	533/ 1138
مجير الدين آبق بن محمد	534_549/ 1139_1154

ب ـ أتابكية الدولة الزنكية

في

بلاد الشام (حلب وحمص وحماه ودمشق)

(521 ـ 577/ 1127 ـ 1181)

عماد الدين زنكي	521/ 1127
نور الدين محمود بن زنكي	541/ 1146
الصالح اسماعيل بن نور الدين	569-577/ 1174 ـ 1181

جـ ـ أتابكية الدولة الزنكية

في الموصل

(521ـ630 /1127ـ1233)

عماد الدين زنكي (مع حلب)	521/ 1127
سيف الدين غازي بن عماد الدين	541/ 1146
قطب الدين مودود بن عماد الدين	544/ 1149
سيف الدين غازي (الثاني) بن قطب الدين	565/ 1169
عز الدين مسعود بن قطب الدين	576/ 1180
نور الدين أرسلان شاه بن مسعود	589/ 1193
عز الدين مسعود (الثاني) بن نور الدين	607/ 1211
نور الدين أرسلان شاه (الثاني)	615/ 1218
ناصر الدين محمود	616ـ630 / 1219ـ1233

ملحق رقم 4

السلاطين والأمراء الأيوبيون

أ ـ في مصر

الناصر صلاح الدين يوسف	567/ 1171
العزيز عثمان بن صلاح الدين	589/ 1193
المنصور محمد	595/ 1198
العادل سيف الدين، أخو صلاح الدين	597/ 1200
الكامل محمد	615/ 1218
العادل الثاني بن الكامل	636/ 1238
الصالح أيوب بن الكامل	638/ 1240
المعظم توران شاه بن الصالح أيوب	647ـ648/ 1249 ـ 1250

ب ـ في دمشق

الأفضل علي بن صلاح الدين	582/ 1186
العادل سيف الدين نائب العزيز عثمان	592/ 1196
المعظم عيسى	615/ 1218
الناصر صلاح الدين داود	624/ 1227
الأشرف موسى صاحب إقليم الجزيرة	625/ 1228
الصالح إسماعيل بن العادل	635/ 1237
الكامل محمد (سلطان مصر)	636/ 1238
العادل الثاني (سلطان مصر)	636/ 1238

الصالح اسماعيل بن العادل ـ للمرة الثانية	637/ 1239
الصالح أيوب (سلطان مصر)	643/ 1245
المعظم توران شاه (سلطان مصر)	647/ 1249
الناصر صلاح الدين يوسف الصغير صاحب حلب	648ـ659 / 1250ـ1260

جـ ـ في حلب

الظاهر غازي بن صلاح الدين	582/ 1186
العزيز محمد	613/ 1216
الناصر صلاح الدين يوسف الصغير	634ـ659/ 1236ـ1260

د ـ في الجزيرة

الأوحد أيوب بن العادل	597/ 1200
الأشرف موسى بن العادل	607/ 1210
المظفر غازي بن العادل	628ـ643 / 1230ـ1245

هـ ـ في حماه

المظفر تفي الدين عمر (ابن شاهنشاه أخو صلاح الدين)	574/ 1178
المنصور بن محمد	587/ 1191
الناصر قلج أرسلان	617/ 1220
المظفر الثاني محمود أخو الناصر قلج أرسلان	627/ 1229
المنصور الثاني محمد	642/ 1244
المظفر الثالث محمود	683ـ698 / 1284ـ1298

و ـ في حمص

القاهر محمد ابن شيركوه	574/ 1178
المغيث شيركوه الثاني بن القاهر	581/ 1185
المنصور إبراهيم بن شيركوه الثاني	637/ 1239
الأشرف موسى الثاني بن إبراهيم	643ـ661 / 1245ـ1262

ز ـ في اليمن

المعظم توران شاه أخو صلاح الدين	569/ 1173
سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين	577/ 1181
معز الدين اسماعيل بن طغتكين	592 / 1196
الناصر أيوب بن طغتكين	598/ 1201
المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه الثاني	611/ 1214
المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل	612ـ625/ 1215ـ1228

حـ ـ في بعلبك

المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب	568/ 1172
عز الدين فروخ شاه داود شاهنشاه الأول بن أيوب	575/ 1179
الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن داود	578/ 1182
الأشرف الأول بن مظفر الدين موسى	627/ 1229
الصالح اسماعيل (أخو الأشرف)	636/ 1238
الصالح أيوب (دمشق)	643/ 1245
توران شاه الرابع (دمشق)	647/ 1249
الناصر يوسف (دمشق)	648/ 1250

ط ـ في الكرك

العادل (أخو صلاح الدين)	584/ 1188
المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر	591/ 1195
الناصر صلاح الدين داود بن عيسى (صاحب دمشق)	623/ 1226
المغيث فخر الدين عمر بن العادل (الثاني) بن الكامل	637/ 1239

ي ـ في حصن كيفا وآمد

الصالح نجم الدين أيوب	629/ 1231
المعظم توران شاه (الرابع) بن أيوب بن الكامل	636/ 1238
الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه	647/ 1249

ك ـ في الموصل

بدر الدين لؤلؤ	630/ 1233
الصالح بن بدر الدين لؤلؤ	658/ 1260

ملحق رقم 5

ملوك الفرنج في بيت المقدس
(493ـ583/ 1099ـ1187)

غودفروا	493/ 1099
بودوين الأول	494/ 1100
بودوين الثاني	512/ 1118
فولك دو ألينو	525/ 1131
بودوين الثالث	537/ 1142
آموري الأول (املريك)	558/ 1162
بودوين الرابع «الأبرص»	570/ 1174
بودوين الخامس	579/ 1183
غي دو لوزينان	583/ 1185

ملحق رقم 6

سلاطين المماليك

(648_923/ 1250_1517)

أ_دولة المماليك الأولى (البحرية)

(648 _784 / 1250_1382)

شجر الدر	648/ 1250
المعز، عز الدين أيبك	648/ 1250
المنصور نور الدين علي بن أيبك	655/ 1257
المظفر سيف الدين قطز	657/ 1259
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	658/ 1260
السعيد ناصر الدين محمد بركه خان بن بيبرس	678/ 1279
العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	678/ 1279
المنصور سيف الدين قلاون	678/ 1279
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون	689/ 1290
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (المرة الأولى)	692/ 1293
العادل زين الدين كتبغا	694/ 1294
المنصور حسام الدين لاجين	696/ 1296
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (المرة الثانية)	698/ 1298
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	708/ 1308
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (المرة الثالثة)	709/ 1309

أبناء الناصر محمد بن قلاون

المنصور سيف الدين أبو بكر	742/ 1341
الأشرف علاء الدين كجك	742/ 1341
الناصر شهاب الدين أحمد	743/ 1342
الصالح عماد الدين إسماعيل	743/ 1342
الكامل سيف الدين شعبان	746/ 1345
المظفر ناصر الدين حسن (المرة الأولى)	748/ 1347
الصالح صلاح الدين صالح	752/ 1351
الناصر ناصر الدين حسن (المرة الثانية)	755/ 1354

أحفاد الناصر محمد بن قلاون

المنصور صلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجي	763/ 1361
الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين	765/ 1363
المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	778/ 1376
الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	783/ 1381

ب ـ دولة المماليك الثانية (البرجية)
(784ـ923/ 1382ـ1517)

الظاهر سيف الدين برقوق (المرة الأولى)	784/ 1382
الصالح حاجي بن شعبان	790/ 1388
الظاهر سيف الدين برقوق (المرة الثانية)	791/ 1389
الناصر فرج بن برقوق (المرة الأولى)	801/ 1398
المنصور عبد العزيز بن برقوق	808/ 1405
الناصر فرج بن برقوق (المرة الثانية)	808/ 1405

الخليفة المستعين بالله العباسي	1412 /815
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	1412 /815
المظفر أحمد بن شيخ	1421 /824
الظاهر سيف الدين ططر	1421 /824
محمد بن ططر	1421 /824
الأشرف برسباي	1422 /825
يوسف بن برسباي	1437 / 841
الظاهر جقمق	1438 /842
المنصور عثمان بن جقمق	1453 /857
الأشرف إينال	1453 /857
المؤيد أحمد بن إينال	1460 / 865
الظاهر خشقدم	1460 /865
الظاهر بلباي المؤيدي	1467 /872
الظاهر تمربغا	1468 /873
الأشرف قايتباي	1468 /873
محمد بن قايتباي (المرة الأولى)	1496 /902
الأشرف قانصوه خمسمائة	1497 /903
محمد بن قايتباي (المرة الثانية)	1497 /903
الظاهر قانصوه الأشرفي	1498 /904
الأشرف جانبلاط	1500 /906
العادل طومان باي الأول	1501 /907
الأشرف قانصوه الغوري	1501 /907
الأشرف طومان باي الثاني	1517_1516 /923_922

المصادر والمراجع

1 ـ المصادر العربية

1 ـ **ابن أبي أصيبعة**: أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت 668/ 1270).

عيون الأنباء في طبقات الأطباء: بيروت. دار مكتبة الحياة (بدون تاريخ)

2 ـ **ابن أبي الفضائل**: مفضل (ت 672/ 1273).

النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد، 2 جـ.

بلوشيه ـ باريس (1911 ـ 1930).

3 ـ **ابن الأثير**: عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت 630/ 1233).

الكامل في التاريخ 13 جـ. دار صادر، بيروت 1966.

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل.

تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة 1963.

4 ـ **ابن إياس**: أبو البركات محمد بن أحمد (ت 930/ 1523).

بدائع الزهور في وقائع الدهور 5 جـ. القاهرة الطبعة الثانية (1960 ـ 1963).

5 ـ **ابن أيبك الدواداري**: أبو بكر عبد الله (ت 736/ 1336).

كنز الدرر وجامع الغرر أو الدولة الزكية في أخبار الدولة التركية.

تحقيق أ. هارمان، القاهرة 1391/ 1971.

6 ـ **ابن بطوطة**: أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779/ 1377).

رحلة ابن بطوطة أو تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

دار صادر ـ بيروت 1964.

7 ـ **ابن تغري بردي**: أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 875/ 1470).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 13 جـ. القاهرة 1929 ـ 1952.

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. تحقيق محمد أمين ـ القاهرة 1986.

8 ـ **ابن جبير**: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي (ت 614/ 1217).

رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار. تحقيق حسين نصار، المكتبة العربية بغداد 1937، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1964.

9 ـ **ابن الجوزي**: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد (ت 597/ 1201).

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 10 جـ.

حيدر آباد الدكن ـ الهند (1938 ـ 1939).

10 ـ **ابن حجر العسقلاني**: شهاب الدين أحمد بن علي (853/ 1449).

إنباء الغمر في ابناء العمر: تحقيق حسن حبشي، القاهرة 1969 ـ 1972.

11 ـ **ابن حوقل**: أبو القاسم النصيبي.

صورة الأرض. دار مكتبة الحياة، بيروت 1969.

12 ـ **ابن شاكر الكتبي**: فخر الدين محمد بن شاكر (ت 764/ 1362).

فوات الوفيات 5 جـ: تحقيق إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت 1973 ـ 1974.

13 ـ **ابن شداد**: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت 632/ 1234).

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين.

تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية ـ القاهرة 1964.

14 ـ **ابن شداد**: عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت 684/ 1285).

تاريخ الملك الظاهر. تحقيق أحمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ڤيسبادن 1983.

15 ـ **ابن طولون**: محمد

أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. دمشق 1964.

16 ـ **ابن عبد الظاهر**: محي الدين عبد الله (ت 692/ 1292).

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور. تحقيق مراد كامل، القاهرة 1961.

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق عبد العزيز الخويطر. الرياض 1976.

17 ـ **ابن العبري**: غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت 685/ 1286).

تاريخ مختصر الدول. تحقيق أنطوان الصالحاني، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1958.

18 ـ **ابن العديم**: كمال الدين عمر بن أحمد (ت 660/ 1261).

زبدة الحلب من تاريخ حلب 2 جـ. تحقيق سامي الدهان، دمشق 1954.

19 ـ **ابن عربشاه**: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي

عجائب المقدور في نوائب تيمور.

تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1986.

20 ـ **ابن عساكر**: أبو القاسم علي بن الحسين (ت 571/ 1175).

تاريخ دمشق (سير الأعيان من أبناء دمشق). 7 جـ دار المسيرة، بيروت 1979.

21 ـ **ابن الفرات**: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807/ 1404).

تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك 9 جـ. تحقيق قسطنطين زريق، بيروت 1939 ـ 1942.

22 ـ **ابن فضل الله العمري**: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 742/ 1341).

التعريف بالمصطلح الشريف. بيروت 1988.

23 ـ **ابن القلانسي**: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي (ت 555/ 1160).

ذيل تاريخ دمشق. تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق 1983.

24 ـ **ابن القوطي**: كمال الدين عبد الرزاق (ت 723/ 1323).

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة. نشر مصطفى جواد. بغداد 1932.

25 ـ **ابن كثير**: أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت 774/ 1373).

البداية والنهاية 14 جـ. القاهرة (1932 ـ 1939)، مكتبة المعارف بيروت ط4 (1981).

26 ـ **ابن منقذ: اسامة مؤيد الدولة أبو المظفربن مرشد الكناني الشيزري (ت 584/ 1188).**

الاعتبار. تحقيق فيليب حتي، الدار المتحدة للنشر، بيروت 1981.

27 ـ **ابن ميسر**: محمد بن علي (ت 677/ 1278).

أخبار مصر 2 جـ. نشر هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة1920 .

28 ـ **ابن واصل**: أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سالم الشافعي (ت 697/ 1298).

مفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب 2 جـ. تحقيق جمال الدين الشيال، نشر مطبعة جامعة القاهرة، الجزء الأول 1953 ، والجزء الثان 1957 .

29 ـ **ابن الوردي**: زين الدين عمر بن محمد (ت 750/ 1349).

تاريخ ابن الوردي أو تتمة المختصر في أخبار البشر 2 جـ. القاهرة 1868 ، والمطبعة الحيدرية ـ النجف 1969 .

30 ـ **ابن يحيي**: صالح (ت 850/ 1446).

تاريخ بيروت. تحقيق كمال الصليبي وفرنسيس هورس اليسوعي، بيروت 1969 .

31 ـ **أبو شامة**: أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعي (ت 665/ 1267).

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية 2 جـ. دار الجيل، بيروت (بدون تاريخ)، مصورة عن طبعة القاهرة (1870 ـ 1871).

الذيل على الروضتين: أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع، نشر زاهد الكوثري وعزت العطار الحسيني، دار الجيل بيروت (بدون تاريخ) مصورة عن طبعة القاهرة 1974.

32 ـ **أبو الفداء**: عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماه (ت 732/ 1332).

المختصر في أخبار البشر جـ 3 و 4. بيروت (بدون تاريخ).

33 ـ **إدريس: عماد الدين** (ت 872/ 1468).

تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب. تحقيق محمد اليعلاوي. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.

34 ـ **التنوخي**: أبو علي المحسن بن علي (ت 384/ 994).

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة 8 جـ. تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت 1971 ـ 1973.

35 ـ **الذهبي**: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748/ 1347).

دول الإسلام جـ 2. حيدر آباد الدكن 1918 ، ومؤسسة الأعلمي، بيروت 1985 .

36 ـ **سبط ابن الجوزي**: شمس الدين بن قزاوغلي (ت 654/ 1256).

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة 1968.

37 ـ **السيوطي**: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت 911/ 1505).

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 2 جـ. القاهرة 1909.

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة. القاهرة المكتبة التجارية 1952.

38 ـ **الشيزري**:

نهاية الرتبة في طلب الحسبة. نشر السيد الباز العريني القاهرة 1946.

39 ـ **الظاهري**: غرس الدين خليل بن شاهين (ت 873/ 1468).

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: تحقيق بول رامنسي، باريس 1895.

40 ـ **عماد الدين الأصفهاني**: أبو عبدالله محمد الفتح بن علي (ت 597/ 1201).

تاريخ دولة آل سلجوق. القاهرة 1900، ودار الآفاق الجديدة، بيروت طبعة ثانية 1978.

الفتح القسي في الفتح القدسي. تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية ـ القاهرة 1965.

البرق الشامي. تحقيق مصطفى الحباري وفالح صالح حسين، عمان 1987.

41 ـ **عمارة اليمني**: أبو الحسن نجم الدين (ت 569/ 1173).

النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية. نشر دو نبورغ. باريس 1897.

42 ـ **القلقشندي**: أبو العباس أحمد (ت 821/ 1418).

صبح الأعشى في صناعة الإنشا 14 جـ. القاهرة 1913 ـ 1917.

43 ـ **المقدسي: شمس الدين أبو عبدالله محمد** (ت 380/ 990).

احسن التقاسيم في معرفة دول الأقاليم: مراجعة محمد مخزوم، بيروت 1987.

44 ـ **المقريزي**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت 845/ 1441).

السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة (1934 ـ 1939).

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) 2 جـ. بولاق القاهرة 1853، ومطبعة الساحل الشياح ـ بيروت 1959.

إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا 3 جـ. نشر جمال الدين الشيال ومحمد حلمي

محمد أحمد، القاهرة 1967 ـ 1973.

45 ـ **ياقوت الحموي**: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت 626/ 1229).

معجم البلدان 8 جـ. في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان، بيروت 1979.

2 ـ المصادر الفارسية

1 ـ **الجوزجاني**: أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين (ت 698/ 1298).

طبقات ناصري. نشر وليم ناسوليس، مولوي خادم حسين، مولوي عبد الحي كلكوتا 1864.

2 ـ **الجويني**: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت 681/ 1282).

تاريخ جهانكشاي: نشر محمد بن عبد الوهاب القزويني، ليدن 1911 ـ 1937.

3 ـ **خوندمير**: غياث الدين محمد بن همام الدين (ت 942/ 1535).

حبيب السير في أخبار أفراد البشر. بومباي 1858 وطهران 1914.

4 ـ **رشيد الدين**: فضل الله بن عماد الدولة موفق الدولة الهمذاني (ت 718/ 1318).

جامع التواريخ، تاريخ المغول، مجلد 2 جـ 1. (تاريخ هولاكو خان). نقله عن الفارسية إلى العربية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة 1960.

5 ـ **وصاف الحضرة**: أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي.

تاريخ وصاف. بومباي 1852.

3 ـ المراجع العربية

1 ـ **الجميلي** رشيد

دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي

دار النهضة العربية، بيروت، طبعة ثانية 1970 .

2 ـ **حبشي** حسن

نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي ـ القاهرة.

3 ـ **حسن** إبراهيم حسن

العملة الإسلامية في العهد الأتابكي. بغداد 1966 .

4 ـ **حسن** علي إبراهيم

تاريخ المماليك البحرية

مكتبة النهضة العربية، القاهرة، طبعة ثالثة 1967 .

5 ـ **الحويري** محمود محمد

بناء الجبهة الاسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين

دار المعارف، مصر طبعة أولى 1992 .

6 ـ **خليل** عماد الدين

الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام،

مؤسسة الرسالة، بيروت 1980 .

عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت 1971 .

نور الدين محمود وتجربته الإسلامية

دار القلم، دمشق، طبعة ثانية 1987 .

7 ـ **خليل** فؤاد

الاقطاع الشرقي. دار المنتخب، بيروت 1996 .

8 ـ دجاني (هادية) وشكيل (برهان)
الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى
مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1994.

9 ـ دراج أحمد
المماليك والفرنج القاهرة 1961.

10 ـ زكار سهيل
مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية
مؤسسة الرسالة، بيروت 1972.

11 ـ سرور محمد جمال الدين
دولة بني قلاون في مصر. دار الفكر العربي، القاهرة.

12 ـ سيد أيمن فؤاد،
الدولة الفاطمية في مصر،
الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1992.

13 ـ شبارو عصام
السلاطين في المشرق العربي (السلاجقة، الأيوبيون)
دار النهضة العربية، بيروت.
السلاطين في المشرق العربي (المماليك)
دار النهضة العربية، بيروت.
تاريخ المشرق العربي الإسلامي
(447 ـ 923/ 1055 ـ 1517).
دار الفكر اللبناني بيروت 1999.

14 ـ شميساني حسن
مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة 921/ 1515،
عالم الكتب، 1987.

15 ـ الصياد فؤاد عبد المعطي
الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين (أسرة هولاكوخان)

مركز الوثائق ـ جامعة الكويت 1987.

16 ـ **ضومط** أنطوان خليل
الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري.
دار الحداثة، بيروت 1980.

17 ـ **طقوش** محمد سهيل
تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام
(648 ـ 923/ 1250 ـ 1517).
دار النفائس، بيروت 1997.
تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام (521 ـ 630/ 1127 ـ 1233). دار النفائس، بيروت 1999.

18 ـ **عاشور** سعيد عبد الفتاح
قبرص والحروب الصليبية القاهرة 1957.
الحركة الصليبية
مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، طبعة ثانية 1963.
العصر المماليكي في مصر والشام.
النهضة العربية، القاهرة 1965.
مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك،
دار النهضة العربية، بيروت
بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى
جامعة بيروت العربية، بيروت 1977.

19 ـ **العبادي** أحمد مختار
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام
دار النهضة العربية، بيروت 1969.
في التاريخ العباسي والفاطمي. دار النهضة العربية، بيروت.

20 ـ **العبادي** (أحمد مختار) وسالم (السيد عبد العزيز)
تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام

دار النهضة العربية ـ بيروت 1981.

21 ـ عبد السيد حكيم أمين
قيام دولة المماليك الثانية
الدار القومية، القاهرة 1966.

22 ـ العريني السيد الباز
المماليك
دار النهضة العربية، بيروت 1979.
المغول
دار النهضة العربية، بيروت 1981.
الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون)
دار النهضة العربية، بيروت 1967.

23 ـ عمار يحي حسن
تاريخ الملك العادل نور الدين محمود
نيطا 1991.

24 ـ مؤنس حسين
نور الدين محمود.
الشركة العربية، القاهرة 1959.

25 ـ نسيم جوزف
العدوان الصليبي على بلاد الشام
دار النهضة العربية، بيروت 1981.

26 ـ نوري دريد عبد القادر
سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة.
مطبعة الارشاد، بغداد 1976.

4 ـ المصادر والمراجع الأوروبية المعربة

1 ـ **إيفانوف**: نيقولاي.

الفتح العثماني للأقطار العربية (1516 ـ 1574). نقله إلى العربية يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت 1988.

2 ـ **شبولر**: بارتولد

تاريخ الترك في آسيا الوسطى. نقله عن التركية أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة 1958.

العالم الإسلامي في العصر المغولي. ترجمة خالد أسعدعيسى. دار حسان، دمشق 1982.

3 ـ **جوانفيل**: جان دو.

القديس لويس وحملاته على مصر والشام.

تعريب حسن حبشي، القاهرة 1968.

4 ـ **دو شارتر**: فوشيه

تاريخ الحملة إلى القدس. ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان (الأردن) 1990.

القديس لويس، حياته وحملاته على مصر مصر والشام: تعريب حسن حبشي، القاهرة 1968.

5 ـ **رنسيمان**: ستيفن.

تاريخ الحروب الصليبية 3 جـ: تعريب السيد الباز العريني، دار الثقافة ـ بيروت طبعة ثانية 1981.

6 ـ **الصوري**: وليم (ت 581/ 1185).
تاريخ الحروب الصليبية: تعريب سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1990.
والجزء الرابع، تعريب حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1992.
7 ـ **لينبول**: ستانلي
سيرة القاهرة. ترجمة حسن إبراهيم حسن وحسن علي إبراهيم. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1993.
8 ـ **موير**: سير وليم
تاريخ دولة المماليك في مصر. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن. مكتبة مدبولي، القاهرة 1995.

5 ـ المراجع الأوروبية

1 – Elisséeff : N

Nur AD – DIN, Un Grand Prince Musulman de Syrie au Temps des Croisades Damas 1967.

2 – Crousset: Rènè.

Histoire des Croisades et du Royaume Franque de Jerusalem Paris 1934 – 1936.

L'Empire des Stepps. Paris 1969.

3 – Lamb: Harold.

The Crusades, The Flame of Islam, London 1931.

4 – Lane Poole: S

Saladin and the Fall of Kingdom of Jerusalem. New York 1898.

5 – Michaud.

Histoire des Croisades V 4, Paris 1958.

6 – Setton: Kenenth Meyer.

A History of the Crusades 4 vol. Pensyl vania 1958.

7 Stevenson: William Barron.

The Crusades in the East, Cambridge 1968.

فهرس المحتويات

تقديم المؤرخ أ. د عصام شبارو..5

المقدمة 9

الفصل الأول: انتقال الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر

وتوسعها في المشرق العربي

(362_567 /973_1171) 17

1 ـ قيام الخلافة الفاطمية في المغرب

(297_362 /909_973) 17

2 ـ انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (362/ 973)................18

3 ـ بدء نشر الدعوة الاسماعيلية الفاطمية..........................18

4 ـ عهد الخلفاء الفاطميين والتوسع في المشرق العربي

(362_468 /973_1075) 21

5 ـ عهد الوزراء الفاطميين

(468_567 /1075_1171) 22

الفصل الثاني :نشوء مملكة بيت المقدس

وامارات الفرنج في المشرق العربي وتطورها

(490_525 /1097_1131) 25

1 ـ تأسيس إمارة الرها (490/ 1097) ....
2 ـ تأسيس إمارة أنطاكية (491/ 1098) 26
3 ـ تأسيس مملكة بيت المقدس وتوسعها
(492 ـ 525/ 1099 ـ 1131) 28
4 ـ تأسيس كونتية طرابلس (503/ 1109)..................31
5 ـ دمشق تتزعم المواجهة العسكرية ضد الفرنج
(498 ـ 523/ 1104 ـ 1129)............................34
الفصل الثالث نشأة الدولة الزنكية والصدام مع الفرنج
(521 ـ 569/ 1127 ـ 1174)............................39
1 ـ نشأة الدولة الزنكية في الموصل وحلب
(521 ـ 522/ 1127 ـ 1128) 40
2 ـ انتصارات عماد الدين زنكي واسترداد الرها
(524 ـ 539/ 1130 ـ 1144) 40
3 ـ فشل الحملة الصليبية الثانية على دمشق
(541 ـ 543/ 1146 ـ 1148)............................42
4 ـ القضاء على الدولة البورية في دمشق وتوحيد بلاد الشام
على يد نور الدين محمود بن زنكي (549/ 1154) 43
5 ـ الصراع بين نور الدين محمود واملريك الأول
حول السيطرة على مصر (559 ـ 564/ 1164 ـ 1169)......44
6 ـ القضاء على الخلافة الفاطمية واتساع دولة نور الدين محمود
من الفرات إلى النيل (7 محرم 567/ 10 أيلول 1171).........47
الفصل الرابع نشأة الدولة الأيوبية وتطورها والصدام مع الفرنج
(569 ـ 648/ 1174 ـ 1250)............................49
1 ـ نشأة الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين
(564 ـ 570/ 1169 ـ 1174) 50
2 ـ توحيد مصر وبلاد الشام

(570 ـ 581/ 1174 ـ 1185)............................ 52
3 ـ هزيمة الفرنج في حطين
(الجمعة 24 ربيع الثاني 583/ 4 تموز 1187)................ 54
4 ـ تحرير بيت المقدس
(الجمعة 27 رجب 583/ 2 تشرين الأول 1187)........... 57
5 ـ الحملة الصليبية الثالثة ودخول عكا
(585 ـ 588/ 1189 ـ 1192)............................ 58
6 ـ وفاة صلاح الدين وتقسيم الدولة الأيوبية
(الأربعاء 27 صفر 589/ 5 آذار 1193)................ 60
7 ـ اعادة توحيد مصر وبلاد الشام ثم تقسيمها
عهد العادل سيف الدين
(597 ـ 615/ 1200 ـ 1218)............................ 61
8 ـ مواجهة الكامل محمد بن العادل للحملة الصليبية
الخامسة ضد مصر
(615 ـ 618/ 1218 ـ 1221)............................ 63
9 ـ تسليم الكامل محمد بيت المقدس صلحاً إلى الامبراطور
فردريك الثاني (ربيع الأول 626/ شباط 1229)............ 63
10 ـ الناصر داود يسترد بيت المقدس
(638/ 1240).. 65
11 ـ أمير دمشق الصالح اسماعيل يسلم صفد وشقيف
أرنون وطبرية وعسقلان للفرنج
(638 ـ 641/ 1240 ـ 1243)............................ 65
12 ـ سيطرة الصالح أيوب بن الكامل على بيت المقدس
(3 صفر 642/ 11 تموز 1244)............................ 66
13 ـ الحملة الصليبية السابعة ضد مصر
(647 ـ 648/ 1249 ـ 1250)............................ 66

14 ـ مقتل توران شاه بن الصالح أيوب ونهاية الدولة الأيوبية
(27 محرم 648/ 2 أيار 1250)............................70
الفصل الخامس نشأة دولة المماليك
واقصاء الفرنج عن المشرق العربي
(648 ـ 690/ 1250 ـ 1291)............................73
1 ـ نشأة دولة المماليك (648/ 1250)........................73
2 ـ انتصارات الظاهر بيبرس على الفرنج
(663 ـ 669/ 1265 ـ 1271)............................75
(أ) سقوط قلعة صفد
(19 شعبان 664/ 26 أيار 1266)..........................77
(ب) سقوط إمارة أنطاكية
(4 رمضان 666/ 18 أيار 1268)..........................77
(جـ) الحملة الصليبية الثامنة على تونس
(668 ـ 669/ 1269 ـ 1270)............................78
(د) تحرير حصن الأكراد وحصن عكار
(669/ 1271)..79
3 ـ المنصور قلاون وتحرير حصن المرقب (684/ 1285)
وطرابلس (688/ 1289)...............................80
4 ـ الأشرف خليل بن قلاون وتحرير عكا وبيروت وصور وصيدا
(690/ 1291)..81
الفصل السادس الصدام بين المماليك والمغول
(658 ـ 703/ 1260 ـ 1303)و
(795 ـ 808/ 1393 ـ 1405)............................83
1 ـ جنكيزخان مؤسس امبراطورية المغول.....................83
2 ـ هولاكو وسقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية
(الأربعاء 7 صفر 656/ 13 شباط 1258)....................86

3 ـ سقوط حلب ودمشق أمام تحالف المغول ـ الفرنج ـ الأرمن
(657 ـ 658/ 1259 ـ 1260)............................89
4 ـ أسطورة جيش المغول قوة لا تقهر........................91
5 ـ هزيمة المغول بقيادة كتبغا
أمام المماليك بقيادة قطز في عين جالوت
(25 رمضان 658/ 3 أيلول 1260)........................94
6 ـ الظاهر بيبرس واقامة خلافة عباسية صورية في القاهرة
(رجب 659/ حزيران 1261)..............................97
7 ـ هزائم المغول أمام المماليك
(671 ـ 708/ 1272 ـ 1303)............................98
8 ـ عودة خطر المغول بزعامة تيمورلنك
(795 ـ 808/ 1393 ـ 1405)............................100
(أ) اجتياح بغداد مرتين (795/ 1393) و (802/ 1400)....101
(ب) استباحة حلب (803/ 1400).........................102
(ج) استباحة دمشق
(9 ـ 28 رجب 803/ 23 شباط ـ 14 آذار 1401)...........103
(د) انتهاء خطر المغول بوفاة تيمورلنك
(808/ 1405)..105
9 ـ سقوط دولة المماليك في بلاد الشام ومصر
(922 ـ 923/ 1516 ـ 1517)............................107
(أ) الصراع بين المماليك والعثمانيين والصفويين حول الزعامة....108
(ب) موقعة مرج دابق ودخول العثمانيين إلى بلاد الشام
(24 رجب 922/ 24 آب 1516)...........................109
(جـ) موقعة الريدانية ودخول العثمانيين إلى مصر
(27 ذو الحجة 922/ 22 كانون الثاني 1517)..............110
(د) شنق طومان باي آخر سلاطين دولة المماليك

(الثلاثاء 22 ربيع الأول 923/ 13 نيسان 1517)............111
الفصل السابع مدخل إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي
أو
التاريخ الحضاري عند الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك.113
1 ـ مفهوم السلطة والتركيب الإداري..........114
2 ـ النظام القضائي..........117
3 ـ النظام الاقطاعي..........118
4 ـ المجتمع وعزلة العنصر العربي..........121
5 ـ العمران..........125
6 ـ الفكر والآداب والعلوم..........130
(أ) دار الحكمة (395/ 1005)..........130
(ب) المدارس..........131
(جـ) البيمارستانات والأطباء..........133
(د) المؤرخون..........134
7 ـ العلاقة بين الشرق العربي والغرب الأوروبي..........140
(أ) العلاقة بين الامبراطور فردريك الثاني
والسلطان الكامل محمد بن العادل الأيوبي
(625 ـ 636/ 1228 ـ 1238)..........140
(ب) ازدياد الحركة التجارية..........146
الخاتمة:..........153
الملاحق:..........163
1 ـ الخلفاء العباسيون في العصرين الثالث والرابع
(334 ـ 656/ 945 ـ 1258)..........165
2 ـ الخلفاء الفاطميون..........166
(أ) في المغرب (297 ـ 362/ 909 ـ 973)..........166
(ب) في مصر (362 ـ 567/ 973 ـ 1171)..........166

3 ـ أتابك «ملوك» بلاد الشام والموصل.......................... 167
(أ) أتابكية دمشق «الدولة البورية»
(497 ـ 549/ 1104 ـ 1154)................................. 167
(ب) أتابكية الدولة الزنكية في بلاد الشام (حلب وحمص وحماه ودمشق).
(521 ـ 577/ 1127 ـ 1181)................................. 167
(جـ) أتابكية الدولة الزنكية في الموصل
(521 ـ 630/ 1127 ـ 1233)................................. 168
4 ـ السلاطين والأمراء الأيوبيون
(أ) في مصر (567 ـ 648 / 1171 ـ 1250)........................ 169
(ب) في دمشق (582 ـ 659/ 1186 ـ 1260)....................... 169
(جـ) في حلب (582 ـ 659/ 1186 ـ 1260)....................... 170
(د) في الجزيرة (597 ـ 643/ 1200 ـ 1245)...................... 170
(هـ) في حماه (574 ـ 698/ 1178 ـ 1298)....................... 170
(و) في حمص (574 ـ 661/ 1178 ـ 1262)........................ 171
(ز) في اليمن (569 ـ 625/ 1173 ـ 1228)........................ 171
(حـ) في بعلبك (568 ـ 648/ 1172 ـ 1250)...................... 171
(ط) في الكرك (584 ـ 637/ 1188 ـ 1239)....................... 172
(ي) في حصن كيفا وآمد (629 ـ 648/ 1231 ـ 1250)......... 172
(ك) في الموصل (630 ـ 658/ 1233 ـ 1260)...................... 172
5 ـ ملوك الفرنج في بيت المقدس
(493 ـ 583/ 1099 ـ 1187)................................. 173
6 ـ سلاطين المماليك
(648 ـ 923/ 1250 ـ 1517)................................. 174
(أ) دولة المماليك الأولى «البحرية»
(648 ـ 784/ 1250 ـ 1382)................................. 174
(ب) دولة المماليك الثانية «البرجية»

(784_923/ 1382_1517)....................................175
المصادر والمراجع...177
1 ـ المصادر العربية..177
2 ـ المصادر الفارسية 183
3 ـ المراجع العربية 184
4 ـ المصادر والمراجع الأوروبية المعربة 188
5 ـ المراجع الأوروبية..190
الخرائط
1 ـ مملكة بيت المقدس وإمارتا الرها وإنطاكية وكونتية طرابلس......33
2 ـ معركة حطين...56
3 ـ دلتا النيل عند مجيء الحملة الصليبية السابعة....................68
4 ـ القاهرة داخل السور والأبواب السبعة...........................127

أعمال المؤلفة

1 ـ الأندلس في العصر الذهبي

دار النهضة العربية، بيروت 2008

2 ـ تاريخ لبنان الوسيط

دار النهضة العربية، بيروت طبعة اولى 2009، وطبعة ثانية 2010

3 ـ الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي

دار النهضة العربية، بيروت 2010

4 ـ محاضرات في تاريخ الدولة العباسية



من أعمال المؤلفة

1 - الأندلس في العصر الذهبي
دار النهضة العربية، بيروت 2008

2 - تاريخ لبنان الوسيط
دار النهضة العربية، بيروت طبعة أولى 2009،
وطبعة ثانية 2010

3 - الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي
دار النهضة العربية، بيروت 2010

ISBN 978-614-402-113-2
9 786144 021132